

اللّه اللحياني صاحب أشغال بجاية فصار في جملة، وولاه بعدها الولايات الجليلة، وكان يستخلفه بتونس في مغيبه.

وفي هذه السنة تقبض على وزيره ميمون بن موسى واستصفى أمواله، وأشخصه إلى قابس فاعتقل بها مدة. ثم غربه إلى الإسكندرية، واستوزر مكانه أبا يحيى بن أبي العلا بن جامع، إلى أن هلك، فاستوزر بعده أبا زيد ابن أخيه الآخر محمد إلى أن هلك.

الخبر عن مهلك ابن غانية وحركة السلطان إلى بجاية وولاية ابنه الأمير أبي يحيى زكريا عليها

لما استقل الأمير أبو زكريا بإفريقية وخلع طاعة بني عبد المؤمن صرف عزمه أولاً إلى مدافعة يحيى بن غانية عن نواحي أعماله، فكانت له في ذلك مقامات مذكورة، وشرده عن جهات طرابلس والزاب وواركلا. واختط بواركلا المسجد لما نزلها في اتباعه، وأنزل بالأطراف عساكره وعماله لمنعها دونه. ولم يزل ابن غانية وأتباعه من العرب من أفريق سليم وهلال وغيرهم على حالهم من التشريد والجللاء، إلى أن هلك سنة إحدى وثلاثين وستمائة، وانقطع عقبه فانقطع ذكره، ومحا الله آثار فتته من الأرض. واستقام أمر الدولة ونبضت منها عروق الاستيلاء واتسع نطاق الملك. ونهضت عزائمهم إلى تدويخ أرض المغرب فخرج من تونس سنة اثنتين وثلاثين وستمائة يؤم بلاد زناتة بالمغرب الأوسط. وأغذ السير إلى بجاية فتلوم بها. ثم ارتحل إلى الجزائر فافتتحها وولى عليها. ثم نهض منها إلى بلاد مغراوة فأطاعه بنو منديل بن عبد الرحمن، وجاهر بنو توجين بخلافه، فنزل البطحاء وأوقع بهم. وتقبض على رئيسهم عبد القوي بن العباس فاعتقله، وبعث به إلى تونس ودوخ المغرب الأوسط وقفل راجعاً إلى حضرته. وعقد مرجعه من المغرب لابنه الأمير أبي يحيى زكريا على بجاية وأنزله بها. واستوزر له يحيى بن صالح بن إبراهيم الهتاتي وجعل شواره لعبد الله بن أبي تهدي، وجبايته لعبد الحق بن ياسين، وكلهم من هتاتة. وكتب إليه بوصيته مشتملة على جوامع الحلال في الدين والمملك والسياسة، يجب إثباتها لشرف مغزاها وغرابة معناها ويأتي نصها فيما بعد.

الخبر عن استبداد الأمير أبي زكريا بالأمر لبني عبد المؤمن

لما اتصل به ما أتاه المأمون من قتل الموحدين بمراكش، وخصوصاً هتاتة وتينمل. وكان منهم أخواه أبو محمد عبد الله المخلول وإبراهيم، وأنه أشاع التكبر على المهدي في العصمة، وفي وضع العقائد والنداء للصلوات باللسان البربري، وإحداث النداء للصبح وتربيع شكل الدرهم وغير ذلك من سننه. وأنه غير رسوم الدعوة، وبدل أصول الدولة. وأسقط اسم الإمام من الخطبة والسكة وأعلن بلعنه. ووافق بلوغ الخبر بذلك وصول بعض العمال إلى تونس بتولية المأمون فصرفهم، وأعلن بخلعه سنة ست وعشرين وستمائة. وحول الدعوة إلى يحيى ابن أخيه الناصر المنتزي عليه بجبال المسكرة. ثم اتصل به بعد ذلك عجز يحيى واستقلاله، فأغفله واقتصر على ذكر الإمام المهدي، وتلقب بالأمير ورسم علامته به في صدور مكتوباته. ثم جدد البيعة لنفسه سنة أربع وثلاثين وستمائة، وثبت ذكره في الخطبة بعد ذكر الإمام مقتصرأ على لفظ الأمير، لم يجاوزه إلى أمير المؤمنين. وخاض أولياء دولته في ذلك حتى رفع إليه بعض شعرائه في مفتوح كلمة مدحه بها:

الأصل بالأمير المؤمنين فأت بها أحق العالمينا
فزحزحهم عن ذلك وأبى عنه، ولم يزل على ذلك إلى آخر دولته.

الخبر عن فتح بجاية وقسطنطينية

لما استقل الأمير أبو زكريا بالأمر بتونس، وخلع بني عبد المؤمن، ونهض إلى قسطنطينية سنة ست وعشرين وستمائة، فنزل بساحتها وحاصرها أياماً. ثم داخله ابن علناس في شأنها وأمكنه من غرتها فدخلها، وتقبض على واليها السيد ابن السيد أبي عبد الله الخرصاني بن يوسف العشري. وولى عليها ابن النعمان. ورحل إلى بجاية فافتتحها، وتقبض على واليها السيد أبي عمران ابن السيد أبي عبد الله الخرصاني وصيرهما معتقلين في البحر إلى المهدي. وأجريت عليهما هنالك الأرزاق، وبعث بأهلها ولدهما مع ابن أوماز إلى الأندلس، فنزلوا بأشبيلية. وبعث معهم إلى المهدي في الاعتقال محمد بن جامع وابنه وابن أخيه جابر بن عون بن جامع من شيوخ مرداس عوف، وابن أبي الشيخ بن عساكر من شيوخ الداودة، فاعتقلوا بمطبق المهدي وكان أخوه أبو عبد

الخبر عن سطوة السلطان بهوارة

فنفذ الأمر بقتلهم فقتلوا، وبعث برؤوسهم إلى باب السلطان، ونصبت أشلائهم بأسوار طرابلس، وأصبحوا عبرة للمعتبرين وأنشد الشعراء في التهنية بهم وقامت للبشائر سوق لكانتهم.

وكان من قتل معه محمد ابن قاضي القضاة بمراكش أبي عمران بن عمران. وصل علقا إلى تونس وقصد طرابلس فاتصل بهذا المرغي، ونمي عنه أنه أنشأ خطبة ليوم البيعة فكانت سائقة حثفه. وكان بالمهدية رجل من الدعاة يعرف بأبي حمراء اشتهر بالنجدة في غزو البحر، وقدم على الأسطول فردد الغزو حتى هابه الغزى من أمم الكفر، وأمنت سواحل المسلمين من طروقههم. وطار له فيها ذكر ونمي أنه كان مداخلاً للجواهري والمرغي، وأن القاضي بالمهدية أبا زكرياء البرقي اطلع على دسيستهم في ذلك، فنفذ الأمر السلطاني للوالي بها أبي علي بن أبي موسى بن أبي حفص بقتل ابن أبي الأحمر، وإشخاص القاضي إلى الحضرة معتقلاً، فأمضى عهده.

ولما وصل البرقي إلى تونس فحص السلطان عن شأنه فبرىء من مداخلتهم، فسرّحه وأعادته إلى بلده. وقتل بالحضرة رجل آخر من الجند اتهم بمداخلتهم وسعايته في قيامهم، وكان له تعلق بريحاب بن محمود أمير دياب، فأوعز السلطان إلى بعض الدعار من زناته، فقتله غيلة ثم أهدر دمه. وتبع أهل هذه الخائنة بالقتل حتى حسم الداء، ومحا شوائب الفتنة.

الخبر عن بيعة بلنسية ومرسية وأهل شرق

الأندلس ووفدهم

لما استقل أبو جميل زيان بن أبي الحملات مدافع بن أبي الحجاج بن سعد بن مردنيش بملك بلنسية، وغلب عليها السيد أبا زيد بن السيد أبي حفص، وذلك عند خمود ربح بني عبد المؤمن بالأندلس، وخروج ابن هود على المأمون، ثم فتنه هو مع ابن هود، وثورة ابن الأحمر بأرجونة، واضطراب الأندلس بالفتنة. وأسف الطاغية إلى ثغور الأندلس من كل جانب. وزحف ملك أرغون إلى بلنسية فحاصرها، وكانت للعدو سنة ثلاث وثلاثين وستمائة سبع محلات لحصار المسلمين: اثنتان منها على بلنسية، وجزيرة شقر وشاطبة. ومحلة بجيان ومحلة بطبيرة ومحلة بمرسية ومحلة بلبله، وأهل جنوة من وراء ذلك على سبته.

ثم تملك طاغية قشتالة مدينة قرطبة، وظفر طاغية أرغون بالكثير من حصون بلنسية والجزيرة، وبنى حصن أنيسة لحصار بلنسية. وأنزل بها عسكره وانصرف، فاعتزم زيان بن مردنيش على

كان لهوارة هؤلاء بإفريقية ظهور وعدد منذ عهد الفتح، وكانت دولة العبيدين قد جرت عليهم بكلكلها لما كان منهم في فتنة أبي يزيد كما نذكره في أخبارهم. وبقي منهم فل بجبل أوراس وما بعده من بلاد إفريقية وبساتنها إلى أبة ومراجنة وسيية وتبرسق.

ولما انقرض ملك صنهاجة بالموحدين وتغلب الأعراب من هلال وسليم على سائر النواحي بإفريقية، وكثروا ساكنها، وتغلبوا عليهم أخذ هذا الفل بمذهب العرب وشعارهم وشارتهم في اللبوس والزي والظعون وسائر العوائد. وهجروا لغتهم العجمية إلى لغتهم، ثم نسوها كان لم تكن لهم، شأن المغلوب في الاقتداء بغالبه. ثم كان لهم نجاش أول الدولة إلى الطاعة بغلب عبد المؤمن وقومه. فلما استبد الأمير أبو زكريا، وانقلبت الدولة إلى بني أبي حفص ظهر منهم التياث في الطاعة، وامتناع عن المغرم، وأضرار بالسائلة، فاعتمل السلطان في أمرهم. وخرج من تونس سنة ست وثلاثين وستمائة مورياً بالغزو إلى أهل أوراس، وبعث في احتشادهم فتوافدوا في معسكره. ثم صبحهم في عسكره من الموحدنين والعرب ففتك بهم قتلاً وسيياً، واكتسح أموالهم وقتل كبيرهم أبو الطيب بكرة بن حناش وأفلت من أفلت منهم ناجياً بنفسه، عارياً من كسبه، فالانت هذه البطشة من حدهم وخضدت من شوكتهم، واستقاموا على الطاعة بعد.

الخبر عن ثورة المرغي بطرابلس ومآل أمره

كان هذا الرجل من مشيخة الموحدنين وهو يعقوب بن يوسف بن محمد المرغي ويكنى بأبي عبد الرحمن، وكان الأمير أبو زكرياء وقد عقد له على طرابلس وجهاتها، وسرح معه عسكراً من الموحدنين لحمايتها من أعراب دياب من بني سليم، فقام بأمرها واضطلع بجباية رعاياها. واستخدم العرب والبربر الذين بساحتها وكان بينه وبين الجواهري مصدوقة ود. فلما قتل الجواهري سنة تسع وثلاثين وستمائة كما قدمناه استوحش لها يعقوب المرغي واستقدمه السلطان فتلكأ، وبعث عنه أخاه ابن أبي يعقوب فازداد نفاره، وحدته نفسه بالاستبداد لما كان أثرى من الجباية وشعر لها أهل البلد. فانطلقوا وهم يتخافون أن يعاجلوه قبل مداخلته العرب في أمره، فقبضوا عليه وعلى أخيه وعلى أتباعهما ليلة أجمعوا الثورة في صباحها. وطبروا بالخبر إلى الحضرة

غزو من بقي بها من عسكره، واستنفر أهل شاطبة وشقر وزحف إليهم فأنكشف المسلمون، وأصيب كثير منهم. واستشهد أبو الربيع بن سالم شيخ المحدثين بالأندلس، وكان يوماً عظيماً، وعنواناً على أخذ بلنسية ظاهراً. ثم ترددت عليها سرايا العدو. ثم زحف إليها طاغية أرغون في رمضان سنة خمس وثلاثين وستمئة فحاصرها واستبلغ في نكايتها. وكان بنو عبد المؤمن بمراكش قد فشل ريجهم، وظهر أمر بني أبي حفص بإفريقية، فأمل ابن مردنيش وأهل شرق الأندلس الأمير أبا زكرياء للكرة، وبعثوا إليه بيعتهم، وأوفد عليه ابن مردنيش كاتبه الفقيه أبا عبد الله بن الأبار صريحاً، فوفد وأدى بيعتهم في يوم مشهود بالخضرة، وأنشد في ذلك الحفل قصيدته على روي السين، يستصرخه فيها للمسلمين وهي هذه:

أدرك بخيلك خيل الله أنلدسا إن السبيل إلى منجاتها درسا لها من عزيز النصر ما التمت فلم يزل منك عز النصر ملتصبا عاش مما تعانیه حشاشتها فظالما ذاق البسوى صباح ما للجزيرة أضحى أهلها جزراً للنايات وأمسى جدها تعسا كسل شارقة إلام باثقة يعود مأتمها عند العدى عرسا وكل غاربة إجحاف نائبة تنني الأمان حذاراً والسرور أسا قاسم السروم لا نالت مقاسمهم إلا عقائلها المحجوبة الأنسا وفي بلنسية منها وقرطبة ما يذهب النفس أو ما يتزف النفسا مدائن حلها الإشرار متبسماً جذلان وارغمل الإيمان منبشا وصيرتها العوادي عاثت بها يستوحش الطرف منها ضعف ما أنسا ما للمساجد عادت للعدى بيعاً وللنداء يرى أثناءها جرسا لفساً عليها إلى استرجاع فاتتها مدارساً للمشائي أمبجت درسا وأربعاً غنمت أيدي الربيع بها ما شئت من خلع موشية وكسا كانت حدائق للأحداق موقنة فصوح النصر من أداوحها وعسا وحال ما حولها من منظر عجب يستوفق الركب أو يستركب الجلسا سرعان ما عاث جيش الكفر واحربا عيث الدبا في مغانيها التي كسا وابتر بزتها مما تحيفها تحيف الأسد الضاري لما افترسا فأين عيش جنيها بها خضرراً وأين غصن جنيها بها سلسا عما محاسنها طاع أنبج لها ما نام عن مضها حيناً وما نعسا ورج أرجاءها لما أحاط بها فغادر الشم من أعلامها خنسا خلا له الجو وامتدت يده إلى إدراك ما لم تسل رجلاه مختلسا وأكثر الزعم بالتثليث منفرداً ولو رأى راية التوحيد ما نبسا صل جلها أيها المولى الرحيم فما أبقي المراس لها حبلاً ولا مرسا وأحي ما طمست منها العداة كما أحييت من دعوة المهدي ما طمسا أيام صرت لنصر الحق مستبقاً وبت من نور ذلك المهدي مقتبسا وقمت فيها لأمر الله متصراً كالصارم اهتر أو كالعارض أنبجا ونحو الذي كتب التجسيم من ظلم والصبح ماحية أنسواره الغلسا

هذي رسالتها تدعوك من كتب وأنت أفضل مرجو لمن يشا وافتك جارية بالنجح راجية منك الأمير الرضي والسيد الندسا خاضت خضارة يعلوها ويخففها عباة فتعاني اللين والثرسا ورمسا سبجت والريح عاتية كما طلبت بأقصى شدة القرسا تؤم يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص مقبلة من تربة القدس ملك تقلدت الأملاك طاعته ديناً وديناً ففشأها الرضى لبسا من كل غاد على يمنه مستلماً وكل صاد إلى نعماء ملتصبا مزيد لورمى نجماً لأبنته ولو دعا ألقاً لبي وما احتبسا أمارة تحمّل المقادير رابتها ودولة عزها يستصحب القعسا يبدي النهار بها من ضروته شنباً ويطلع الليل من ظلماته لعسا كانه البدر والعلباء حالته تحف من حوله شهب القنا حرسا له الثرى والثريا خططان فلا أعز من خطيته ما سما ورسا يا أيها الملك المتصور أنت لها علياء توسع أعداء الهدى تعسا وقد تواترت الأنباء أنك من يحيى بقتل ملوك الصفر أنلدسا طهر بلادك منهم إنهم نجس ولا طهارة ما لم تغسل النجسا وأوطى الفيلق الجرار أرضهم حتى يطأطى رأس كل من راسا وانصر عبيداً بأقصى شرقها شرقت غيرهم أدمعاً تهمي زكاء وخسا هم شعبة الأمر وهي الدار قد نهكت داء متى لم تباشر حسمه اتكسا املا هتياً لك التمكن ساحتها جرداً سلاهبا أو خطية دعسا واضرب لها موعداً بالفتح ترقبه لعل يوم الأعادي قد أتى وعسا فأجاب الأمير أبو زكريا داعيتهم، وبعث إليهم أسطولهم مشحوناً بمدد الطعام والأسلحة والمال، مع أبي يحيى بن يحيى بن الشهيد أبي إسحاق بن أبي حفص. وكانت قيمة ذلك مائة ألف دينار.

وجاءهم الأسطول بالمدد وهم في هذا الحصار، فنزل بمرسی دانية واستفرغ المدد بها ورجع بالناس إذا لم يخلص إليه من قبل ابن مردنيش من يتسلمه. واشتد الحصار على أهل بلنسية، وعدمت الأقوات وكثر الهلاك من الجوع، فوقعت المارودة على إسلام البلد فتسلمها جاقمة ملك أرغون في صفر سنة ست وثلاثين وستمئة، وخرج عنها ابن مردنيش إلى جزيرة شقر، فأخذ البيعة على أهلها للأمير أبي زكريا. ورجع ابن الأبار إلى تونس، فنزل على السلطان وصار في جلته، وألح العدو على حصار ابن مردنيش بجزيرة شقر، وأزعجه عنها إلى دانية فدخلها في رجب من سته، وأخذ عليهم البيعة للأمير أبي زكريا.

ثم داخل أهل مرسية، وقد كان ببيع بها أبو بكر عزيز بن عبد الملك ابن خطاب في مفتاح السنة، فاقتحها عليه في رمضان من سته وقتله، وبعث ببيعتهم إلى الأمير أبي زكريا. وانتظمت

نفسه وألقى شلوه بقارعة الطريق ففتن أهل الشمات في العبث به، وإلى الله المصير.

الخبر عن فتح تلمسان ودخول بني عبد الواد في الدعوة الحفصية

كان الأمير أبو زكريا منذ استقل بأمر إفريقية واقتطعها عن بني عبد المؤمن كما ذكرناه متطاولاً إلى ملك الحضرة بمراكش والاستيلاء على كرسي الدعوة. وكان يرى أن بمظاهرة زناتة له على شأنه يتم له ما يسمو إليه من ذلك، فكان يداخل أمراء زناتة فيه ويرغبهم ويراسلهم بذلك على الأحياء من بني مرين وبني عبد الواد وتوجين ومغراوة. وكان يغمراسن منذ تقلد طاعة آل عبد المؤمن أقام دعوتهم بعمله متحيزاً إليهم سلماً لوليتهم وحرماً على عدوهم. وكان الرشيد منهم قد ضاعف له البر والخلوص، وخطب منه مزيد الولاية والمصافاة، وعأوده الانحياز بأنواع الألفاف والهادايا تهنئاً لمسيراته، وميلاً إليه عن جانب أقتاله بني مرين المجلبين على المغرب والدولة، فاستكبر السلطان أبو زكريا اتصال الرشيد هذا بيغمراسن وآله والزمهم من جواره بالحل القريب.

وبينما هو على ذلك إذ وفد عليه عبد القوي أمير بني توجين وبعض ولد مندبل بن عبد الرحمن أمراء مغراوة صريحاً على يغمراسن فسهلوا له أمره، وسولوا له الاستبداد على تلمسان. وجمع كلمة زناتة، وإعداد ذلك ركاباً لما يرومه من امتطاء ملك الموحدين بمراكش، وانتظامه في أمره، وسلماً لارتقاء ما يسمو إليه من ملكه، وبأبأ لولوج المغرب على أهله، فحركه إملأهم وهزه إلى النعرة صريحهم، وأهاب بالموحدين وسائر الأولياء والعساكر إلى الحركة على تلمسان. واستنفر لذلك سائر البدو من الأعراب الذين في طاعته من بني سليم ورياح بظعنهم، فأهبطوا لداعيه.

ونفض سنة تسع وثلاثين وستمئة في عساكر ضخمة وجيوش وافرة. وسرح إمام حركته عبد القوي بن العباس وأولاد مندبل بن محمد لحشد من وافى بأوطانهم من أحياء زناتة وذويان قبائلهم، وأحياء زغبة أحلافهم من العرب. وضرب معهم موعداً لموافاتهم في تخوم بلادهم. ولما نزل صحراء زاغر قبله تيطري منتهى مجالات رياح وبني سليم من المغرب، ثاقل العرب عن الرحلة بظعنهم في ركاب السلطان، وتولوا بالمعاذير فألطف الأمير أبو زكريا الحيلة. وزعموا في استنهاضهم وتنبه عزائمهم، فارتحلوا

البلاد الشرقية في طاعته، وانتقل وفد ابن مردنيش إليه من تونس بولايته على عمله سنة سبع وثلاثين وستمئة، ولم يزل بها إلى أن غلبه ابن هود على مرسية، وخرج عنها إلى لقنت الحصون سنة ثمان وثلاثين وستمئة، إلى أن أخذها طاغية برشلونة من يده سنة أربع وأربعين وستمئة، وأجاز إلى تونس، والبقاء لله.

الخبر عن المجوسي وأوليته ومآل أمره

اسم هذا الرجل: محمد بن محمد الجوهري، وكان مشتهراً بخدمة ابن أكمازير الهتاتي والي سبتة وغمارة من أعمال المغرب. وكان حسن الضبط مترامياً إلى الرئاسة. ولما ورد على تونس وتعلق بأعمال السلطان نظر فيما يزلفه ويرفع من شأنه، فوجد جباية أهل الحيام بإفريقية من البرابرة الوطنيين مع الأعراب غير منضبطة ولا محصلة في ديوان، فنبه على أنها مأكلة للعمال ونهبة للولاة، فدفع إليها فائتي جبايتها وقرر ديوانها، وصارت عملاً منفرداً يسمى عمل العمود وطار له بذلك بين العمال ذكر، جذب له السلطان أبو زكرياء بضيعه، وعول على نصيحته وآثره باختصاصه. ووافق ذلك موت أبي الربيع الكفيتي المعروف بابن الغريفر صاحب الأشغال بالحضرة، فاستعمل مكانه، وكان لا يلي تلك الخطة إلا كبير من مشيخة الموحدين، فرشحه السلطان لها لكفايته وغناؤه، فظفر منها بحاجة نفسه، واعتدها ذريعة إلى أمنيته، فانخذ شارة أرباب السيوف، وارتبط الخيل واتخذ الآلة في حروبه مع أهل البادية إذا احتاج إليها.

وأسف أثناء ذلك أبا علي بن النعمان وأبا عبيد الله بن أبي الحسن بعدم الخضوع لهما، فنصبا له، وأغريا به السلطان، وحذراه غائلة عصيانه. وكان فيه إقدام أوجد به السبيل على نفسه، ويجكى أن السلطان استشاره ذات يوم في تقويم بعض أهل الخلاف والعصيان، فقال له: عندي ببابك ألف من الجنود أرم بها من تشاء من أمثالهم، فأعرض عنه السلطان واعتدها عليه. وجعلها مصداقاً لما غمي عنه. ولما قدم عنه عبد الحق بن يوسف بن ياسين على الأشغال ببجاية مع زكريا بن السلطان، أظهر له الجوهري أن ذلك بسعائته، وعهد إليه بالوقوف عند أمره والعمل بكتابه، فألقى عبد الحق ذلك إلى الأمير أبي زكريا فقام لها وقعد، وأنف من استبداد الجوهري عليه. ولم تزل هذه أمثالها تعد عليه حتى حق عليه القول فسطا به الأمير أبو زكريا وتقبض عليه سنة تسع وثمانين وستمئة، ووكّل امتحانه إلى أعدائه ابن لمان والندرومي، فتجلد على العذاب وأصبح في بعض أيامه ميتاً بمحبسه. ويقال: خنق

فدخل الحضرة واقعد أريكته وأنشده الشعراء في الفتح، وأسنى جوائزهم وتناولت أعناق الأفاق كما نذكره.

الخبر عن دول أهل الأندلس في الدعوة الحفصية ووصول بيعة إشبيلية وكثير من أمصارها

كان بإشبيلية أبو مروان أحمد الباجي من أعقاب أبي الوليد وأبو عمرو بن الجد من أعقاب الحافظ أبي بكر الطائر الذكر، ورثا التجلة عن جدهما وأجراهما الخلفاء على سنتهم. وكانا مسمتين وقورين متبوعين من أهل بلدهما مطاعين في أفقهما. وكان السادة من بني عبد المؤمن يقولون على شوراها في مصرها. وكان بعدوة الأندلس التيات في الملك منذ وفاة المستنصر، وانتزى بها السادة وافترقوا. وثار بشرق الأندلس ابن هود وزيان بن مردنيش، وبغربها ابن الأحمر. وغلب ابن هود الموحدون وأخرجهم عنها. وملك ابن هود أشبيلية سنة ست وعشرين وستمئة واعتقل من كان بها من الموحدين. ثم انتفضوا عليه سنة تسع وعشرين وستمئة بعدها وأخرجوا أخاه أبا النجاة سالماً، وبايعوا الباجي وتسمى بالمعتضد، واستوزر أبا بكر بن صاحب الرد، ودخلت بيعته قرمونة، وحاصره ابن هود فوصل الباجي يده بمحمد بن الأحمر الثائر بأرجونة وجيان بعد أن ملك قرطبة.

وزحف ابن هود إليهم فلقوه وهزموه، ورجعوا ظافرين، فدخل الباجي إلى أشبيلية وعسكر بخارجها، ثم انتهز فرصته في أشبيلية وبعث قريبه ابن أشقيلولة مع أهل أرجونة والنصارى إلى فسطاط الباجي فتقبضوا عليه وعلى وزيره وقتلوهما سنة إحدى وثلاثين وستمئة. ودخل ابن الأحمر أشبيلية، ولشهر من دخوله إليها ثار عليه أهلها ورجعوا إلى طاعة ابن هود، وولى عليهم أخاه أبا النجاة سالماً. ولما هلك محمد بن هود سنة خمس وثلاثين وستمئة صرف أهل أشبيلية طاعتهم إلى الرشيد بمراكش، وولوا على أنفسهم محمد بن السيد أبي عمران الذي قدما أنه كان والياً بقسطنطينة، وأن الأمير أبا زكريا غلبه عليها واعتقله، وبعث ولده إلى الأندلس فربي محمد هذا في كفالة أمه بأشبيلية.

ولما سار أهل أشبيلية للرشيد قدموه على أنفسهم، وتولى كبر ذلك أبو عمرو بن الجد، وبعثوا وفدهم إلى الحضرة فأقر السيد أبا عبد الله على ولايتهم. واستمرت في دعوة الرشيد إلى أن هلك سنة أربعين وستمئة. وقد ملك الأمير أبو زكريا تلمسان وأشرف

معه حتى نازل تلمسان بجميع عساكر الموحدين وحشود زناته وظعن العرب بعد أن كان قدم إلى يغمراسن الرسل من مليانة بالأعذار والدعاء إلى الطاعة، فرجعهم بالحنية، ولما حلت عساكر الموحدين بساحة البلد، وبرز يغمراسن وجمعه للقاء بصحبتهم ناثبه السلطان بالنبل، فأنكشفوا ولاذوا بالجدردان وعجزوا عن حماية الأسوار، فاستمكت المقاتلة من الصعود. ورأى يغمراسن أن قد أحيط بالبلد فقصده باب العقبة من أبواب تلمسان ملتقاً في ذويه وخاصته. واعتراضه عساكر الموحدين فصمم نحوهم وجندل بعض أبطاهم فأفروا له، ولحقوا بالصحرَاء وتسللت الجيوش إلى البلد من كل حذب، فاقتموه وعاثوا فيه بقتل النساء والصبيان واكتساح الأموال.

ولما تجلج غشي تلك الهيعة، وحسر تيار الصدمة، وخمدت نار الحرب، راجع الموحدون بصائرهم وأنعم الأمير أبو زكريا نظره فيمن يقلده أمر تلمسان والمغرب الأوسط، وينزله بغربها لإقامة دعوته الدائلة من دعوة بني عبد المؤمن والمدافعة عنها. واستكبر ذلك أشرافهم وتذافعوه وتبرأ أمراء زناته ضعفاً عن مقاومة يغمراسن علماً بأنه الفحل الذي لا يقرع أنفه، ولا يطرق غيله ولا يصد عن فريسته.

وسرح يغمراسن الغارات في نواحي المعسكر فاخطف الناس من حوله، واطلعوا من المراقب عليه. ثم بعث وفده متطارحين على السلطان في الملامة والاتفاق، واتصال اليد على صاحب مراكش طالب الوتر في تلمسان وإفريقية. وأن يفردة بالدعوة الموحدية فأجابته إلى ذلك. ووفدت أمه سوط النساء للاشتراط والقبول فأكرم موصلها وأسنى جائزتها، وأحسن وفادتها ومقلبيها، وسوغ ليغمراسن في شرطه بعض الأعمال بإفريقية، وأطلق أيدي عماله على جبايته، وارتحل إلى حضرته لسمع عشرة ليلة من نزوله.

وفي أثناء طريقه وسوس إليه الموحدون باستبداد يغمراسن، وأشاروا بإقامة منافسيه من زناته وأمراء المغرب الأوسط شجى في صدره، ومعتزلاً عن مرامه، وإلباسهم ما لبس من شارة السلطان وزيه، فأجابهم وقلد كلاً من عبد القوي بن عطية التوجيني، والعباس بن منديل المرغراوي ومنصور المليكشي أمر قومه ووطنه، وعهد إليهم بذلك وأذن لهم في اتخاذ الآلة والمراسم السلطانية على سنن يغمراسن قريعتهم، فاتخذوه محضرته وبمشهد من ملأ الموحدين. وأقاموا مراسمها ببابه. وأغذ السير إلى تونس فريز العين بامتداد ملكه، وبلوغ وطره والإشراف على إذعان المغرب لطاعته وانقياده لحكمه، وإدالة دعوة بني عبد المؤمن فيه بدعوته،

ديوان سبتة لأبي علي بن خلاص، كان من أهل بلنسية واتصل بخدمة الرشيد فجلّى فيها. ودفعه إلى الأعمال فضبطها، فولاه سبتة فاستقل بها. وولى على طنجة يوسف ابن الأمير قائداً على الرحل الأندلسي وضابطاً لقصبتها. حتى إذا هلك الرشيد سنة أربعين وستائة، وقد استفحل أمر الأمير أبي زكريا بإفريقية، واستولى على تلمسان وبابيه الكثير من أمصار الأندلس، فصرف ابن خلاص وجهه إليه.

وكان قد اقتنى الأموال واصطنع الرجال، فدخل في دعوته، وبعث الوفد ببيعته. واقتدى به في ذلك أهل قصر ابن عبد الكريم فبعثوا يبيعهم للأمير أبي زكريا. وعقد لابن خلاص على سبتة وما إليها، فبعث بالهدية إليه في أسطول أنشأه لذلك سماه الميمون، وأركب ابنه أبا القاسم فيه وافداً على السلطان، ومعه الأديب إبراهيم بن سهل، فعطب عند إقلاعه.

ولما رجع الأسطول من أشبيلية كما قدمناه على بقية هذا العطب وحزن أبي علي بن خلاص على ابنه، رغب من قائده أبي الربيع بن الغريفر أن يجعله بجملته إلى الحضرة، فانتقل بأهله واحتمل ذخيرته. ولما مر الأسطول بمرسى وهران نزل بساحلها فأراح، وأحضر له تين فأكله فأصابه مغص في معاه هلك منه فجأة سنة ست وأربعين وستائة. وعقد السلطان على سبتة لأبي يحيى بن زكريا ابن عمه أبي يحيى الشهيد بن الشيخ أبي حفص. وبعث معه على الجباية أبا عمر بن أبي خالد الأشبيلي، كان صديقاً لشفاف وعدواً لابن الجد. ولما قتل شفاف لحق بالحضرة فولاه الأمير أبو زكريا أشغال سبتة، استمرت الحال إلى أن كان من استبداد العزفي بسبتة على ما نذكره.

الخبر عن بيعة المرية

لما هلك محمد بن هود بالمرية سنة خمس وثلاثين وستائة كما ذكرناه واستبد وزيره أبو عبد الله محمد بن الرميحي بها، وضبطها لنفسه وضايقه ابن الأحمر فبعث ببيعته سنة أربعين إلى الأمير أبي زكريا حين أخذ أهل شرق الأندلس بطاعته. ولم يزل ابن الأحمر يحاصره إلى أن تغلب عليه سنة ثلاث وأربعين وستائة كما ذكرناه في أخباره. وخرج منها إلى سبتة بأهله وذخيرته، وأحله أبو علي بن خلاص محل البر والتكرمة، وأنزله خارج المدينة في بساتين بنونش، وأجمع الثورة بأبي خلاص، فنذر به وتغير له.

فلما رجع الأسطول من أشبيلية ركب الرميحي ولحق بتونس، فنزل على الأمير أبي زكريا وحل من حضرته محل

على أعمال المغرب، فاقتدوا بمن تقدم إلى بيعته من أهل شرق الأندلس بلنسية ومرسية، وبابعوا للأمير أبي زكريا بن أبي محمد بن أبي حفص واقتدى بهم أهل شريش وطريف، وبعثوا إليه وفدهم ببيعته سنة إحدى وأربعين وستائة. وسألوا منه ولاية بعض أهل قرابته فولى عليهم أبا فارس ابن عمه يونس بن الشيخ أبي حفص، فقدم أشبيلية وقام بأمرها، وسلم له ابن الجد في نقضها وإبرامها.

ثم انتقض عليه سنة ثلاث وأربعين وستائة وطرده من البلد إلى سبتة واستبد بأمر أشبيلية، ووصل يده بالطاغية. وعقد له السلم وضرب على أيدي أهل المغارة من الجند وأسقطهم من ديوانه فقتلوه بإملاء قائدهم شفاف واستقبل بأمر أشبيلية. ورجع أبا فارس بن أبي حفص وولاه بدعوة الأمير أبي زكريا فسخطهم الطاغية لذلك وانتقض عليهم وملك قرمونة ومرشانة. ثم زحف إلى حصرهم وسأله الصلح فامتنع. وصار أمر البلد شؤري بين القائد شفاف وابن شعيب ويحيى بن خلدون ومسعود بن خيار وأبي بكر بن شريح، ويرجعون في أمرهم آخراً إلى الشيخ أبي فارس بن أبي حفص.

وأقاموا في هذا الحصار سنتين ونازلهم ابن الأحمر في جملة الطاغية، وبعث إليهم الأمير أبو زكريا المدد، وجهاز له الأسطول لنظر أبي الربيع بن الغريفر التينملي. وأوعز له إلى سبتة بتجهيز أسطولهم معه فوصل إلى وادي أشبيلية، وغلبهم أسطول الطاغية على مرسية فرجع. واستولى العدو عليها صلحاً سنة ست وأربعين وستائة بعد أن أعانهم ابن الأحمر بمدده وميرته. وقدم الطاغية على أهل الدخن بها عبد الحق بن أبي محمد البياسي من آل عبد المؤمن، والأمر لله.

الخبر عن بيعة أهل سبتة وطنجة وقصر ابن

عبد الكريم وتصاريق أحوالهم ومآل

أمرهم

كان أهل سبتة بعد إقلاع المأمون عنهم، ونزول أخيه موسى عنها لابن هود قد انتقضوا وأخرجوا عنهم القشتيني والي ابن هود، وقدموا عليهم أحمد البشتي وتسمى بالموفق. ثم رجعوا إلى طاعة الرشيد عندما بابيه أهل أشبيلية سنة خمس وثلاثين وستائة. وتقبضوا على البشتي وابنه وأدخلوا السيد أبا العباس ابن السيد أبي سعيد، كان والياً بغمراوة فولوه عليهم. ثم عقد الرشيد على

التكرمة. واستوطن تونس، وعمل بها الضياع والقرى، وشيد القصور إلى أن هلك والبقاء لله وحده.

الخبر عن بيعة مكناسة وما تقدمها من طاعة

بني مرين

كان بين بني عبد الواد وبين بني مرين منذ أوليتهم وتقلبهم في القفار فتن وحروب، ولكل منهما أحلاف في المناصرة وأشباع. فلما التاث دولة بني عبد المؤمن غلب كل منهما على موطنه، وكانت السابقة في ذلك لبني عبد الواد لبعدهم عن حضرة مراكش حيث محشر العساكر ويعسوب القبائل. ولما استبد الأمير أبو زكريا بأمر إفريقية، ودوخ المغرب الأوسط وافتتح تلمسان، وأطاعه بنو عبد الواد، حذر بنو مرين حينئذ غائلتهم. وخافوا أن يظهروهم الأمير أبو زكريا عليهم، فآلأوا له في القول ولاطفوه على البعد بالطاعة، وخاطبوه بالتمويل، وأوجبوا له حق الخلافة، ووعده أن يكونوا أنصاراً لدعوته وأعاوناً في أمره، ومقدمة في عسكره إلى مراكش وزحفه. وحملوا من تحت أيديهم من قبائل المغرب وأمصاره على طاعتهم، والاعتصام ببيعتهم. ولم تنزل المخاطبات بينهم وبين الأمير أبي زكريا في ذلك من أميرهم عثمان بن عبد الحق وأخيه محمد من بعده. ورسلمهم تقد عليه بذلك مرة بعد أخرى إلى أن هلك الرشيد. وقد استولى الأمير أبو زكريا على تلمسان، ودخل في دعوته قبائل زناتة بالمغرب الأوسط واستشرف أهل الأمصار من العدوتين إلى إيالته. وكان أهل مكناسة قد اعتصموا بوصلة الأمير أبي يحيى بن عبد الحق، وجاءهم وال من مراكش وأساء فيهم السيرة فتوثبوا به وقتلوه. وبعثوا إلى الأمير أبي يحيى بن عبد الحق، فحملهم على بيعة الأمير أبي زكريا فأنفذوها من إنشاء قاضيهم أبي المطرف بن عميرة سنة ثلاث وأربعين وستمائة. وضمن أبو يحيى بن عبد الحق حمايتهم خلال ما يأتيهم أمر السلطان من تونس ومدده، وبلغ الخبر إلى السعيد فأرهب حده واعتزم على النهوض إليهم فخامهم الرعب، وراجعوا طاعته وأوفدوا صلحاءهم وعلماءهم في الإقالة واغتفار الجريدة، فتقبل ذلك إلى أن كان من حركته بعد ذلك ومهلكه ما هو معروف.

الخبر عن مهلك الأمير أبي يحيى زكريا ولي

العهد بمكان إمارته من بجاية وتصيير العهد

إلى أخيه محمد

كان الأمير أبو زكريا قد عقد لابنه أبي يحيى زكريا على ثغر

الخبر عن بيعة ابن الأحمر

كان محمد بن الأحمر قد اتزى على ابن هود ببلده أرجونة، وعمل جيان وقرطبة وأشبيلية وغرب الأندلس وطالت فتته مع ابن هود وراجع طاعته. ثم انتقض عليه وباع للرشيد سنة ست وثلاثين وستمائة عندما بايعه أهل أشبيلية وستة، فلم يزل على ذلك إلى أن هلك الرشيد على حين استفحال ملك الأمير أبي زكريا بإفريقية وتأميله للنصرة والكرة، فحول ابن الأحمر إليه الدعوة، وأوفد بها أبا بكر بن عياش من مشيخة مالقة فرجعهم الأمير أبو زكريا بالأموال للنفقات الجهادية، ولم يزل يواصلها لهم من بعد ذلك إلى أن هلك سنة سبع وأربعين وستمائة، فأطلق ابن الأحمر نفسه من عقال الطاعة واستبد بسلطانه.

الخبر عن بيعة سجلماسة وانتقاضها

كان عبد الله بن زكريا المرزجي من مشيخة الموحدين والياً بسجلماسة لبني عبد المؤمن. ولما هلك الرشيد وبويع أخوه السعيد سنة أربعين وستمائة، ونميت إليه عن المرزجي عزيمة من القول خشن بها صدره وبعث إليه مستعباً فلم يعبه. ومزق كتابه فخشيته المرزجي على نفسه، واتصل به ما كان من استيلاء الأمير أبي زكريا على تلمسان ونواحيها، فخاطبه بطاعته وأوفد عليه بيعته، فعقد له الأمير أبو زكريا على سجلماسة وأخائها، وفوض إليه في أمرها ووعده بالمدد من المال والعسكر لحمايتها. وخطب له عبد الله بسجلماسة، وفر إليه من مراكش أبو زيد الكدميوي بن واكاك، وأبو سعيد العود الرطب، فلحق بتونس. وأقام أبو زيد معه بسجلماسة. وزحف إليه السعيد سنة إحدى وأربعين وستمائة، وقيل سنة أربعين، ومن معسكره كان مفر أولئك المشيخة. وخاطب السعيد أهل سجلماسة وداخلهم أبو زيد الكدميوي فغندروا بالمرزجي وثاروا به، فخرج من سجلماسة وأسلمها، وقام بأمرها أبو زيد الكدميوي. وطير بالخبر إلى السعيد فشكر له فعلته، وغفر له سالفته. وتقبض على عبد الله المرزجي بعض الأعراب، وأمكن منه السعيد فقتله وبعث برأسه إلى سجلماسة فنصب بها، ورجع من طريقه إلى مراكش وأقامت سجلماسة على دعوة عبد المؤمن إلى أن كان من خبرها ما ذكره في موضعه.

الحق. ولا ترع في فاجر متصرف إلا ولا ذمة، ولا تقتصر على شخص واحد في رفع مسائل الرعية والمظلّمين. ولا تقف عند مراده في أحوالهم.

واتخذ لنفسك ثقة صادقين مصدقين، لهم في جانب الله أوفر نصيب، وفي مسائل خلقه إليك أسرع مجيب. وليكن سؤالك لهم أفذاذ، فأنت متى اقتضت على شخص واحد في نقله ونصحه، حله الهوى على الميل، ودعته الحمية إلى تجنب الحق، وترك قول الصدق. وإذا رفع إليك أحد مظلمة، وأنت على طريق، فادعه إليك وسله حتى يوضح قصته لك. وجاوبه جواب مشفق مصغ إلى قوله، مصيخ إلى نازلته ونقله، فني إصاحتك له وحنوكم عليه أكبر تأنيس، وللسياسة والرئاسة في نفوس الخاصة والعامة، والجمهور أعظم تأسيس.

وأعلم أن دماء المسلمين وأموالهم حرام على كل مؤمن بالله واليوم الآخر إلا في حق أوجبته الكتاب والسنة، وعضدته أقاويل الشريعة والحجة، أو في مفسد عاثت في طرق المسلمين وأموالهم جار على غيه في فساد صلاتهم وأحوالهم، فليس إلا السيف فإن أثره عفاء ووقعه لداء الأدغمة الفاسدة دواء، ولا تقبل عثرة حسود على النعم، عاجز عن السعي، فإن إقالتة تحمله على القول، والقول يجعله على الفعل، ووبال عمله عائد عليك. فاحسم داءه قبل انتشاره، وتدارك أمره قبل إظهاره، واجعل الموت نصب عينيك، ولا تغتر بالدنيا وإن كانت في يديك. لا تقلب إلى ربك إلا بما قدمته من عمل صالح ومتجر في مرضاته رابح.

وأعلم أن الإيثار أربع المكاسب وأنجح المطالب، والقناعة مال لا ينفد. وقد قال بعض المفسرين في قوله عز من قائل: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ إنه النبأ الحسن في الدنيا على ما خلد فيها من الأعمال المشكورة، والفعلات الصالحة المذكورة. فليكنفك من دنياك ثوب تلبسه وفرس تذب به عن عباده. وأرجو بك متى جعلت وصيتي هذه نصب عينيك، لم تعدم من ربك فتحاً يسره على يديك، وتأييداً ملازماً لا يبرح عنك إلا إليك، بمن الله وحوله وطوله. والله يجعلك ممن سمع فوعى، ولبى داعي الرشيد إذ دعا، إنه على كل شيء قدير، وبالإجابة جدير، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

تمت الرصية المباركة، فغظم ترشيح الأمير أبي يحيى لذلك، وعلا في الدولة كعبه، وقوي عند الكافة تأميله، وهو بحالة من النظر في العلم والخروج للدين، إلى أن هلك سنة ست وأربعين وستمئة، فأسى له السلطان، واحتفل الشعراء في رثائه وتأيينه، فكانوا يثيرون بذلك شجو السلطان، ويبعثون حزنه، وعقد العهد

بجاية قاعدة ملك بني حماد، وجعل إليه النظر في سائر أعمالها من الجزائر وقسطنطينة وبونة والزاب سنة ثلاث وثلاثين وستمئة كما ذكرناه، فاستقل بذلك، وكان بمكان من الترشيح للخلافة بنفسه وجلاله، وانتظامه في سلك أهل العلم والدين وإيناس العدل. فولاه الأمير أبو زكريا عهده سنة ثمان وثلاثين وستمئة، وأحضر الملأ لذلك وأشهدهم في كتابه، وأوعز بذكره في الخطبة على المنابر مع ذكره. وكتب إليه بالوصية التي تداوها الناس من كلامه ونصها:

اعلم سدك الله وأرشدك، وهداك لما يرضيه وأسعدك، وجعلك محمود السيرة، مأمون السريرة. إن أول ما يجب على من استرعاه الله في خلقه، وجعله مسؤولاً عن رعيته في جل أمرهم ودقه، أن يقدم رضى الله عز وجل في كل أمر يحاوله، وأن يكمل أمره وحوله وقوته لله، ويكون عمله وسعيه وذبه عن المسلمين، وحربه وجهاده للمؤمنين، بعد التوكل عليه، والبراءة من الحول والقوة إلا إليه. ومتى فاجأك أمر مقلق، أو ورد عليك نبا مرهق، فريض لبك، وسكن جأشك، وارع عواقب أمر تأتبه، وحاوله قبل أن ترد عليه وتغشيه. ولا تقدم إقدام الجاهل، ولا تحجم إحجام الأخرق المتكامل.

وأعلم أن الأمر إذا ضاق بمجاله، وقصر عن مقاومته رجاله، فمتاحه الصبر والحزامة والأخذ مع عقلاء الجيش ورؤسائهم، وذوي التجارب من نهائهم. ثم الإقدام عليه، والتوكل على الله فيما لديه، والإحسان لكبير جيشك وصغيره الكثير على قدره، والصغير على قدره. ولا تلحق الحقيق بالكبير فتجري الحقيق على نفسك، وتغلطه في نفسه وتفسد نية الكبير وتؤثره عليك، فيكون إحسانك إليه مفسدة في كلا الوجهين، ويضيع إحسانك وتشتت نفوس من معك.

واتخذ كبيرهم أباً وصغيرهم ابناً، واخفض لهم جناح الذل من الرحمة، وشاورهم في الأمر، فإذا عزمت فتوكل على الله، إن الله يحب المتوكلين.

واتخذ نفسك صغيرة، وذاتك حقيرة، وحقر أمورك، ولا تستمع أقوال الغالطين المغلطين، بأنك أعظم الناس قدراً، وأكثرهم بذلاً، وأحسنهم سيرة وأجلهم صبراً، فذاك غرور وبهتان وزور.

وأعلم أن من تواضع لله رفعه الله. وعليك بتفقد أحوال رعيته والبحث عن عمالهم والسؤال عن سير قضائهم فيهم، ولا تنم عن مصالحهم، ولا تسامح أحداً فيهم. ومهما دعيت لكشف ملمة فاكشفها عنهم، ولا ترع فيهم كبيراً ولا صغيراً إذا عدل عن

والوثائق، واستعمل في خطة القضاء بالحضرة أيام السلطان، وكان له فيه ذكر.

ولما بلغ الخبر بمهلك الأمير أبي زكريا إلى صقلية أيضاً، وكان المسلمون بها في مدينة بلرم قد عقد لهم السلطان مع صاحب الجزيرة على الاشتراك في البلد والضاحية، فتسكنوا حتى إذا بلغهم مهلك السلطان بادر النصارى إلى العيث فيهم فلجأوا إلى الحصون والأوعار، ونصبوا عليهم ثائراً من بني عبس، وحاصروهم طائفة صقلية بمعقلهم من الجبل. وأحاط بهم حتى استنزهم. وأجازههم البحر إلى عدوته، وأنزلهم بجواره من عمائرهما. ثم تعدى إلى جزيرة مالطة فأخرج المسلمين الذين كانوا بها، وأحقهم بإخوانهم. واستولى الطاغية على صقلية وجزائرها. وعما منها كلمة الإسلام بكلمة كفره، والله غالب على أمره.

الخبر عن بيعه السلطان أبي عبد الله

المستنصر وما كان في أيامه من الحوادث

لما هلك الأمير أبو زكريا بظاهر بونة سنة سبع وأربعين وستمائة كما قدمناه اجتمع الناس على ابنه الأمير أبي عبد الله، وأخذ له البيعة عمه محمد اللحياني على الخاصة وسائر أهل المعسكر، وارتحل إلى تونس فدخل الحضرة ثالث رجب من السنة، فجدد بيعته يوم وصوله وتلقب المستنصر بالله. ثم جدد البيعة بعد حين، واختار لوضع علامته: الحمد لله، والشكر لله. وقام بأعباء ملكه، وتقضى على خاصة أبيه الخصي كافور، كان قهرمان داره، فأشخصه إلى المهدي، وأوعز إلى الجهات بأخذ البيعة على أهل العمالات فترادفت من كل جانب. واستوزر أبو عبد الله بن أبي مهدي، واستعمل على القضاء أبا زيد التوزري وكان يعلم ولد عمه اللحياني الناصر عليه كما نذكره.

الخبر عن ثورة ابن عمه محمد اللحياني

ومقتله ومقتل أبيه

كان للأمير أبي زكريا من الإخوة اثنان: محمد وكان أسن منه ويعرف باللحياني لطول لحيته، والآخر: أبو إبراهيم، وكان بينهم من المخالصة والمصافاة ما لا يعبر عنه.

ولما هلك الأمير أبو زكريا، وقام بالأمر ابنه أبو عبد الله المستنصر، واستوزر محمد بن أبي مهدي الهنتاتي، وكان عظيمياً في قومه، فأمل أن يستبد عليه لكان صغيره، إذ كان في سن العشرين

من بعده لأخيه الأمير أبي عبد الله محمد، بحضور الملأ، وإيداع الخاصة كتابهم بذلك في السجل، إلى أن كان من خلافته ما نذكره بعده.

الخبر عن مهلك السلطان أبي زكريا وما

كان عقبه من الأحداث

كان السلطان أبو زكريا قد خرج من تونس إلى جهة قسطنطينة للإشراف على أحوالها، ووصل إلى باغاية فعرض العساكر بها، ووافته هنالك الدواودة، وشيخهم موسى بن محمد. وكان منه اضطراب في الطاعة فاستقام. وأصاب السلطان هنالك المرض فرجع إلى قسطنطينة. ثم أبل من مرضه، ووصل منها إلى بونة، فراجع المرض. ولما نزل بظاهر بونة اشتد به مرضه. وهلك لسبع بقين من جمادى الآخرة سنة سبع وأربعين وستمائة لاثنتين وعشرين سنة من ولايته، ودفن بجامع بونة. ثم نقل شلوه بعد ذلك إلى قسطنطينة سنة ست وستين وستمائة بين يدي حصار النصارى تونس. وبويع إثر مهلكه ابنه ولي عهده أبو عبد الله محمد كما نذكره. وطار خبر مهلكه في الآفاق، فانتفض كثير من أهل القاصية، ونبذوا الدعوة الحفصية، وعطل ابن الأحمر منابره من الدعوة الحفصية. وغسك بها يغمراسن بن زيان صاحب المغرب الأوسط، فلم يزالوا عليها حيناً من الدهر، إلى أن انقطعت في حصار تلمسان كما نذكره. ولما بلغ الخبر بمهلكه إلى سبته، وكان بها أبو يحيى بن الشهيد من قبل الأمير أبي زكريا كما نذكره، وأبو عمرو بن أبي خالد، والقائد شفاف، فثارت العامة وقتل ابن أبي خالد وشفاف، وطرودوا ابن الشهيد فلحق بتونس. وتولى كبير هذه الثورة حجبون الرنداحي بمداخلة أبي القاسم العزفي.

واتفق الملأ على ولاية العزفي، وحولوا الدعوة للمرتضى، وذلك سنة سبع وأربعين وستمائة، وتبعهم أهل طنجة في الدعوة، واستبد بها ابن الأمير، وهو يوسف بن محمد بن عبد الله بن أحمد الهمداني، وكان والياً عليها من قبل أبي علي بن خلاص. فلما صار الأمر للعزفي والقائد حجبون الرنداحي، خالفهم هو إلى الدعوة الحفصية، واستبد عليهم. ثم خطب للعباسي وأشرك نفسه معه في الدعاء، إلى أن قتله بنو مرين غدرًا كما نذكره، وانتقل بنوه إلى تونس ومعهم صهرهم القاضي أبو الغنم عبد الرحمن بن يعقوب من جالية شاطبة، انتقل هو وقومه إلى طنجة أيام الجلاء، فنزلوا بها وأصهر إليهم بنو الأمير، وارتحلوا معهم إلى تونس. وعرف دين القاضي أبي القاسم فضله ومعرفته بالأحكام

تلك القوراء، وقد وثقوا باعتراض البناء لها من أمام فيقضي وطراً من ذلك القنيص سائر يومه، فكان ذلك من أفخم ما عمل في مثلها. ثم وصل ما بين قصوره ورياض رأس الطائبة بمخاطين ممتدين بمجوزان عرض العشرة أذرع أو نحوها طريقاً سالكاً ما بينهما، وعلى ارتفاع عشرة أذرع يجتجب به الحرم في خروجهن إلى تلك البساتين عن ارتفاع العيون عليهن، فكان ذلك مصنعاً فخماً واثراً على أيام الدولة خالداً.

ثم بنى بعد ذلك الصرح العالي بفناء داره ويعرف بقبة أساراك. وأساراك باللسان المصمودي هو القوراء الفسيحة. وهذا الصرح هو إيوان مرتفع السماك متباعد الأقطار متسع الأرجاء يشرع منه إلى الغرب، وجانيبه ثلاثة أبواب لكل باب منها مصرعان من خشب مؤلف الصنعة بنوء كل مصرع منها في فتحه وغلقه بالعصبة أولي القوة. ويفضي بابها الأعظم المقابل لسمت الغرب إلى معارج قد نصبت للظهور عليها عريضة ما بين الجوف إلى القبلة بعرض الأيوان، يناهز عددها الخمسين أو نحوها، ويفضي البابان عن جانيبه إلى طريقين يتهيان إلى حائط القوراء. ثم ينطفان إلى ساحة القوراء يجلس السلطان فيها على أريكته مقابل الداخل أيام العرض والفود ومشاهد الأعياد، فجاءت من أضخم الأواوين وأحفل المصانع التي تشهد بأبهة الملك وجلالة الدولة.

واتخذ أيضاً بخارج حضرته البستان الطائر الذكر المعروف بأي فهر، يشتمل على جنات معروشات وغير معروشات، اغترس فيها من شجرة كل فاكهة من أصناف التين والزيتون والرمان والنخيل والأعناب، وسائر الفواكه وأصناف الشجر. ونضد كل صنف منها في دوحة حتى لقد اغترس من السدر والطلح والشجر البري، وسمى دوح هذه بالشعراء واتخذ وسطها البساتين والرياض بالمصانع والحواجز وشجر النور والنزه من الليم والتارنج والسرو والريحان، وشجر الياسمين، والخيري والنبولفر وأمثاله. وجعل وسط هذه الرياض روضاً فسيح الساحة، وصنع فيه للماء حائزاً من عداد البحور، جلب إليه الماء في القناة القديمة، كانت ما بين عيون زغوان وقرطاجنة تسلك بطن الأرض في أماكن، وتركب البناء العادي ذا الهياكل المائلة والقسي القائمة على الأرجل الضخمة في أخرى، فعطف هذه القناة مسن أقرب السموات إلى هذا البستان. وأمطاها حائطاً وصل ما بينهما حتى ينبعث من فوهة عظيمة إلى جب عميق المهوى، رصيف البناء متباعد الأقطار مربع القناة مجمل بالكلس، إلى أن يغمره الماء فيرسله في قناة أخرى قريبة الغاية، فينبعث في الصهريج إلى أن يهتق حوضه، وتضطرب أمواجه تترفع الخطايا عن السعي بشاطئه لبعده

ونحوها. واستصعب عليه حجر السلطان بما كان له من الموالى العلوجيين، والصنائع من بيوت الأندلس. فقد كان أبوه اصطنع منهم رجالاً، ورتب جنداً كثروا الموحدین وزاحوهم في مراكزهم من الدولة. فدخل ابن أبي مهدي أخوي السلطان، وبعث عندهما الأسف على ما فاتهما من الأمر، فلم يجد عندهما ما أمل من ذلك. فرجع إلى ابن محمد اللحياني، فأجابه إلى ذلك. وبإيعه ابن أبي مهدي سرّاً، ووعدته المظاهرة. ونمي الخبر بذلك إلى السلطان من عمه محمد اللحياني وحذره من غائلة ابنه، وأبلغه ذلك أيضاً القاضي أبو زيد التوزري منتصهاً.

وبأكر ابن أبي مهدي مقعده للوزارة بباب السلطان لعشرين من جمادى سنة ثمان وأربعين وستمائة، وتقبض على الوزير أبي زيد بن جامع. وخرج ومشىة الموحدین معه، فبايعوا لابن محمد اللحياني بداره، واستركب السلطان أوليائه. وعقد للقائد ظافر على حربهم فخرج في الجند والأولياء، ولقي الموحدین بالمصلى خارج البلد، ففض جميعهم، وقتل ابن أبي مهدي وابسن وازكلدن وسار ظافر مولى السلطان إلى دار اللحياني عم السلطان فقتله وابنه صاحب البيعة، وحمل رؤوسهما إلى السلطان. وقتل في طريقه أخاه أبا إبراهيم وابنه، وانتهب منازل الموحدین وخربت. ثم سكنت الهبة وهذات الثورة، وعطف السلطان على الجند والأولياء وأهل الاصطناع، فأدر أرزاقهم ووصل تفقدتهم. وأعاد عبد الله بن أبي الحسين إلى مكانه بعد أن كان هجره أول الدولة، وتزحزح لابن مهدي عن رتبته، وتضاءل لاسطلالته، فرجع إلى حاله واستقامت الأمور على ذلك. ثم سعى عند السلطان بمولاه الظافر، وقبحوا عنده ما أتاه من الأفتيات في قتل عميه من غير جرم. ونذر بذلك فخشي البادرة ولحق بالداودة، وكان المتولي لكبر هذه السعاية هلال مولاه، فعقد له مكانه واستنفر ظافر في جوار العرب طريداً، إلى أن كان من أمره ما كان.

الخبر عن الآثار التي أظهرها السلطان في

أيامه

فمنها شروعه في اختطاط المصانع الملكية، وأولها المصيد بناحية بنزرت. اتخذ للصيد سنة خمسين وستمائة، فأدار سياجاً على بسيط من الأرض قد خرج نطاقه عن التحديد، بحيث لا يراع فيه سرب الوحش، فإذا ركب للصيد تحطى ذلك السياج إلى قوراء في لمة من مواليه المتخصين وأصحاب بيزرته، بما معهم من جوارح بزة وصقوراً وكلاباً سلوقية وفهوداً، فيرسلونها على الوحش في

السلطان أبي إسحاق، ويبد الله تصاريه الأمور.

الخبر عن بني النعمان ونكبتهم والخروج أثرها إلى الزاب

كان بنو النعمان هؤلاء من مشيخة هتانة ورؤسائهم، وكان لهم في دولة الأمير أبي زكريا ظهور ومكان، وخلصت ولاية قسطنطينة لهم يستعملون عليها من قرابتهم. واتصل لهم ذلك أول دولة المستنصر، وكان كبيرهم أبو علي وتلوه ميمون وعبد الواحد، وكان لهم في مداخلة اللحياني أثر. فلما استوسق للسلطان أمره، وتمهدت دولته نكبتهم وتقبض عليهم سنة إحدى وخمسين وستمائة، فأشخص أبا علي إلى الإسكندرية، وقتل ميمون وانقرض أمرهم. وظهر أثر ذلك بالزاب خارج تسمى بأبي حمارة، فخرج السلطان من تونس وقصده بالزاب، فأوقع به وبجموعه عليه، وسبق إلى السلطان قتلته، وبعث برأسه إلى تونس فنصب بها. وقتل السلطان إلى مقره فنزل بها، وسخط وجوهاً من سليم: من مرداس ودباب، كان فيهم رحاب بن محمود وابنه، فاعتقلهم وأشخصهم إلى المهديّة فأودعهم بمطبخها ورجع إلى تونس ظافراً غانماً.

الخبر عن دعوة مكة ودخول أهلها في الدعوة الحفصية

كان صاحب مكة ومتولي أمرها من سادة الخلق وشرفائهم ولد فاطمة، ثم من ولد ابنها الحسن صلوات الله عليهم أجمعين، أبو نعيم وأخوه إدريس، وكانوا قائمين بالدعوة العباسية منذ حولها إليهم بمصر والشام والحجاز صلاح الدين يوسف بن أيوب الكردي، وأمر الموسم وولايته راجعة إليه، وإلى بنيه ومواليه من بعده إلى هذا العهد. وجرت بينهم وبين الشريف صاحب مكة مغاضبة وافقها استيلاء الططر على بغداد، ومحوهم رسم الخلافة بها، وظهور الدعوة الحفصية بإفريقية، وتأميل أهل الأناضول فيها وامتداد الأيدي إليها بالطاعة. وكان أبو محمد بن سبعين الصوفي نزلياً بمكة، بعد أن رحل من بلده مرسية إلى تونس، وكان حافظاً للعلوم الشرعية والعقلية، وسالكاً مرتاضاً بزعمه على طريقة الصوفية. ويتكلم بمذاهب غريبة منها، ويقول برأي الوحدة كما ذكرناه في ذكر المتصوفة الغلاة، ويزعم بالتصوف في الأكران على الجملة، فأرهب في عقيدته، ورمي بالكفر أو الفسق في كلماته،

مداه فيركن في الجوّاري المنشئات ثبجه، فيتبارى بهن تباري الفتح، ومثلت بطرفي هذا الصهريج قبتان متقابلتان كبيراً وصغراً على أعمدة المرمر، مشيدة جوانبها بالرخام المنجد، ورفعت سقفها من الخشب المقدر بالصنائع المحكمة والأشكال المنمقة، إلى ما اشتملت عليه هذه الرياض من المقاصير والأواوين والحوائز والقصور وغرفاً من فوقها غرف مبنية تجري من تحتها الأنهار، وتأتق في مبانيه هذه واستبلغ وعدل عن مصانع سلفه ورياضهم إلى متزهاته من هذه، فبلغ فيها الغاية في الاحتفال وطار لها ذكر في الآفاق.

الخبر عن فرار أخيه أبي إسحاق وبيعة رياح له وما قارن ذلك من الأحداث

كان الأمير أبو إسحاق في إيالة أخيه المستنصر، وكان يعاني من خلقه وملكنه عليه شدة، وكان السلطان يخافه على أمره وخرج سنة إحدى وخمسين وستمائة لبعض الوجوه السلطانية، ففر الأمير أبو إسحاق من معسكره، ولحق بالدواودة من رياح، فبايعوه بروايا من نواحي نقاوس، واجتمعوا على أمره. وبايع له ظافر مولى أبيه النازع إليهم واعتقد منه الدمة والرتبة، وقصدوا بسكرة وحاصروها، ونادى بشعار طاعتهم فضل بن علي بن الحسن بن مزني من مشيختها. وأثمر به الملال ليقتلوه، ففر إليه وصار في جلته. ثم بايع له أهل بسكرة ودخلوا في طاعته. ثم ارتحلوا إلى قابس فأنزلوها، واجتمعت عليه الأعراب من كل أوب. وأهم السلطان شأنه، وتقبض على ولده فحبسهم بالقصبة جميعاً. ووكل بهم من يحوطهم وألطف ابن أبي الحسين الحيلة في فساد ما بين الأمير أبي إسحاق ومولاه ظافر، بتحذير ألقاه إلى أخته بالحضرة تنصحاء، فبعث به إلى أخيه، فتكرر لظافر وفارقه، وسار إلى المغرب. ثم لحق بالأندلس، وافترق جموع الأمير أبي إسحاق فلحق بتلمسان، وأجاز منها إلى الأندلس. ونزل على السلطان محمد بن الأحمر فرعى له عهد أبيه، وأسنى له الجراية. وشهد هنالك الوقائع، وأبلى في الجهاد. ولم يزل السلطان المستنصر يتاحف ابن الأحمر ويهاديه، ويوفد عله مشيخة الموحيدين مصانعة في شأن أخيه واستجلاء حاله، إلى أن هلك. وكان من ولاية أخيه أبي إسحاق ما نذكر لحين مهلكه أجاز ظافر من الأندلس إلى بجاية. وأوفد ولده على الرائق مستعباً وراغباً في السبيل إلى الحج. وقلق المستولي على الدولة بمكانه، وراسل شيخ الموحيدين أبا هلال عياد بن محمد الهنتائي صاحب بجاية في اغتياله من قصده، فذهب دمه هدراً وبقي ولده عند بني توجين حتى جاؤوا في جملة

محمد ﴿حَم﴾ وَالْكِتَابُ الْمُبِينُ. إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ. فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ. أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ. رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾. قد صح أن هذه الليلة فيها تنزل الآيات وترتقب البيئات، وفيها تخصيص القضايا الممكنة وأحكام الأكوان ويفرق الأمر، ويفسر الملك الموكل بقبض الأرواح بحمل الأجال في الأزمان، وفيها تقرر خطة الإمامة والملوك، وقبض الإمامة بالملك، وهي في القول الأظهر في أفضل الشهور، وفي السابع والعشرين منه كما ورد في الحديث المشهور. ثم هي في أم القرى وفي حرماها تقدر بقدر زائد، ويعم فضلها إلا للحائد عن الفائدة، وإنما قلت هذا ورسمته ليعلم من وقف على الخطبة التي اقتضيتها، والليلة التي فيها قراتها، أنها من أفضل المطالب التي قصدت، وأن القرائن التي اجتمعت فيها ولها، زادت على الفضائل التي لأجلها رصدت، وأيضاً تأخر فيها مجد إمام عن إمام، وبعد مجد إمامه وراء إمام وهو وراء الإمام، ورحمت فيها نفس خليفة عبرت وتلقب وعظمت فيها ذات خليفة تحمي التي سلفت، فهذه نعمة بركة ينبغي أن يقرر حدها ويتحقق مجدها، ولا يقدر قدرها فإنها ليلة قدر، ليلة قدرها.

والحمد لله حمداً واصلًا: بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على واحد الله في عنايته سيدنا محمد ﴿طسّم﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ إلى قوله ﴿مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَخْذَرُونَ﴾ الحق الشاهد لنفسه المتفق من جميع جهاته، وفي سنة الله التي لا تحول ولا تبدل والمتعارف من عادته التي ربطها بحكمته التي تعدل ولا تعدل، إن لكل هداية نبوية ضلالة فرعونية، وكذا الحال في الأولياء، ومع كل مصيبة فرج، ولا ينعكس الأمر في الأتقياء. ولكل ظلم ظالم متجبر فخر قاهر متكبر، وعند ظهور ظفر المبطل يظهر قصد الحق المفضل. وفي عقب كل فترة أو فيها كلمة قائم بحق يغلب لا يغلب، وفي كل دور أو قرن إمامة تطلب بشخصها ولا تطلب، وكواكب الكفر إذا طلعت على أفق الإيمان فيه نكب آقله، وكلمة الله إذا عورضت تكرر معارضتها قافلة. وإنما ذكرت ذلك بعد الذكر المحفوظ ليتذكر بالآيات الظاهرة إلى الآيات القاهرة. وليعلم كل مؤمن أن كلمة الله متصلة الاستصحاب والسبب، وعاملة في الأشياء مع الأزمان والحقب، وأن رجال الملة والحنيفة أعلى المنازل والرتب. ولذلك يقول في نوع فرعون الأذل، ونوع موسى الأجل: أشخاصها متعددة، وأكوانها متحدة، والله غالب على أمره. وقد قيل: إن الملة الحنيفية المضربة تنصرها السيرة العمرية المحمدية المستنصرية.

ولعل الذي أقام الدين وأطلمه من المشرق وأتلفه منه،

وأعلن بالنكير عليه والمطالبة له شيخ المتكلمين بأشيلية. ثم بتونس أبو بكر بن خليل السكوني، فتنمر له المشيخة من أهل الفتيا وحلة السنة وسخطوا حالته.

وخشي أن تأسره البيئات فلحق بالمشرق ونزل مكة، وتذمم بجوار الحرم الأمين، ووصل يده بالشريف صاحبها. فلما أجمع الشريف أمره على البيعة للمستنصر صاحب إفريقية، داخله في ذلك عبد الحق بن سبعين وحرضه عليه، وأملى رسالة بيعتهم، وكتبها بخطه تنوياً يذكره عند السلطان والكافة، وتأميلاً للكرة ونصها:

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على الأسوة المختار سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً. ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا. لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا. وَتَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا. هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

هذا النوع من الفتح - أعني المبين - هو من كل الجهات داخل الذهن وخارجه، وهو الذي خصت به مكة، وهو أعظم فتح نذر في أيام الدهر والزمان الفرد منه خير من أيام الشهر، وبه تتم النعمة، ويستقيم صراط الهداية، وتحفظ النهاية، وتغفر ذنوب البداية، ويحصل النصر العزيز، ونور السكينة، وتمكن قواعد مكة والمدينة. وكلمة الله عاملة في الموجودات بحسب قسمة الزمان. ثم لا يقال: إنها متوقفة على شيء، ولا في مكان دون مكان.

وهذا الفتح قد كان بالقصد الأول والقدر الأكمل، للمتبع الذي أفاد الكمال الثاني كالسبع المشائي، فإنه هو الإسوة ﷺ، وكل نعمة تظهر على سعيد ترجع إليه مثل التي ظهرت على خليفته وعلى يديه. وإن كانت نصبة مولده ﷺ ورسالته تقتضي ختم الأنبياء بهذا القرن الذي نحن فيه، وأماننا فيه هو ختم الأولياء. فمن فتح عليه بفتح مكة تمت له النعمة، ورفع له الدرجة، وضفت عليه الرحمة. ومن وصل سلطانه إليها فقد هدي الرشيد وسار على صراطه، ورجح ميزان ترجيحه على أقرانه وأرهابه. ومن حرم هذا فقد حرم من ذلك، والأمر هكذا.

وسنة الله كذلك، وصلى الله على رسوله الذي طلع المجد من مدينته بعدما أطلعه من بلده، ورضي الله عن خليفته المنتخب من عصر خليفة عمر صاحب نبيه، ثم من عمر صاحبه ووليه والحمد لله على نعمه.

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيد ولد آدم

والذي يشاركه في الاسم ويقاسمه في إطلاقه فقط لا يصدق عليه، إذ هو أضعف من ذرة في كرة، ومن غلة في رملة. وأقفر من قصد طالب السراب، ويده مع أبيس من التراب فصيح بالسبب والتقسيم، ويتصفح الموجودات والأزمان والدول والمراتب والنعوت إنه هو لا شريك له فيها، والمصحح لذلك كله، والذي يصدق وينطبق عليه مدلول الحديث كرمه الذي يعجز عنه الحد، ولا يتوقف فيه العد. وهذا خليفة الملة كذلك، وهذه دلالة هي أوضح من نار على علم. وهذه خصاله شاهدة له بفنائل السيف والقلم، وهذه خزائنه تغلب الطالب وتعجز عن الدافع، وهذه سعوده في صعوده، وهذه متاجر تعويله على الله راجحة وهذه أحواله بالكيفية صالحة، وهذه سعائته ناجحة. ثم هذه موازين ترجيحه راجحة، والحمد لله كما يجب. وما النصر إلا من عند الله وصلى الله على عبده محمد بن عبد الله إنه من بكة، وإنه للحق، وإنه بسم الله الرحمن الرحيم، وإنه إلى خضر لا تحصر الحصرة، ويعدر فيها النذر، ويحافظ على سنة الرؤوف الرحيم. ﷺ

أما بعد فبهذاهم اقتداه، الحمد لله الذي أحسن بمقام الإحسان ونعم النعمة، وبين لمن تبين علم البيان، وحكم لمن أحكم الحكمة وسبقت في صفات أفعاله صفة الرحمة وذكر الهداية في كتابه بعد ذكر النعمة، هو الرؤوف بالبرية وهو الرحيم والحفي بالخفية، وهو القاهر الماضي المشيئة الذي يقبض ويسط المشيئة. شهد له بالكمال الممكن الذي أبرزه وخصصه وعرفه بالجلال من يسره لذلك وخلصه. هو الذي استعمل عليها من اختاره لإقامة النافلة والفرض، وأعمى من أهلها من توسل له بنية العرض وأعتق العقاب وسر العقاب وأهمل العقاب بطاعة من يستعمر به الربع المعمور، وأنعم على المستضعفين في الأرض بإمام يجر المجد في بحر خصاله يعد بعض البعض.

سنه محمديّة، وسيرته بكرية وسريرته علوية، وسلالته عمرية. فهذه ذرية وأنواع مجد بعضها من بعض، بل هذه خطوط فصل الطول فيها مثل العرض. عرف بالتراسة العالية، ووصف بالفاقة السالية، وشهد له بذلك الخاص والعام ونزهه من النقائص. النزيه النفس، ومن نزهه في سلطانه علمه العام. صلى الله على الأسوة الرؤوف بالمؤمنين، سيدنا محمد الذي أنزل عليه التنزيل، وكتب اسمه في صحيح القصص والنصوص، وبنى الله أئمة أمته الذين شبههم بالنبيا الموصوف، وعلى آله وصحبه الكرام البررة الذين اصطفاهم وطهرهم، ثم أيدهم فظهروا الأرض من الكفرة الفجرة. وأخرج من ظهورهم ذرياتهم، بالدين

ويجيره من المغرب ولا ينقله عنه، فينبغي لمن آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، وبما يجب كما يجب أن لا يتغير قصده ولا يتوقف عند سماع المهلكات حمده، قد قيدت أقدام قوم بشرك الشرك، وحملهم الضجر إلى الهلك بطاعة الترك وكع كيد الكنود هلك كنعان وكل بصر بصيرته، ولبس لهم الذل بالعرض، وجعل مصيبة الدين تفتته مع جحوده لسلطان السنة والفرض. وأما هامان المرتدين فليس هم بالمؤمنين، وعلا فرعون الشر في الأرض، والله بمن على المستضعفين في الأرض بنصر من عنده، ويهلك المفسدين بجند من رفده. وينبغي أو يجب أن نضرب عن ذكر كائنة مدينة السلام، فإنها تزلزل الطبع وتحمل الروح إلى ساحة الشام أو تفرع في صلاة كسوف شمس سرورها إلى التسليم بالاستسلام وتكرير أربع تكبيرات على الإنس ويودع بعد ذلك وعد وسلام، وينتظر قيامه بقيام أمر محيي الدين والإسلام، والحمد لله على كل حال.

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على الذي أعجزت خصاله العد والحد، مسلم والطبقة قال: قال رسول الله ﷺ: «يكون في آخر أمتي خليفة يحثي المال حيث لا يعده عدًا». وقال ﷺ: «يكون في آخر الزمان خليفة يقسم المال ولا يعد». زاد أبو العباس الأهمداني، وأشار بيده إلى المغرب.

وذكر بهاء الدين التبريزي في ملحمة التي زعم أنه لا يثبت فيها من الأخبار إلا ما صححته روايته، ولا يذكر من الأحكام المنسوبة إلى الصنائع العملية إلا ما أبرزته درايته. ولا يعتبر من الأعلام الدينية إلى ما أدركته هدايته. قال في الترجمة الأولى: إذا خرجت نار الحجاز يقتل خليفة بغداد، ويستقيم ملك المغرب وتبسط كلمته في الأقطار، ويخطب له على منابر خلفاء بني العباس، ويكثر الدر بالمعبر من بلاد الهند.

ذكرت هذا ليعلم المقام أيده الله أنه هو المشار إليه، وأنه الذي يعول في إصلاح ما فسد بحول الله عليه. ومن تأمل قوله ﷺ: «يكون في آخر الزمان» الحديث، تبين له ما أردناه وذلك يظهر من وجوه، منها: أن الخليفة المذكور لم يسمع به فيما تقدم، ولا ذكر في الدول الماضية، ولو ذكر لرددنا القول به وأهملناه لأجل تقيده بآخر الزمان.

والثاني: أن آخر الزمان الذي يراد به ظهور الشروط المتوسطة، وأكثر العلامات المنذرة بالساعة هو هذا بعينه.

الثالث: لا خليفة لأهل المللة في وقتنا هذا غير الذي قصدهنا.

وهذه أقطار الملة منحصرة ومعلومة لنا من كل الجهات،

أظهرهم، ويسر بهم السبيل ثم السبيل يسره.

أي غاية تطلب بعد طاعته، وأي تجارة تنظر مع بضاعته، له الحمد بيده الملك والأمانة، بل له الكل بفضل الله وفيه المقصد والسلامة، لا بل له الفتح المبين وتميم النعمة والهداية ونور السكينة، وفيه الإمارة والعلامة. منير مكة بإزاء بيت بكة خطب بخطبته، والذي ذهب بالمدينة يطلب فلعله يسعفه في خطبته أفئدة السر تطير إذا سمعت بذكره، والمهندات البئر تلين لباس ساعده. ويقول طباع أربابها بشكره دولة التوحيد، توحدت له إذ هو واحدوا الأوحاد، وسياسة التسديد تحكمت له فهو مدبرها الأرشد. ومع هذا كتابته أهملت صيت الصادين، وكورت شمس الفتح، ثم الفتح والصادين.

وكذلك الثلاثة الذين من قبلهم لا نذكر معه الأديب حبيب في رد الإعجاز على الصدور، فإنه الذي يعتبر في ذلك والذي يصدر عنه واقع في الصدور، وأفعل في طباع المهرة وفي نفوس الصدور يتأخر عن شعره شعر الرجلين. وبعده نذكر الطبقة، ثم شعراء نجد، والخب والجيلي والولد بعده والهذلي، والمؤكد هو تقديره في المغرب من ذلك. والهذلي علوم الأدب، الخمسة تمها وسادسها وسابعها زاده من عند نفسه. وخلييل النحو لو حضر عنده كان خليله في تحصيل نوعه وجنسه، والفارسي تلميذه ثم الآخر بعده والأخفش الكبير ثم الصغير ما ضرب لهم من قبل في مثله بنصيب. وأقام أئمة النحو تنحو نحو بنحو بنحو نحو غوه، ثم لا يكون كالصيب. وكل كوفي بل كل بصري يجب الظهور إذا سمع به اختفى، والمنصف منهم هو الذي بنحوه اكتفى. أئمة الفقه الثلاثة هذبها وحصلها، وأصوله كما يجب علمها وفصلها. والمسائل الطولية تكلم على مفصلها ومجملها، وسهل الصعب من خصصها ومهملها.

وإن فسر كتاب الله المعجز عجز أرباب البلاغة بإعجاز بعد إعجازه، وإن تعرض لعوارض الفاظه أظهر العجب في اختصاره وإيجازه. وإن شرع في شرح قصصه وجدله، وفي تفسير ترغيبه وترهيبه. ومثله يصير الناظر فيه والمستمع لما لم يسمع وما لم يصير، فإنه سلك بقدم كماله وتكميله على قنطرة بعد لم تعبر ويضطر الزعيم به بتحصيله إلى تحديد قطرة أخرى، وبعد هذا يفترق في بيانه إليه في الأولى وإلى الله في الأخرى. وإن تكلم على مثالبه ومحكمه علم الاصطلاح. ثم بيان النوع للخبر به ومحكمه، وكذلك القول على الناسخ والمنسوخ والوعد والوعيد. وإن يشاء طول في مطولاتهم واختصر من مختصراتهم، فيبده الزيادة وضد المزيد، وأما تحرير أمره ونهيه وأسراره ورفاقه، وفواتح سورة وحققه. والذي يقال: إنه لا من جنس الذي

ومتهم الخليفة المستنجد بالله المفضل على الناس، ولكن أكثرهم، ورضي الله عنهم وعنه، وضاعف للمحب الثواب الدائم منهم ومنه. وبعد خدمة يتقدم فيها بعد الحمد والتبليغ والدعاء للدولة الدالة على قبول الدعوة أصلية، تحية بعضها مكية وكلها ملكوتية، وروضة ريحها حضرة القدس ونشرها يدرك فيه صحبة النفث، روح القدس. وتكبر عن أن تشبه بالعنبر والنذ والورد وأزهار الربى والرياض. لأن المفاوق للمادة مفارق لغير المفاوق لها مفارقة السواد للبياض. ثم هي مع هذا واجبة القصد غلبة الورد، تذكر الذاكر الذكي بعرفها الذكي لمدركات جنة الخلد والنعيم. وفي مثل هذه فليتنافس المتنافسون.

وتدرك النفس النفيسة لذة النعيم لأنها ظاهرة طيبة، كريمة صبية، وافقة على حضرة الملك والسلطان، ومدار فلك النسك ومستقر الإمامة والجلالة، ومعقل الهداية والدلالة، وأصل الأصالة ودار المتقين، وبيت العدالة وحزب اليقين. وإنسانها الأعظم معلي الموحدي على الملحين وقائم الدين وقيمه، ومقر الإسلام ومقدمه، القائم بالدعوة العامة بعد أبيه إمام المجد والفخر، ثم الأمة الذي إذا عزم أوهم بتخصيص مهمل، اتخذ في خلده ما هو بالفعل مع ما هو بالقوة، وأن يعرض له في طريق إعراضه الممكن العسير يسره سعده وساعده ساعد القوة، وإن سمع بالحمد في جهة حديه بخاصة خصاله بعد مجد الأبوة وفخر النبوة، لا يذكر معه ولا عنده صعب الأمور إلا بالضد، فإنه مظهر العناية الإلهية، ومرآة المجد والجد. هو علم العلم ثم هو محل الحلم، اسمه متوحد في مدلوله كالاسم العلم، وعهده لا يتوقف على اللسان ولا على رسوم القلم.

كتب في السماء وسمع به في الكرسي وكذلك العرش، وما هنا إنما هو مما هنالك فهو الأعلى. وإن كان في الفرش هو شامخ القدر ظاهر الفضل شديد البطش. ثم هو مما ظهر عليه علم أن الشجاعة لم تنتقل من الإنسان إلى الأسد. ولا يقال هذا بحر العلم فينتقل من الطبيعة إلى بحر الخلد، لأن ذلك كله فيه بوجه أكمل وبه وعليه، وفي يديه بنوع أفضل، بلغ ذروة النهاية المخصوصة، بالمطالب العالية، وحصل في الزمان الفرد ما حصله الفرد في الأيام الخالية. وبلغ في تبليغ حمة بصفاته ما بلغ الأشد عمره ونال غاية الإنسان، وتتعجب منه في القيامة عمره، ويسره أمره طلعت سعوده على مولده، ومطالع كلمة مجده لأحكام الفلك وطالعه. إن حرر القول فيه وفهم شأنه، قيل: هو فوق الأطلس والمكوكب، وإن قيس سعده بالكلمات الثلاثة كان كاليسيط مع المركب.

الحفيظ.

وفتح الله به باب الفتح في المشرق والمغرب بعد فتح الثغور، وشرح بنصره وفتح أوساط الصدور، وما استنبطته الضمائر من نثبات الصدور وجبر به كسر الظفر، ووصل به ما انقطع من الأسباب. وعصم جنده من ضد الدنف الأنف، وردهم إلى ردم الأبواب وقدس كلمته بعد الحرمين في البيت المقدس، وسلك به مسالك السبل في المقبل والمعرس. وبعد هذا فهذه أدعيتنا، بل هذه أوديتنا، وهذه مسائننا بل هذه وسائننا، وهذه تحية حيها ذو الفطرة السليمة، وهذه خدمة يفتخر بها طبيعة النفس العلمية. واستنبت فيها الكتاب واستثبت فيها الجواب، والموجب لإصدارها بحجة، أصلها ثابت وفرعها في العلى، وحفز عليها حافظان شوق قديم، ورعاية الآخرة والأولى، بل الأمر الذي هو في خير الأمور من أوسطها، وإذا نظم في عقد الأسباب الموجبة لهذه الخطابة يكون في وسطها، فإنه يحكي أحكام الشأن والقصة، ويعلم المقام أيده الله الذي حصل له في حرم الله وحرم نبه من النصيب والخصبة، وفيه ينبغي أن تذهب الألفاظ وتلحظ عيون الأغراض ويفتح المقاصد ويحمل على جواهر الكمالات كالأغراض، فمن ذلك ذكر الملة التي كملت وكبرت، والأخرى التي كانت ثم غمرت وصغرت. والمثير الذي صعد خطبته على الخطيب، وعرج إلى سماء السمو وهو على درجته، والآخر الذي درج عنه خطيبه وضاق صدره الأمر حرجه، وقرئت سورة الإمام بحرف المستنجد المستبصر، لا بحرف المستصم بن المستنصر.

بسط القول وأطلق ترجمة عبد الله بعدما قبضه الذي أمات وأحيا، وقبض على مقامه ودفع للإمام محمد بن يحيى، وكان ذلك في يوم وصول الخبر بمصيبة الاختبار، ثم في ليلة الآيات والاعتبار. ومن ذلك أيضاً بنعمة الحمد والدعاء الظاهر القول والمقبول في الحرم الشريف، واتقياد الذي ظهر على طائفة الحق والسيد والشريف. ومن ذلك صعود علم الأعلام على جبل معظم الحج ومقر وفوق الحاج، ووقف به المتكلم في مقام من كانت له سقاية الحاج، وذكر كما يجب بما يجب في موقف الإمام مالك، وعرف هنالك أنه الإمام والمالك لكل مالك، وتعرف نكرة دعوة التوحيد بتخصيص خصوصية المخصوص بعرفة، وتعارف بها من تعارف معه هناك ونعم التعارف والمعرفة.

ثم ذكر عند المشعر الحرام وفي جهات حدود حرم المسجد الحرام، وعظم اسمه بعد ذكر الله وذكر الوالدين، وطلع الذاكر بالتركيب إلى الجدين الساكنين في الخلد والخالدين. فلما وصل الحجيج إلى عقبة الجمرات، ذكر مع السبع الأولى سبع

يكتسب والذي هو أعظم من الذي يرد، وإليه الأحوال تنسب فهو الشارح لها والخبير بها، وإن تأخر. وينوع في ذلك ويزيد غير الأول وإن تكرر.

وأما علوم الحديث وأنواعها السبعة فهو يعلمها، وصناعتها بجملتها للعلماء يعلمها. والوراقة والضبط والخط وقفت عليه مهنة غايتها، وحمله الأمر علوم الشريعة كلها عرفها ووعاها ورعاها حتى رعايتها. وكل العلوم العقلية والنقلية ورجاها على ذهنه الطاهر من دنس النسيان، والمقامات السنية المستزلات العلوية أدركها بعد التبيان. فمن أراد أن يمدحه ويعدل عن إطلاق القول فقد اقترف أعظم الذنب. ومن ذكره ولم يتلذذ بذلك فقد جاء بما ينضح حمله الخيب، ونعوت جامها بمنع عن إدراكها نور المتصل، وحضرة جلاله محفوظة بجدها وجدها وقاطعها المنفصل. ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، قل اللهم مالك الملك، الله أعلم حيث يجعل رسالاته.

هذه كلها آياته. والرابعة: ﴿وَإِنْ تُعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ فإنها حياته إن حدث الحدث بكرمه يقول: قال رسول الله ﷺ: «يكون في آخر الزمان خليفة يقسم المال ولا يعده، ونصر الله إذا جاء لا يرده، وفتح من ذا الذي عن السعيد يصده»، والمؤرخ يتذكر بتذكره الكلمات الهذلي من حيث المطالب، إذ قال، وقد سئل عن الإمام علي بن أبي طالب وهو الإمام وفيه أربعة وهو واحد حتى في رفع التشبيه وقطع السبب، العلم والحلم والشجاعة وفضل الحسب، يسر بحكمته ويغبط بها متى يتبع جملة، الباحث الحكيم ولا يشعر بشعره إذا تصفح نعوته الشاعر العليم، وينشد طبعه في الحين والوقت والحزة ويخرج الحروف من مغارج الهمة.

شهدت لقد أوتيت جامع فضله وأنت على علمي بذاك شهيد ولو طلبت في الغيب منك سجية لقد فر موجود وعز وجود

أدام الله له المجد الذي يسلك به على النجدين، وحفظ عليه مقامه الذي لا يحتقر فيه إلا جوهر النقيدين، وبسط له في العلم والقدرة، وبارك له في نصيب النصر، وجهز به العسرة، ورد به على الشرك والفتن الكرة، وعرفه في كل ما يعتزمه صنعاً جميلاً، ولطفاً خفياً جليلاً. وكفا الشر المحض وخير الشرين، كما كشف له عن الخير المحض وعلم السرين، وأبده بروح منه في السر والسرية، وحفظه في حركاته وسكناته من الصغيرة والكبيرة. وجعل كلمته غالباً للضد والجند، وبلغ صيته الجزائر والبربر، ثم إلى السند والهند. وخلد ملكه وسلم فلكه، ورفع على أوج المجد بمجده الطويل العريض. وأهبط عدوه من الشرف الأعلى إلى

يقيموا بها الدعوة له عند فتحها. ولم يزل دأبهم هذا إلى أن كان الفتح.

وفي سنة خمس وخمسين وستمائة وصلت هدية ملك كانم من ملوك السودان، وهو صاحب برنو موطنه قبلة طرابلس، وكان فيها الزرافة وهو الحيوان الغريب الخلق المنافر الخلس والشيات، فكان لها بتونس مشهد عظيم برز إليها الجفلى من أهل البلد حتى غص بها الفضاء، وطال إعجابهم بشكل هذا الحيوان وتباين نعوتهم، وأخذها من كل حيوان بشبه.

وفي سنة ثمان وخمسين وستمائة وصل دون الرنك أخو ملك قشتالة مغاضباً لأخيه، ووفد على السلطان بتونس فتلقاه من المبرة والحباء بما يلقي به كرام القوم وعظماء الملوك، ونزل من دولته بأعز مكان. وكان تتابع هذه الوفادات مما شاد بذكر الدولة ورفع من قدرها.

الخبر عن مقتل ابن الأبار وسياقة أوليته

كان هذا الحافظ أبو عبد الله بن الأبار من مشيخة أهل بلنسية، وكان علامة في الحديث ولسان العرب، وبلغاً في الترسل والشعر. وكتب عن السيد أبي عبد الله بن أبي حفص بن عبد المؤمن بلنسية. ثم عن ابنه السيد أبي زيد. ثم دخل معه دار الحرب حين نزح إلى دين النصرانية، ورجع عنه قبل أن يأخذ به. ثم كتب عن ابن مردنيش. ولما دلف الطاغية إلى بلنسية ونازلها بعث زيان بوفد بلنسية وبيعتهم إلى الأمير أبي زكريا، وكان فيهم ابن الأبار هذا الحافظ، فحضر مجلس السلطان وأشد قصيدته على روي السين يستصرخه، فبادر السلطان بإغاثتهم وشحن الأساطيل بالمدد إليهم من المال والأقوات والكسى فوجدهم في هوة الحصار، إلى أن تغلب الطاغية على بلنسية. ورجع ابن الأبار بأهله إلى تونس غبطة بإقبال السلطان عليه، فنزل منه بخير مكان، ورشحه لكتب علامته في صدور رسائله ومكتوباته، فكتبها مدة. ثم إن السلطان أراد صرفها لأبي العباس الغساني لما كان يحسن كتابتها بالخط المشرقي، وكان أثر عنده من الخط المغربي، فسخط ابن الأبار أنفة من إشار غيره عليه، واقتات على السلطان في وضعها في كتاب أمر بإنشائه لقصور الترسل يومئذ في الحضرة عليه، وأن يبقى مكان العلامة منه لواضعها فجاهر بالرد ووضعها استبداداً وأنفة، وعوتب على ذلك فاستشاط غضباً ورمى بالقلم وأشد متملاً.

واطلب العز في لظى وذو الذل ولو كان في جنان الخلود

مرات. وكذلك عند الركوع في مسجد الخيف، وكل كلمات تمجده بالكم والكيف، وعند التوجه من هناك ويوم النفر قررت آياته المذكورة في كتاب الجفر. ثم جدد الذكر حول البيت العتيق بالحمد والشكر. فلما وصل العلم بانتقال بيت الملك والسلطان من بغداد في شهر رمضان، أظهر الخفي المكنون فكان ذلك مع التسييح والقرآن، وكان الخادم في الزمان الأول وفي الذاهب ينتظر الخطفة من نحو عراق والمغرب. والآن وجد نفسها من نحو اليمن إقليم الأعراب والعرب.

والذي حمل على هذا كله طاعة كاملة وغبطة عاملة، والله تعالى بفضلته يعصمه من كيد المعاند، فإنه في إظهار دعوة التوحيد كالمجاهد والمكابد، ومعاد التحية على المقام الأرفع والمقر الأنفع، وعلى خدام حضرته العلية، وأرباب دعوته الجليلة وأنواع رحمة تعالى وبركاته. والحمد لله كما يجب وصلى الله على نبيه محمد وعلى آله وسلم. كتب تجاه الكعبة المعظمة في الجانب الغربي من الحرم الشريف، والحمد لله رب العالمين.

ولما وصلت هذه البيعة استحضر لها السلطان الملأ والكافة، وقرئت مجمعهم وقام خطيبهم القاضي أبو البراء في ذلك الحفل فاستحضر في تعظيمها والإشادة بحسن موقعها، وإظهار رفعة السلطان ودولته بطاعة أهل البيت والحرم ودخولهم في دعوته. ثم جأ بالدعاء للسلطان وانفض الجمع فكان من الأيام المشهودة في الدولة.

الخبر عن الوفود من بني مرين والسودان

وغيرهم

كان بنو مرين كما قدمناه قد تمسكوا بطاعة الأمير أبي زكريا ودخلوا في الدعوة الحفصية، وحملوا عليها من تحت أيديهم من الرعايا مثل: أهل مكناسة وتازي والقصر، وخاطبوا السلطان بالتمويل والخضوع. ولما هلك السلطان وولي ابنه المستنصر، وقارن ذلك ولاية المرتضى براكش. ثم كان بينهم وبين المرتضى من الفتنة والحرب ما ذكرناه ونذكره، فافصل ذلك بينهم وبعث الأمير أبو يحيى بن عبد الحق بيعة أهل فاس، وأوفد بها مشيخة بني مرين على السلطان وذلك سنة اثنتين وخمسين وستمائة، فكان لها موقع من السلطان والدولة. وقابلهم من الكرامة كل على قدره، وانصرفوا عجبورين إلى مرسلهم. ولما هلك أبو يحيى بن عبد الحق، واستقل أخوه يعقوب بالأمر أوفد إليه ثانية رسله وهديته، وطلب الإعانة من السلطان على المرتضى وأمر أهل مراكش على أن

الولايات حتى شارك كل عامل في عمله بما أظهر من كفايته وتنميته للأموال حتى قصر بهم وأدبل منهم.

وكان الكثير منهم متعلقاً من ابن أبي الحسين رئيس الدولة بذمة خدمة، فأسفه بذلك وأغرى به بطانة السلطان ومواليه، حتى سعوا به عند السلطان، وأنه يروم الثورة بالمهدية، حتى خشن له باطن السلطان. فدخل عليه ذات يوم أبو العباس الغساني فاستجازه السلطان في قوله: اليوم يوم المطر، فقال الغساني: ويوم رفع الضرر، فتنبه السلطان واستزاده فأنشد:

والعام تسعة كمثل عام الجوهري.

فكانت إغراء باللياني، فأمر أن يتقبض عليه وعلى عدوه ابن العطار، وكان عاملاً. وأمر أبا زيد بن يغمور بامتحانهما فعذبهما حتى استصفى أموالهما، والميل في ذلك على اللياني. وكان في أيام امتحانه يباكر موضع عمله. ثم نعي عنه أنه يروم الفرار إلى صقلية، ويبحث بعض من داخله في ذلك فأقر عليه، فدفع إلى هلال كبير الموالي من العلوج فضربه إلى أن قتله، ورمى بشلوه إلى الغوغاء فعبثوا به وقطعوا رأسه، ثم تتبع أقاربه وذووه بالتكال إلى أن استنفذوا.

الخبر عن انتفاض أبي علي الملياني بمليانة

على يد الأمير أبي حفص

كان المغرب الأوسط من تلمسان وأعمالها إلى بجاية في طاعة السلطان منذ تغلب أبوه الأمير زكريا عليه، وفتح تلمسان وأطاعه يغمراسن وكان بين زناتة بتلك الجهات فتن وحروب شأن القبائل اليعاسيب، وكانت مليانة من قسمة مغراوة بني ورسيفان، وكانوا أهل بادية. وتقلص ظل الدولة عن تلك الجهات بعض الشيء. وكان أبو العباس الملياني من مشيخة مليانة صاحب فقه ورواية وسمت ودين، رحل إليه الأعلام وأخذ عنه العلماء، وانتهت إليه رئاسة الشورى ببلده. ونشأ ابنه أبو عليه علي خلوياً من الخلال متهاكماً في الرئاسة متبعاً غواية الشيبية، فلما رأى تقلص ظل الدولة وفتن مغراوة مع يغمراسن ومزاحمته لهم، حدثه نفسه بالاستبداد فخلع طاعة آل أبي حفص ونبد دعوتهم، وانبرى بها داعياً لنفسه. وبلغ الخبر إلى السلطان فسرّح إليه أخاه الأمير أبا حفص، ومعه الأمير أبو زيد بن جامع، ودن الرنك أخو الفنش، وطبقات الجند. فخرج من تونس سنة تسع وخمسين وستمئة وأخذ السير إلى مليانة فنازلها مدة، وشد حصارها حتى اقتحموها غلاباً. وفر أبو علي الملياني ولحق ببني يعقوب من آل العطاف أحد

فتمي ذلك إلى السلطان فأمر بلزومه بيته، ثم استعتب السلطان بتأليف رفعه إليه عد فيه من عوتب من الكتاب، وأعتب. وسماء أعتاب الكتاب. واستشفع فيه بابنه المستنصر فغفر السلطان له وأقال عثرته، وأعادته إلى الكتابة. ولما هلك الأمير أبو زكريا رفعه المستنصر إلى حضور مجلسه مع الطبقة الذين كانوا يحضرونه من أهل الأندلس وأهل تونس، وكان في ابن الأبار أنفة وبار وضيق خلق، فكان يزري على المستنصر في مباحثه ويستقصره في مداركه، فخشن له صدره مع ما كان يسخط به السلطان من تفضيل الأندلس وولايتها عليه.

وكانت لابن أبي الحسين فيه سعاية لحقد قديم، سببه أن ابن الأبار لما قدم في الأسطول من بلنسية نزل ببينزرت، وخاطب ابن أبي الحسن بغرض رسالته، ووصف أباه في عنوان مكتوبه بالمرحوم. ونبه على ذلك فاستضحك وقال: إن أبا لا تعرف حياته من موته لأب خامل. ونغيت إلى ابن أبي الحسين فأسرها في نفسه، ونصب له إلى أن حمل السلطان على إشخاصه من بجاية. ثم رضي عنه واستقدمه ورجعه إلى مكانه من المجلس. وعاد هو إلى مساءة السلطان بنزاعته إلى أن جرى في بعض الأيام ذكر مولد الواثق وساءل عنه السلطان فاستبهم، فعدا عليه ابن الأبار بتاريخ الولادة وطالعهما، فاتهم بتوقيع المكروه للدولة والترصص بها كما كان أعداؤه يشنعون عليه، لما كان ينظر في النجوم فتقبض عليه. وبعث السلطان إلى داره فرفعت إليه كتبه أجمع، وألقى أثناءها فيما زعموا رقعة بأيات أولها:

طغى بتونس حلف سموه ظلماً خليفة

فاستشاط لها السلطان وأمر بامتحانه، ثم يقتله قعصاً بالرماح، وسط محرم من سنة ثمان وخمسين وستمئة، ثم أحرق شلوه وسقت مجلدات كتبه وأوراق سماعه ودواوينه فأحرقت معه.

الخبر عن مقتل اللياني وأوليته وتصاريه

أحواله

أصل هذا الرجل من لليانة قرية من قرى المهدية، مضمومة اللام مكسورة الثانية، وكان أبوه عاملاً بالمهدية، وبها نشأ ابنه أبو العباس. وكان يتنحل القراءة والكتاب حتى حذق في علوم اللسان. وتفقّه على أبي زكريا البرقي، ثم طالع مذاهب الفلاسفة، ثم صار إلى طلب المعاش من الإمارة فولي أعمال الجباية. ثم صودر في ولايته على مال أعطاه وتخلص من نكبته، فنهض في

وخشي أن يسلموه إذا أزالهم السلطان عليها، تحول عنهم ولحق بتلمسان وأجاز البحر منها إلى الأندلس، وصحبت الأمير أبا إسحاق ابن عمه في مثنى اغتاربهما بالأندلس. ثم ساءت أفعاله وعظم استهتاره. وفشا التكبر عليه من الدولة، فلحق بالمغرب وأقام بتينملل مدة. ثم رجع إلى تلمسان، وبها مات. وقام الأمير أبو إسحاق بمكانه من جوار ابن الأحمر إلى أن كان من أمره ما نذكره.

الخبر عن خروج السلطان إلى المسيلة

لما اتصل بالسلطان شأن أبي قاسم ابن عمه أبي زيد وفصاله عن رياح إلى المغرب بعد عقدهم بيعته، خرج من تونس سنة أربع وستين في عساكر الموحدين وطبقات الجند لتمهيد الوطن، ومحو آثار الفساد منه، وتقويم العرب على الطاعة. وتقل في الجهات إلى أن وصل بلاد رياح فدوخها ومهد أرجاءها، وفر شبل بن موسى وقومه الدواودة إلى القفر، واحتل السلطان بالمسيلة آخر وطن رياح. ووافاه هنالك محمد من عبد القوي أمير بني توجين من زناتة مجدداً لطاعته، ومتبركاً بزيارته، فتلقيه من البرور تلقى أمثاله، وأثقل كاهله بالحباء والجواشر، وجنب له الجياد القريات بالمراكب المثقلة بالذهب، واللجم المحلات. وضرب له الفساطيط الفسيحة الأرجاء من ثياب الكتان وجدل القطن، إلى ما يتبع ذلك من المال والظهر والكراع والأسلحة. وأقطع له مدينة مقرة وبلد أوماش من عمل الزاب، وانقلب عنه إلى وطنه.

ورجع السلطان إلى تونس وفي نفسه من رياح ضغن إلى أن صرف إليهم وجه تدبيره كما نذكره، والثانية احتلاله في الحضرة كان مهلك مولاة هلال، ويعرف بالقائد، وكان له في الدولة مكان بمكان تلادا للسلطان، وكان شجاعاً جواداً خيراً حياً سهلاً مقبلاً على أهل العلم وذوي الحاجات، وله في سبل الخير آثار منقولة صار له بها ذكر، فارتضى السلطان لهلكه.

الخبر عن مقتل مشيخة الدواودة

كان شبل بن موسى وقومه من الدواودة فعلوا الأفاعيل في اضطراب الطاغية، ونصب من لحق بهم من أهل هذا البيت للملك، فبايعوا أولاً للأمير أبي إسحاق كما ذكرناه، ثم بعده لأبي القاسم ابن عمه أبي زيد، وخرج إليهم السلطان سنة أربع وستين وستمائة ودوخ أوطانهم، ولحقوا بالصحراء ودافعوه على البعد

شعوب زغبة فأجاروه وأجازوه إلى المغرب الأقصى، إلى أن كان من خبره ما نذكره بعد.

ودخل الأمير أبو حفص مليانة ومهد نواحيها وعقد عليها إلى ابن مندبل أمير مغراوة فملكها مقيماً فيها لدعوة السلطان شأن غيرها من عمالات مغراوة. وقفل الأمير أبو حفص إلى تونس، ولقيه بطريقه كتاب السلطان بالعقد له على بجاية وإمارتها، فكره ذلك غبطة بجوار السلطان. وترددت في ذلك رغبته فادبل منها بالشيخ أبي هلال عياد بن سعيد الهنتاتي، وعقد له على بجاية. ولحق الأمير أبو حفص بالحضرة إلى أن كان من خلافته ما نذكر بعد. وهلك شقيقه أبو بكر بن الأمير أبي زكريا ثانية مقدمه إلى تونس سنة إحدى وستين وستمائة، فتفجع له الخليفة والقراية والناس وشهد السلطان جنازته، والبقاء لله وحده.

الخبر عن فرار أبي القاسم بن أبي زيد ابن الشيخ أبي محمد وخروجه في رياح

كان أبو القاسم بن أبي زيد هذا في جملة ابن عمه الخليفة، وتحت جريته، وأبوه أبو زيد هو القائم بالأمر بعد أبيه الشيخ أبي محمد. ولحق بالمغرب. وجاء أبو القاسم في جملة الأمير أبي زكريا، وأوصى به ابنه إلى أن حدثته نفسه بالتوثب والخروج. وخامره الرعب من إشاعة تناقلها الدهماء، سببها أن السلطان استحدث سكة من النحاس مقدرة على قيمته من الفضة، حاكى بها سكة الفلوس بالشرق تسهلاً على الناس في المعاملات بإسرافها وتيسيراً لاقتضاء حاجاتهم. ولما كان لحق سكة الفضة من غش اليهود المتناولين لصرفها وصوغها، وسمى سكتها التي استحدثها بالخنديوس. ثم أفسدها الناس بالتدليس وضربها أهل الريب ناقصة عن الوزن، وفشا فيها الفساد. واشتد السلطان في العقوبة عليها فقطع وقتل، وصارت ريبة لمن تناولها. وأعلن الناس بالتكبر في شأنها وتنادوا بالسلطان في قطعها وكثر الخوض في ذلك وتوقعت الفتنة. وأشيع من طريق الحدثن الذي تكلف به العامة أن الخارج الذي يثير الفتنة هو أبو قاسم بن أبي زيد، فآزال السلطان تلك السكة وعفا عليه، وأهمه شأن أبي القاسم ابن عمه، وبلغه الخبر فخامره الرعب إلى ما كان يحدث نفسه من الخروج، ففر من الحضرة سنة إحدى وستين وستمائة، ولحق برياح ونزل على أميرهم شبل بن موسى بن محمد رئيس الدواودة، فبايع له وقام بأمره. ثم بلغه اعتزام السلطان على النهوض إليه فخشي بادرته واضطرب أمر العرب من قبيله. ولما أحس أبو القاسم باضطرابهم

ذلك، فصارت ملكاً لهم.

الخبر عن طاعية الإفرنجية ومنازلته تونس في أهل نصرانيته

هذه الأمة المعروفة بالإفرنجية وتسميها العامة بالإفرانسييس نسبة إلى بلد من أمهات أعمالهم تسمى إفرانسة، ونسبهم إلى يافث بن نوح، وهم بالعدوة الشمالية من عدوتي هذا البحر الرومي الغربي ما بين جزيرة الأندلس وخليج القسطنطينية، مجاورون الروم من جانب الشرق والجلافة من جانب الغرب. وكانوا قد أخذوا بدين النصرانية مع الروم، ومنهم لقنوا دينها. واستفحل ملكهم عند تراجع ملك الروم وأجازوا البحر إلى إفريقية مع الروم فملكوها ونزلوا أمصارها العظيمة مثل سيطة وجلولا وقرطاجنة ومرناق وباغاية ولس وغيرها من الأمصار وغلبوا على كل من كان بها من البربر حتى اتبعوهم في دينهم وأعطوهم طاعة الانقياد.

ثم جاء الإسلام وكان الفتح بانتزاع الأعراب من أيديهم سائر أمصار إفريقية، والعدوة الشرقية والجزر البحرية مثل أقرطش ومالطة وصقلية وميوقرة ورجوعهم إلى عدوتهم. ثم أجازوا خليج طنجة وغلبوا القوط والجلافة والبشكنس، وملكوا جزيرة الأندلس وخرجوا من ثناياها ودورها إلى بسائط هؤلاء الإفرنجية فدحوها وعاثوا فيها. ولم تزل الصوائف تتردد إليها صداراً من دولة بني أمية بالأندلس، وكان ولاية إفريقية من الأغالية ومن قبلهم أيضاً يرددون عساكر المسلمين وأساطيلهم من العدوة حتى غلبوهم على الجزر البحرية، ونالوهم في بسائط عدوتهم فلم تزل في نفوسهم من ذلك ضغائن، فكان يجالها الطمع في ارتجاع ما غلبوا عليه منها.

وكان الربع أقرب إلى سواحل الشام وطمع فيها. فلما وصل أمر الروم بالقسطنطينية ورومة، واستفحل ملك الإفرنجية هؤلاء، وكان ذلك على هيئة سمو الخلافة بالشرق. فسموا حيثنذ إلى التغلب على معاقل الشام وثغوره، وزحفوا إليها وملكوا الكثير منهم واستولوا على المسجد الأقصى وبنوا فيه الكنيسة العظمى بدل المسجد، ونالوا مصر والقاهرة مراراً حتى جاد الله للإسلام من صلاح الدين أبي أيوب الكردي صاحب مصر والشام في أواسط المائة السادسة جنة واقية، وعذاباً على أهل الكفر مصوبياً، فأبلى في جهادهم وارتجع ما ملكوه، وطهر المسجد الأقصى من أفكهم وكفرهم، وهلك على حين غرة من الغزو والجهاد.

بطاعة مرمزة فتقبلها، وطوى لهم على الشئ. ورجع إلى تونس فأوعز إلى أبي هلال عياد عامل بجاية من مشيخة الموحدين باصطناعهم واستتلافهم لتكون وفادتهم عليه من غير عهد، وجمع السلطان أحلافه من كموب بني سليم ودباب وأفريق بني هلال، وخرج من تونس سنة ست وستين وثمانئة في عساكر الموحدين وطبقات الجند، ووافاه بنو عساكر ابن السلطان إخوة بني مسعود ابن السلطان من الدواودة فعقد لمهدي ابن عساكر عن إمارته قومه وغيرهم من رياح، وفر بنو مسعود ابن السلطان مصحرين والسلطان في أثرهم حتى نزل نقاوس وعسكروا بشايا الزاب، ورسلمهم تحتلف إلى أبي هلال ليناساً للمراجعة على يده للدخلة في الساحة، فأشار عليهم بالوفادة على السلطان وفاء بقصده من ذلك، فتقبلوا إشارته.

وفد أميرهم شبل بن موسى بن محمد بن مسعود وأخوه يحيى، وبنو عمهما أولاد زيد بن مسعود: سباع بن يحيى بن دريد وابنه، وطلحة بن ميمون بن دريد، وحداد بن مولاهم بن خنفر بن مسعود وأخوه، فتقبض عليهم لحينهم، وعلى دريد ابن تازير من شيوخ كرفة. وانتهت أسلابهم وضربت أعناقهم ونصبت أسلاؤهم بزرابا من جهات نقاوس حيث كانت بيعتهم لأبي القاسم بن أبي زيد، وبعث برؤوسهم إلى بسكرة فنصبها بها، وأخذ السير غازياً إلى أحيائهم وأحلهم بمكانها من ثاية الزاب.

وصحبهم هنالك فأجفلوا وتركوا الظهر والكراع والأبنية، فامتلات أيدي العساكر وسدويكش منها، ونجوا بالعيال والولد على الأقتاب، والعساكر في اتباعهم إلى أن أجازوا وادي شدي قبلة الزاب وهو الوادي الذي يخرج أصله من جبل راشد قبلة المغرب الأوسط ويمر إلى ناحية الشرق مجتازاً بالزاب إلى أن يصب في سبخة نفراوة من بلاد الجريد. فلما جاز فلهم الوادي أصحروا إلى المفازة المعطشة والأرض الحرة السوداء المستحجرة المسماة بالحمادة، فرجعت العساكر عنهم، وانتقلب السلطان من غزاته ظافراً، ظاهراً وأنشده الشعراء في التهتهة، ولحق قل الدواودة بملوك زناتة فنزل بنو يحيى بن دريد على يغمراسن بن زيان، وبنو محمد بن مسعود على يعقوب بن عبد الحق، فأجاروهم وأوسعوهم حياء وملؤوا أيديهم بالصلات، ومرايطهم بالخيال، وأحياءهم بالإبل ورجعوا إلى مواطنهم فتغلبوا على واركلة وقصور ريغة واقتطعوها من إيالة السلطان. ثم زحفوا إلى الزاب فجمع لهم عامله ابن عتو وكان موطناً بمقرة، ولقيهم على حدود أرض الزاب فهزموه واتبعوه إلى قطاوة فقتلوه عندها، واستطالوا على الزاب وجبل أوراس وبلاد الحصنة إلى أن اقتطعهم الدول إياها من بعد

سبعون ألفاً لا يرى منهم إلا قتيلاً أو أسيراً جريحاً
المملك اللّه إلى مثلها لعل عيسى منكم يستريح
إن كان بآبائكم بهذا راضياً فرب غش قد أتى من نصيح
فأخذوه كاهناً إنّه أنصح من شق لكم أو سطّيح
وقل لهم إن أزمعوا عودة لأخذ ثار أو لشغل قبيح
دار ابن لقمان على حالها والقيد باق والطواشي صبيح

يعني بدار ابن لقمان موضع اعتقاله بالإسكندرية والطواشي
في عرف أهل مصر هو الخصي. فلما استكمل إنشاده لم يزد ذلك
الطاغية إلا عتواً واستكباراً، واعتذر عن نقض العهد في غزو
تونس بما يسمع عنهم من المخالفات، عذراً دافعهم به، وصرف
الرسول من سائر الأفاق ليومه. فوصل رسل السلطان منزيين
بشأنهم وجمع الطاغية حشده وركب أساطيله إلى تونس آخر ذي
القعدة سنة ثمان وستين وستمائة فاجتمعوا بسردانية وقيل بصقلية.
ثم واعدهم بمرسى تونس وأقلعوا ونادى السلطان في الناس
بالنذير بالعدو والاستعداد له، النفير إلى أقرب المدائن، وبعث
الشواني لاستطلاع الخبر واستبهم أياماً.

ثم تواتت الأساطيل بمرسى قرطاجنة وتفاوض السلطان مع
أهل الشورى من الأندلس والموحدين في تخليتهم وشأنهم من
النزول بالساحل أو صدهم عنه، فأشار بعضهم بصددهم حتى تنفذ
ذخيرتهم من الزاد والماء فيضطرون إلى الإقلاع. وقال آخرون: إذا
أقلعوا من مرسى الحضرة ذات الحامية والعدد صبحوا بعض
الثغور سواها فملكوه واستباحوه، واستصعبت مغالبتهم عليه
فوافق السلطان على هذا وخلوا وشأنهم من النزول فنزلوا بساحل
قرطاجنة بعد أن ملئت سواحل رودس بالمرايطة بجند الأندلس
والمطوعة زهاء أربع آلاف فارس لنظر محمد بن الحسين رئيس
الدولة.

ولما نزل النصارى بالساحل وكانوا زهاء ستة آلاف فارس،
وثلاثين ألفاً من الرجال فيما حدثني أبي عن أبيه رحمهما الله قال:
وكانت أساطيلهم ثلاثمائة بين كبار وصغار، وكانوا سبعة يعاسب
كان فيهم الفرنسيين وإخوة جرون صاحب صقلية وصاحب
الجزر، والعلمجة زوج الطاغية تسمى الرينة، وصاحب البر الكبير،
وتسميهم العامة من أهل الأخبار ملوكاً ويعنون أنهم متباينون إذ
ظاهروا على غزو تونس وليس كذلك وإنما كان واحداً وهو
طاغية الفرنجية وإخوته وبطارقته، عد كل واحد منهم ملكاً لفضل
قوته وشدة بأسه، فأنزلوا عساكرهم في المدينة القديمة من قرطاجنة.
وكانت مائلة الجدران اضطرم المعسكر بداخلها، ووصلوا ما فصله
الخراب من أسوارها بالواح الخشب ونضدوا شرفاتها وأداروا على

ثم عاودوا الكرة ونازعوا مصر في المائة السابعة على عهد
الملك الصالح صاحب مصر والشام، وأيام الأمير أبي زكريا
بتونس، فضربوا أبنتهم بدمياط وافتحوها وتغلبوا في قرى مصر.
وهلك الملك الصالح خلال ذلك، وولي ابنه المعظم وأمكنت
المسلمين في الغزو فرصة أيام فيض النيل، ففتحوا الغياض وأزالوا
مدد الماء فأحاط بمعسكرهم وهلك منهم عالم، وقيد سلطانهم
أسيراً من المعركة إلى السلطان فاعتقله بالإسكندرية، حتى مر عليه
بعد حين من الدهر وأطلقه على أن يكتسبوا المسلمين من دمياط
فوفوا له. ثم على شرط المسألة فيما بعد فنفضه لمدة قريبة، واعتزم
على الحركة إلى تونس متجنباً عليهم فيما زعموا بمال أذعياه تجار
أرضهم، وأنهم أقرضوا اللياني فلما نكبه السلطان طالبوه بذلك
المال وهو نحو ثلثمائة دينار بغير موجب يستندون إليه، فغضبوا
لذلك واشتكوه إلى طاغيتهم فامتعض لهم ورغبوه في غزو تونس
لما كان فيها من الجماعة والموتان.

فأرسل الفرنسيين طاغية الإفرنج واسمه سنلوس بن
لويس وتلقب بلغة الإفرنج روا فرنس ومعناه ملك إفرنس،
فأرسل إلى ملوك النصارى يستفهمهم إلى غزوها، وأرسل إلى القائد
خليفة المسيح بزعمهم فأوعز إلى ملوك النصرانية مظاهرتهم، وأطلق
يده في أموال الكنائس مدداً له. وشاع خبر استعداد النصارى
للغزو في سائر بلادهم، وكان الذين أجابوه للغزو ببلاد المسلمين
من ملوك النصرانية ملك الإنكار وملك أسكوسيا وملك نزول
وملك برشلونة واسمه ريدراكون وجماعة آخرون من ملوك
الإفرنج، هكذا ذكر ابن الأثير، وأهم المسلمين بكل ثغر شأنهم
وأمر السلطان في سائر عمالاته بالاستكثار من العدة، وأرسل في
الثغور لذلك بإصلاح الأسوار واختزان الحبوب، وانقبض تجار
النصارى عن تعاهد بلاد المسلمين. وأوفد السلطان رسله إلى
الفرنسيين لاختبار حاله ومشارطته على ما يكف عزمه. وحملوا
ثمانين ألفاً من الذهب لاستتمام شروطهم فيما زعموا، فأخذ المال
من أيديهم وأخبرهم أن غزوه إلى أرضهم. فم طلبوا المال اعتل
عليهم بأنه لم يباشر قبضه ووافق شأنهم معه وصول رسول عن
مصاحب مصر، فأحضر عند الفرنسيين واستجلس فأبى.

وأنشده قائلاً من قول أبي مطروح شاعر السلطان بمصر
قل للفرنسيين إذا جئت من قتل عباد نصارى المسيح
أجرك الله على ما جرى تحسب أن الزمر بالطليل ربح
أتيت مصرأ تبغني ملكها ضاق به عن ناظريك الفسيح
فما لك الحين إلى أدهم بسوء تدبيرك بطن الفريح
وكل أصحابك أودعتهم

وبعث مشيخة الفقهاء لعقد الصلح في ربيع الأول سنة تسع وستين وستمائة فتولى عقده وكتابه القاضي ابن زيتون لخمسة عشر عاماً. وحضر أبو الحسن علي بن عمرو وأحمد بن الغماز وزيان بن محمد بن عبد القوي أمير بني توجين، واختص جرون صاحب صقلية بسلم عقده على جزيرته. وأقلع النصارى بأساطيلهم وأصابهم عاصف من الريح أشرفوا منه على العطب، وهلك الكثير منهم وأغرم السلطان الرعايا ما أعطى العدو من المال فأعطوه طواعية. يقال: إنه عشرة أحمال من المال وترك النصارى بقرطاجنة تسعين منجيقاً. وخاطب السلطان صاحب المغرب وملوك النواحي بالخبر ودفاعه عن المسلمين وما عقده من الصلح، وأمر بتخريب قرطاجنة وأن يؤتى بنيانها من القواعد، فصور أبييتها طامسة ورجع الفرنجية إلى دعوتهم فكان آخر عهدهم بالظهور والاستفحال ولم يزلوا في تناقص وضعف إلى أن افترق ملكهم عمالات. واستبد صاحب صقلية لنفسه، وكذا صاحب نابل وجنوة وسردانية، وبقي بيت ملكهم الأقدام لهذا العهد على غاية من الفشل والوهن. والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

الخبر عن مهلك رئيس الدولة أبي عبد الله بن أبي الحسين وأبي سعيد العود الرطب

أصل هذا الرجل من بني سعيد رؤساء القلعة المجاورة لغرناطة، وكان كثير منهم قد استعملوا أيام الموحدين بالعدوتين، وكان جده أبو الحسن سعيد صاحب الأشغال بالقيروان. ونشأ حافده محمد هذا في كفالته. ولما عزل وقفل إلى المغرب هلك ببونة سنة أربع وستمائة ورجع حافده محمد إلى تونس والشيخ أبو محمد بن أبي حفص صاحب إفريقية لذلك العهد فاعتلق بخدمة ابنه أبي زيدة. ولما ولي الأمر بعد وفاة أبيه غلب محمد هذا على هواه. ثم جاء السيد أبو علي من مراكش وعلى إفريقية محمد بن أبي الحسين في جلته إلى أن هلك في حصار هسكورة بمراكش كما قدمناه ورجع ابن أبي الحسين إلى تونس واتصل بالأمير أبي زكريا لأول استبداده فغلب على هواه، وكان مبعثاً في صحابة الملوك. ولما ولي المستنصر أجراه على سنته برهة. ثم تنكر له إثر كائنة اللحياني، وعظمت سعاية أعدائه من الباطنية وأشاعوا مداخلته لأبي القاسم بن غندومه أبني زيد ابن الشيخ أبي محمد فنكبه السلطان واعتقله بداره تسعة أشهر. ثم سرحه وأعادته إلى مكانه ونار من أعدائه، واستولى على أمور السلطان إلى أن هلك سنة

السور خندقاً بعيد المهوى وتحصنوا. وندم السلطان على إضاعة الحزم في تخريبها أو دفاعهم عن نزلها. وأقام ملك الفرنجية وقومه متمرسين بتونس ستة أشهر والمدد يأتيه في أساطيله في البحر من صقلية والعدوة بالرجل والأسلحة والأقوات.

وسلك بعض المسلمين طريقاً في البحيرة واتبعهم العرب فأصابوا غرة في العدو فظفروا وغنموا وشعروا بمكانهم، فكفلوا بحراسة البحيرة وبعثوا فيها الشواني بالرماة ومنعوا الطريق إليهم، وبعث السلطان في ممالكه حاشداً فوافته الأمداد من كل ناحية، ووصل أبو هلال صاحب بجاية وجاءت جموع العرب وسديكش وولصاة وهوارة حتى أمدته ملوك المغرب من زناتة، وسرح إليه محمد بن عبد القوي عسكر بني توجين لنظر ابنه زيان وأخرج السلطان ابنته، وعقد لسبعة من الموحدين على سائر الجند من المرتزة والمطوعة وهم: إسماعيل بن أبي كلداسن وعيسى بن داود ويحيى بن أبي بكر ويحيى بن صالح وأبو هلال عياد صاحب بجاية ومحمد بن عبو، وأمرهم كلهم راجع ليحيى بن صالح ويحيى بن أبي بكر منهم.

واجتمع من المسلمين عدد لا يحصى، وخرج الصلحاء والفقهاء والمرابطون لمباشرة الجهاد بأنفسهم والتزم السلطان القعود بإيوائه مع بطانته وأهل اختصاصه وهم: الشيخ أبو سعيد المعروف بالعود، وابن أبي الحسين، وقاضيه أبو القاسم بن البراء، وأخو العيش. واتصلت الحرب والتقوا في منتصف محرم سنة تسع بالمنتصف، فرحف يومئذ يحيى بن صالح وجرون فمات من الفريقين خلق، وهجموا على المعسكر بعد العشاء وتدامر المسلمون عنده، ثم غلبوا عليه بعد أن قتل من النصارى زهاء خمسمائة، فأصبحت ابنته مضروبة كما كانت. وأمر بالخنديق على المعسكر فتعاورته الأيدي، واحترق فيه الشيخ أبو سعيد بنفسه، وابتلي المسلمون بتونس، وظنوا الظنون واتهم السلطان بالتحول عن تونس إلى القيروان.

ثم إن الله أهلك عدوهم وأصبح ملك الفرنجية ميتاً يقال: حنف أنه، ويقال: أصابه سهم غرب في بعض المواقف فأبته ويقال: أصابه مرض الوباء، ويقال وهو بعيد أن السلطان بعث إليه مع ابن جرام الدلاصي بسيف مسموم وكان فيه مهلكه. ولما هلك اجتمع النصارى على ابنه دمياط سمي بذلك لميلاده بها فبايعوه، واعتزموا على الإقلاع. وكان أمرهم راجعاً إلى العلجة فراسلت المستنصر أن يبذل لها ما خسروه في مؤنة حركتهم، وترجع بقومها فأسعفها السلطان لما كان العرب اعتزموا على الإنصراف إلى مشاتهم.

إحدى وسبعين وستمائة.

بجاية بإنفاذ عسكر آخر فأنفذه لنظر أبي العباس بن أبي الأعلام، ونهضت هذه العساكر برأ وبجراً إلى أن نازلتها وأحاطت بها من كل جانب، واشتد حصارها. ثم اقتحمت عنوة واستحز بهم القتل وانتهت المنازل واقتضح الكرائم في أبقارهن. وتقبض على مشيخة البلد فنقلوا إلى تونس مصفدين، واعتقلوا بالقصبة أن سرحهم الواصل بعد مهلك السلطان.

الخبر عن مهلك السلطان المستنصر

ووصف شيء من أحواله

كان السلطان بعد فتح الجزائر قد خرج من تونس للصيد وتفقد العمالات، فأصابه في سفره مرض ورجع إلى داره، واشتدت علته وكثر الإرجاف بموته، وخرج يوم الأضحى سنة خمس وخمسين وستمائة يتهاذى بين رجلين، ورجاله لا تخطان في الأرض وجلس للناس على منبر متجلداً. ثم دخل بيته وهلك لليلة تلك رضوان الله عليه، وكان شأن هذا السلطان في ملوك آل حفص عظيماً. وشهرته طائفة الذكر بما انفسح من أمر سلطانه، ومدت إليه ثغور القاصية من العدوتين يد الاعتصام به. وما اجتمع بمحضته من أعلام الناس الوافدين على أبيه وخصوصاً الأندلس من شاعر مفلح وكاتب بليغ وعالم مخبر وملوك أورع وشجاع أهيش متفيتين ظل ملكه متناغين في اللياذ به لطموس معالم الخلافة شرقاً، وغرباً على عهده، وخفوت صوت الملك إلا في إيوانه.

فقد كان الطاغية التهم قواعد الملك بشرق الأندلس وغربها، فأخذت قرطبة سنة ثلاث وثلاثين وستمائة وبلنسية ستة ست بعدها وأشبيلية سنة ست وأربعين وستمائة، واستولى التتر على بغداد دار خلافة العرب بالمشرق وحاضرة الإسلام سنة ست وخمسين وستمائة، وانتزع بنو مرين ملك بني عبد المؤمن، واستولوا على حضرة مراكش دار خلافة الموحدين سنة ثمان وستين وستمائة، كل ذلك على عهده وعهد أبيه ودولتهم أشد ما كانت قوة وأعظم رفاهية وجباية وأوفر قبلاً وعصابة، وأكثر عساكر وجندا، فأمله أهل العلم للكرة، وأجفلوا إلى الإمساك بمحقوبه. وكان له في الأبهة والجلال أخبار، وفي الحروب والفتوح آثار مشهودة، وفي أيامه عظمت حضارة تونس، وكثر ترف ساكنها. وتأنق الناس في المراكب والملابس والمباني والماعون والآنية، فاستجادوها وتناغوا في اتخاذها وانتفاها إلى أن بلغت غايتها ثم رجعت من بعده أدراجها، والله مالك الأمور ومصرفها.

وكان ابن عمه سعيد بن يوسف بن أبي الحسن صاحب أشغال الحضرة، وكان قد اقتنى مالا جسيماً ونال من الحضرة مثلاً عظيماً. وكان الرئيس أبو عبد الله متفتناً في العلوم مجيداً في اللغة يقرض الشعر فيحسن، ويرسل فيجيد، وله من التأليف كتاب ترتيب المحكم لابن سيده على نسق الصحاح للجوهري واختصاره، وسماه الخلاصة. وكان في رئاسته صليب الرأي قوي الشكيمة عالي المهمة، شديد المراقبة والحزم في الخدمة، وله شعر نقل منه التيجاني وغيره، ومن أشهره ما نقل عنه من شعره يخاطب عنان بن جابر عن الأمير أبي زكريا لما خالف وأتبع ابن غانية، وهي على روي الراء، وكان قبلها أخرى على روي الدال. وكان له ولد اسمه سعيد وترقى في حياة أبيه في المراتب السلطانية. ثم اغتبط دون غايته وفي ثالث مهلكه كان مهلك الشيخ أبي سعيد عثمان بن محمد الهنتاتي المعروف بالعود الرطب، ويعرف أهل بيته بالمغرب ببني أبي زيد. وكان منهم عبد العزيز المعروف بصاحب الأشغال كان فر من المغرب أيام السعيد لجفوة نالته، ولحق بسجلنامه سنة إحدى وأربعين، وقد كان انتزى بها عبد الله الهرججي، وبايع للأمير أبي زكريا فأجازه عبد الله إلى تونس، ونزل على الأمير أبي زكريا ونظمه في طبقات مشيخة الموحدين وأهل مجلسه. ثم حظي عند ابنه المستنصر بعد نكبة بني النعمان حظوة لا كفاء لها. واستولى على الرأي والتدبير إلى أن هلك سنة ثلاث وسبعين وستمائة فشيح طيب الذكر ملحفاً بالرضوان من الخاصة والكافة، والله مالك الأمور.

الخبر عن انتفاض أهل الجزائر وفتحها

كان أهل الجزائر لما رأوا تقلص ظل الدولة عن زناتة وأهل المغرب الأوسط حدثوا أنفسهم بالاستبداد والقيام على أمرهم، وخلع ربة الطاعة من أعناقهم فجاهروا بالخلعان. وسرح السلطان إليهم العساكر سنة تسع وستين وستمائة وأوعز إلى صاحب ثغر بجاية وهو أبو هلال عياد بن سعيد الهنتاتي فقدم إليها في عساكر الموحدين سنة إحدى وسبعين وستمائة ونازلها مدة حول، وامتنعت عليه فأقلع عنها ورجع إلى بجاية، وهلك بمعسكر بني ورا سنة ثلاث وسبعين وستمائة.

ثم إن السلطان صرف عزمه إلى منازلهم سنة أربع وسبعين وستمائة وسرح إليهم العساكر في البر وأنفذ الأساطيل في البحر وعقد على عسكر تونس لأبي الحسن بن ياسين وأوعز إلى عامل

وبعث أخاه أبا العلاء والياً على بجاية، وأسف المشيخة والبطانة بعثوه واستبدادهم وما يتجشمون من مكابرة بابه إلى أن عاد وibal ذلك على الدولة كما نذكره.

الخبر عن إجازة السلطان أبي إسحاق من الأندلس ودخول أهل بجاية في طاعته

كان السلطان المستنصر قد عقد على بجاية سنة ستين وستمئة لأبي هلال عياد بن سعيد الهتاتى، وأدال به من أخيه الأمير أبي حفص، فأقام والياً عليها إلى أن هلك ببني ورا سنة ثلاث وسبعين وستمئة كما قدمنا وعقد عليها من بعده لابنه محمد، وكان له غناء في ولايته واضطلع بأمره إلى أن هلك المستنصر وولي ابنه الواثق، فبادر إلى انقياد طاعته، وبعث وفد بجاية يبيعهم. ثم قلد أبو الحسن الحبيبر القائم بالدولة أخاه إدريس ولاية الأشغال ببجاية، فقام بها وأفنى الأموال وتحكم في المشيخة. وأنف محمد بن أبي هلال من استبداده عليه فهم إدريس بنكبته، فخشي محمد بن أبي هلال بادرته وداخل بعض بطانته في قتله. وفأوض المألف فيه فعدوا عليه لأول ذي القعدة سنة سبع وسبعين وستمئة بمقعده من باب السلطان فقتلوه ورموا برأسه إلى الغوغاء والزعانف فعبثوا به.

ووافق ذلك حلول السلطان أبي إسحاق بتلمسان، وكان عند بلوغ الخبر إليه بمهلك أخيه المستنصر أجمع أمره على الإجازة لطلب حقه بعدما تردد برهة. ثم اعترم وعاد إلى تلمسان، ونزل على يغمراسن بن زيان فقام لمورده، واحتفل في مبرته، وفعل أهل بجاية وابن أبي هلال فعلتهم وخشوا بواد السلطان بالحضرة فخطب السلطان أبا إسحاق وأتوه يبيعهم، وبعثوا وفدهم يستحثونه للملك، فأجابهم ودخل إليها آخر ذي القعدة من سنته، فبايعه الموحدون والملا من أهل بجاية. وقام بأمره محمد بن هلال. ثم زحف في عساكره إلى قسطنطينة فأنزلها، وبها عبد العزيز بن عيسى بن داود، فامتعت عليه فأقلع عنها إلى أن كان من أمره ما نذكره.

الخبر عن بيعة الواثق يحيى بن المستنصر وهو المشهور بالمخلوع وذكر أحواله

لما هلك السلطان المستنصر سنة خمس وسبعين وستمئة كما قدمناه، اجتمع الموحدون وسائر الناس على طبقاتهم إلى ابنه يحيى، فبايعوه ليلة مهلك أبيه، وفي غدها وتلقب الواثق. وافتتح أمره برفع المظالم وتسريح أهل السجون وإفاضة العطاء في الجند وأهل الديوان، وإصلاح المساجد، وإزالة كثير من الوظائف عن الناس. وامتدحه الشعراء فأسنى جوائزهم، وأطلق عيسى بن داود من اعتقاله وردده إلى حاله. وكان المتولي لأخذ البيعة عن الناس والقائم بأمره سعيد بن يوسف بن أبي الحسين لمكانه من الدولة ورسوخه في الشهرة، فقام بالأمر ولم يزل على ذلك إلى أن نكبه وأدال منه بالحبيبر.

الخبر عن نكبة ابن أبي الحسين واستبداد ابن الحبيبر على الدولة

هذا الرجل اسمه يحيى بن عبد الملك الغافقي وكنيته أير الحسن أندلسياً من أعمال مرسية، وقد مع الجالية من شرق الأندلس أيام استيلاء العدو، وكان يحسن الكتابة ولم يكن له من الخلال سواها، فصرف في الأعمال، ثم ارتقى إلى خدمة ابن أبي الحسين فاستكتبه، ثم رقاها إلى ولاية الديوان فعظمت حاله، وكانت له أثناء ذلك مداخلة للواثق ابن السلطان، واعتدها له سابقة. فلما استوثق الأمر رفع منزلته واختصه بالشورى، وقلده كتاب علامته. وكان سعيد بن أبي الحسين مزاحماً له منافساً لما كان أسف من تقديره. فأغرى به السلطان ورغبه في ماله فتقبض على أبي سعيد بن أبي الحسين لسته أشهر من الدولة سنة ست وسبعين وستمئة واعتقل بالقصبة. وتقبض على نقله ابن ياسين وابن صياد الرجالة وغيرهم. وقدم على الأشغال مدافعاً في الموالي العلوجين. ووكل أبا زيد بن أبي الأعلام من الموحدنين بمصادرة ابن أبي الحسين على المال وامتحانه.

ولم يزل يستخرج منه حتى ادعى الإملاق واستحلف فحلف. ثم ضرب فداعى مؤتمناً من ماله عند قوم استكشفوا عنه فادوه. ثم دل بعض مواليه على ذخيرة بداره فدنية فاستخرج منها زهاء ستمائة ألف من الدنانير، فلم يقبل بعدها مقال، وبسط عليه العذاب إلى أن هلك في ذي الحجة من سنته، ودفن شلوه بحيث لم يعرف مدفنه. واستبد أبو الحسن الحبيبر على الدولة والسلطان،

الخبر عن خروج الأمير أبي حفص بالعساكر للقاء السلطان أبي إسحاق ثم دخوله في طاعته وخلع الوائق

على الزاب، ولأخيه عبد الواحد على بلاد قسطنطينية. ثم قبض على أبي الخبر وأمر باعتقاله ودفعه إلى موسى بن محمد بن ياسين للمصادرة والامتحان. ووجد مكان التماسم عليه طوابع وطلسمات مختلفة الأشكال والصور، يسحر بها فيما زعموا مخدومه فحاق به وبأهله. وكان شأنه في الامتحان والاستحلاف والهلاك بالعذاب شأن سعيد بن أبي الحسين منكوبه أيام دولته، إلى أن هلك في شهر جمادى الأولى من سنته، والله لا يظلم مثقال ذرة.

ولما اقتعد السلطان أبو إسحاق كرسي ملكه، واستوثق عرى خلافته، قبض على محمد بن أبي هلال وقتله بجر نكبته سنة ست وسبعين وستمائة، لما كان يتوقع منه من المكروه في الدولة وما عرف به من المساعي في الفتنة.

الخبر عن مقتل الوائق وولده

لما اغلغ الوائق عن الأمر وتحول إلى دار الأقوري فأقام بها أياماً. وكان له ثلاثة من الولد أصاغر: الفضل والطاهر، والطيب، فكانوا معه. ثم نجي عنه للسلطان أبي إسحاق أنه يروم الثورة وأنه داخل في ذلك بعض رؤساء النصارى من الجند، فأقلق السلطان مكان ترشيحه واعتقله بمكان اعتقال بنيه، وهو من القصبة أيام أخيه المستنصر. ثم بعث إليهم ليلتهم فذبحوا جميعاً في شهر صفر سنة سبع وسبعين وستمائة واستوثق له الأمر وأطلق من عنان الإمارة لولده إلى أن كان من شأنهم ما يذكر.

الخبر عن ولاية الأمير أبي فارس ابن السلطان أبي إسحاق على بجاية بعهد أبيه والسبب في ذلك

كان للسلطان أبي إسحاق من الأبناء خمسة: أبو فارس وعبد العزيز وكان أكبرهم، وأبو محمد عبد الواحد، وأبو زكريا يحيى، وخالد، وعمر، وكان السلطان المستنصر قد حبسهم عند فرار أبيهم إلى رباح في أيامه ببعض حجر القصر، وأجسرى عليهم رزقاً فنشؤوا في ظل كفالتهم وجيم رزقه، إلى أن استولى أبوهم السلطان أبو إسحاق على الملك فطلعوا بأفاقه. وطالت فروعهم في دوحه، واشتملوا على العز واصطنعوا أهل السوابق من الرجال، وأرخى السلطان لهم ظلهم في ذلك. وكان الجلي فيها كبيرهم أبو فارس لما كان مرشحاً لولاية العهد، وكان ممن اصطنعه وألقى عليه

لما بلغ الخبر إلى الوائق ووزيره المستبد عليه ابن الخبر بدخول السلطان أبي إسحاق بجاية، سرح العساكر إلى حربه، وعقد عليها لعمه أبي حفص. واستوزر له أبا زيد بن جامع، فخرج من تونس واضطرب معسكره بجاية. وعقد الوائق على قسطنطينية لعبد العزيز بن عيسى بن داود لزمة صهر كانت له من ابن الخبر، فتقدم إلى قسطنطينية، ومنع عنها الأمير أبا إسحاق كما ذكرناه. ثم اضطرب رأي ابن الخبر في خروج الأمير أبي حفص، وأراد انفضاض عسكره فكتب الوائق إلى أبي حفص ووزيره ابن جامع يغري كل واحد منهما بصاحبه، فتفاوضا واتفقا على الدعاء للأمير أبي إسحاق، وبعثوا إليه بذلك. واتصل الخبر بالواائق وهو بتونس متبذراً عن الحامية والبطانة. فاستيقن ذهاب ملكه، وأشهد الملاء، واغلق عن الأمر لعمه السلطان أبي إسحاق غرة ربيع الأول من سنة ثمان وسبعين وستمائة وتحول عن قصور الملك بالقصبة إلى دار الأقوري وانقرضت دولته وأمره، والبقاء لله وحده.

الخبر عن استيلاء السلطان أبي إسحاق على الحضرة

لما بلغ السلطان أبا إسحاق كتاب أخيه الأمير أبي حفص وابن جامع من بجاية، بادر مغدلاً إليهم. ثم وافاه خبر اغتلاص الوائق ابن أخيه بتونس، فارتحلوا جميعاً وسائر أهل الحضرة على طبقاتهم إلى لقاءه، وآتوه طاعتهم ودخل الحضرة منتصف الحجة آخر سنة ثمان وسبعين وستمائة ومحمد بن هلال شيخ دولته. وعقد على حجابته لأبي القاسم بن الشيخ كاتب أبي الحسين، وعلى خطة الأشغال لابن أبي الحسن ابن خلدون. كان وقد مع أبيه الحسن على الأمير أبي زكريا من شبيلية لزمة رعاها لهم، لما كانت أم ولده أم الخلافت من هدايا ابن المحتسب أبي زكريا محلهم.

ورحل الحسن إلى المشرق ومات هنالك، وبقي ابنه أبو بكر بالحضرة فاستعمله الأمير أبو إسحاق لأول دخوله في خطة الأشغال، ولم يكن يليها إلا الموحدون كما قلناه. وعقد لفضل بن علي بن مزني على الزاب، ولم يكن أيضاً يليها إلا الموحدون. لكن رعى لفضل بن مزني ذمة اغترابه معه إلى الأندلس، فعقد له

ولم يزل أميراً بها إلى آخر دولته.

الخبر عن ثورة ابن الوزير بقسطنطينية ومقتله

اسم هذا الرجل أبو بكر بن موسى بن عيسى، ونسبته في كومية من بيوت الموحدين. كان مستخدماً لابن كلداسن الوالي بقسطنطينية بعد ابن النعمان من مشيخة الموحدين أيام المستنصر. ووفد ابن كلداسن على الحضرة، وأقام ابن وزير نائباً عنه بقسطنطينية، فكان له غنى وصرامة. وولاه السلطان أبو إسحاق حافظاً على قسطنطينية. واتصلت ولايته وهلك المستنصر واضطربت الأحوال. ثم ولاه الوائق، ثم السلطان أبو إسحاق وكان ابن وزير هذا طموحاً لأموال الناس لا يعمل. وعلم أن قسطنطينية معقل ذلك القطر وحصنه فحدثه نفسه بالامتناع بها، والاستبداد على الدولة. وساء أثره في أهلها فرفعوا أمرهم إلى السلطان أبي إسحاق، واستعدوه فلم يعدهم لما رأى من تخايل اغرافه عن الطاعة. وكتب هو بالاعتذار والتكبر لما جاء به، فتقبله وأغضى له عن هنائه. ولما مر به الأمير أبو فارس إلى محل إمارته من بجاية سنة تسع وسبعين وستمائة قعد عن لقائه وأوفد إليه جمعاً من الصلحاء بالعاذير والاستعطاف، فمنحه من ذلك كفاء مرضاته، حتى إذا أبعد الأمير أبو فارس إلى بجاية، اعتزم على الانتزاء. وكاتب ملك أرغون في جيش من النصاري يكون معهم في ثغره يردد بهم الغزو على أن يكون فيما زعموا داعية له فأجابه ووعده ببعث الأسطول إليه، فجاهر بالخلعان، وانتزى بثغر قسطنطينية داعياً لنفسه آخر سنة ثمانين وستمائة.

وزحف إليه الأمير أبو فارس من بجاية في عساكره، واحتشد الأعراب وفرسان القبائل إلى أن احتل بميلة. ووفد عليه مشيخة من أهل قسطنطينية بمكر من الرغبة والتوسل بعثهم ابن وزير فأعرض عنهم، وقصد قسطنطينية في أول ربيع سنة إحدى وثمانين وستمائة فلما زلزلهم جمع الأيدي على حصارها. ونصب المجانيق وقرب قواعد الرماة، وقتلها يوماً أو بعض يوم، وتسور عليهم المعقل من بعض جهاته. وكان المتولي لتسوره صاحبه محمد ابن أبي بكر بن خلدون، وأبلى بن وزير عند الصدمة حتى أحيط به، وقتل هو وأخوه وأشياعهما، ونصبت رؤوسهم بسور البلد. وغمى الأمير في سكك البلد مسكناً ومؤنساً، وأمر برم ما تلتزم من الأسوار وبإصلاح القناطر. ودخل إلى القصر وبعث بالفتح إلى أبيه بالحضرة. وجاء أسطول النصاري إلى مرسى القل في مواعدة ابن

رداء محبته في الناس وعنايته أحمد بن أبي بكر بن سيد الناس البعمري، وأخوه أبو الحسين لسابقة رعاها لهما، وذلك أن أباهما أبا بكر بن سيد الناس، كان من بيوت أشييلية حافظاً للحديث راوية له، ظاهرياً في فقهه على مذهب داود وأصحابه. وكانت لأهل أشييلية خصوصاً من بين الأندلس وصلة بالأمير أبي زكريا بن عبد الواحد بن أبي حفص وبينه، منذ ولايته غرب الأندلس.

فلما تكالب الطاغية على الدولة والتهم ثغورها واكتسح بسانطها، وأشرف إلى قواعدها وأمصارها، أجاز الأعلام وأهل البيوت إلى أرض المغربين وإفريقية. وكان قصدهم إلى تونس أكثر لاستفحال الدولة الحفصية بها. فلما رأى الحافظ أبو بكر اختلال أحوال الأندلس وقبح مصايرها، وخفة ساكنها، أجمع الرحلة عنها إلى ما كان بتونس من سابقته عند هؤلاء الخلفاء. فأجاز البحر ونزل بتونس فلقاه السلطان تكرمة، وجعل إليه تدريس العلم بالمدرسة عند حمام الهوا التي أسستها أمه أم الخلائف.

ونشأ بنوه أحمد وأبو الحسين في جو الدولة وحجر كفالتهما للاختصاص الذي كان لأبيهم بها. وعدلوا عن طلب العلم إلى طلب الدنيا، وتشوفوا إلى مراتب السلطان، واتصلوا بأبناء السلطان أبي إسحاق بمكانهم من حجر القصر حيث أنزلهم معهم بعد ذهاب أبيهم، فخالطوهم واستخدموا لهم. ولما استولى السلطان على الأمر ورشح ابنه أبا فارس للعهد، وأجراه على سنن الوزارة فاصطنع أحمد بن سيد الناس، ونوه باسمه وخلع عليه لبوس كرامته. واختصه بلقب حجابته، وأخوه أبو الحسين يناهضه في ذلك عنده. ونفس ذلك عليهما البطانة فأغروا السلطان أبا إسحاق بابنه وخوفوه شأنه. وأن أحمد بن سيد الناس داخله في التوثب بالدولة. وتولى كبر هذه السعاية عبد الوهاب بن قائد الكلاعي من عليّة الكتاب وجوهمهم. كان يكتب للعامّة يومئذ، فسطا السلطان بابن سيد الناس سنة تسع وستين وستمائة آخر ربيع، استدعى إلى باب القصر فتعاورته السيوف هرباً. ووري شلوه ببعض الحفر. وبلغ الخبر إلى الأمير أبي فارس فركب إلى أبيه في لبوس الحزن، فعزاه أبوه عن ذلك بأنه ظهر لابن سيد الناس على المكر والخديعة بالدولة. وأماط سواده بيده، ونجا أبو الحسين من هذه المهلكة. واعتقل في لمة من رجال الأمير أبي فارس وبطانته بعد أن توارى أياماً إلى أن أطلق من محبسه، وكان من أمره ما نذكره بعد. واستبغ السلطان في تأنيس ابنه، ومسح الضغينة عن صدره، فعقد له على بجاية وأعمالها، وأنفذ إليها أميراً مستقلاً. وأنفذ معه في رسم الحجابة جدي محمد ابن صاحب أشغاله أبي بكر بن الحسن بن خلدون، فخرج إليها سنة تسع وستين وستمائة وقام بأمرها،

الخبر عن ظهور الدعي ابن أبي عمارة وما وقع من الغريب في أمره

كان أحمد بن مرزوق أبو عمارة من بيوتات بجاية الطارئين عليهما من المسيلة، نشأ ببجاية وسمياً محترفاً بصناعة الخياطة غراً غمراً. وكان يحدث نفسه بالملك لما كان يزعم أن العارفين يخبرونه بذلك. وكان هو يخط فيريه خطه ذلك. ثم اغترب عن بلده ولحق بصحراء سجلماسة واختلط بعرب المعقل وانتمى إلى أهل البيت، وادعى أنه الفاطمي المنتظر عند الأغمار، وأنه يحيل المعادن إلى الذهب بالصناعة، فاشتملوا عليه وحدثوا بشانه أياماً.

أخبرني طلحة بن مظفر من شيوخ العمارة إحدى بطون المعقل أنه رآه أيام ظهوره بالمعقل ملتبساً بتلك الدعوى حتى فضحه العجز. ثم لما زهدوا فيه لعجز مدعاه ذهب يتقلب في الأرض حتى وصل إلى جهات طرابلس، ونزل على دباب وصحب منهم الفتى نصيراً مولى الوائق بن المستنصر، ولبق بى، ولما رآه تبين فيه شهباً من الفضل ابن مولاه ففطن يكي ويقل قديمه، فقال له ابن أبي عمارة: ما شأنك؟ فقص عليه الخبر، فقال: صدقتي في هذه الدعوى وأنا أثرك من قاتلهم.

وأقبل نصير على أمراء العرب منادياً بالسرور بابن مولاه، حتى خيل عليهم. ثم لبس بما دس إلى ابن أبي عمارة من محاورات وقعت بين العرب وبين الوائق، قصها عليهم ابن أبي عمارة نقياً للريب بأمرة، فصدقوا واطمانوا، وأتوه بيعتهم. وقام بأمرة مرعم بن صابر بن عسكر أمير دباب وجمع له العرب ونزلوا طرابلس، وبها يومئذ محمد بن عيسى الهنتاتي ويُسهر بعنق الفضة، فامتنت عليهم، ورحلوا إلى بحر بين الوطنين بزوزور وجهاتها من هواراة فأوقعوا بهم. ثم سار في تلك النواحي واستوفى جباية ولماية وزواورة وزواغة، وأغرم نفوسة وغريان ونفزة من بطون هواراة وضائع الزمهم إياها واستوفاهما. ثم زحف إلى قايس فبايع له عبد الملك بن مكي في رجب سنة إحدى وثمانين وستمئة وأعطاه صفقته طواعية، وفاه بحق آبائه فيما طوقه وذريعة إلى الاستقلال الذي كان يؤمله، وأعلن بخلافته ونادى بقومه واستخدم له بني كعب بن سليم ورناستهم في بني شيخة لعبد الرحمن بن شيخة، فاجابوا داعيه وأنابوا إلى خدمته، وتوافت إليه بيعة أهل جربة والحامة وقرى نفزاوة. ثم زحف إلى توزر وبلاد قسيلية فاطاعوه. ثم رجع إلى قصبة فبايع له أهلها، وعظم أمره وعلا صيته. فجهز إليه السلطان أبو إسحاق العساكر من تونس كما نذكره.

وزير، فأخفق مسعاهم، وارتحل الأمير أبو فارس ثالثة الفتح إلى بجاية، فدخلها آخر ربيع من سنته.

الخبر عن قيادة أبناء السلطان العساكر إلى الجهاد

كان السلطان يؤثر أبناءه بمراتب ملكه، ويوليهم خطط سلطانه شغفاً بهم وترشيقاً لهم، فعقد في رجب سنة إحدى وثمانين لابنه الأمير زكريا على عسكر من الموحدين والجند، وبعثه إلى قصبة للإشراف على جهاتها. وضم جبايتها فخرج إليها وقضى شأنه من حركته، وانصرف إلى تونس في رمضان من سنته. ثم عقد لابنه الآخر أبي محمد عبد الواحد على عسكره، وأنفذه إلى وطن هواراة لانقضاء مغارمهم وجباية ضرائهم وفرائضهم، وبعث معه عبد الوهاب بن قائد الكلاعي مباشراً لذلك وواسطة بينه وبين الناس، فأنتهى إلى القيروان، وبلغه شأن الدعي وظهوره في دباب بنواحي طرابلس، فطير بالخبر إلى السلطان وأقبل على شأنه. ثم انتشر أمر الدعي وانكفا راجعاً إلى تونس.

الخبر عن صهر السلطان مع عثمان بن يغمراسن

كان السلطان لما أجاز البحر من الأندلس لطلب ملكه، ونزل على يغمراسن بن زيان بتلمسان، فاحتفل لقدمه وأركب الناس للقاءه، وأتاه ببيعته على عادته من سلفه لما علم أنه أحق بالأمرة، ووعده النصرة من عدوه والموازرة على أمره، وأصهر إليه في إحدى بناته المقصورات في خيام الخلافة بابنه عثمان تشريفاً خطبه منه، فأولاه إسعافاً به. ولما استولى السلطان على حضرته واستبد بأحوال ملكه بعث يغمراسن ابنه إبراهيم المكنى بأبي عامر في وفد من قومه لإتمام ذلك العقد، فاعتمد السلطان مبرتهم وأسعف طلبتهم، وأقاموا بالحضرة أياماً، وظهر من إقدامهم في فتن الدعي مقامات، وانصرفوا بظيعتهم سنة إحدى وثمانين وستمئة مجبورين محبورين. وابتنى بها عثمان لحين وصورها فكانت من عقال قصورهم ومفاخر دولتهم، وذكرأ لهم ولقومهم إلى آخر الأيام.

على مال امتحنه عليه. ثم قتله خنقاً، وصرف خطة الجباية إلى عبد الملك بن مكى رثي قابس. واستكمل القاب الملك، وقسم الخطط بين رجال الدولة، وصرف همه إلى غزو بجاية.

الخبر عن استبداد الأمير أبي فارس بالأمر عند وصول أبيه إليه

لما وصل السلطان أبو إسحاق إلى بجاية في شهر ذي القعدة من سنة طريداً عن ملكه غافلاً عن كرسي سلطانه، انتقض عليه ابنه الأمير أبو فارس ومنعه من الدخول إلى قصره، فنزل بروض الرفيع، وأراد على الخلع فانخلع له. وأشهد الملا من الموحيدين ومشيخة بجاية بذلك، وأنزله قصر الكوكب ودعا الناس إلى بيعته آخر ذي القعدة، فبايعوه وتلقب المعتمد على الله. ونادى في أوليائه من رياح وسدوكش. وخرج من بجاية زاحفاً إلى الدعي، واستخلف عليها أخاه الأمير أبا زكريا. وخرج معه عمه الأمير أبو حفص وإخوته، فكان من أمرهم ما نذكر.

الخبر عن زحف الأمير أبي فارس للقضاء الدعي ثم انهزامه أمامه واستلحامه وإخوته في المعركة وما كان أثر ذلك من مهلك أبيهم السلطان أبي إسحاق وفرار أخيه الأمير أبي زكريا إلى تلمسان

لما بلغ الخبر إلى الدعي باستبداد الأمير أبي فارس على أبيه واستعداده للقائه، تقبض على أهل البيت الحفصي، فاعتقلهم بعد أن هم بقتلهم. وخرج من تونس في عساكر من الموحيدين وطبقات الجند في صفر سنة اثنتين وثمانين وستمائة فأنتهى إلى مرماجنة، وتراعى الجمعان ثالث ربيع الأول فاقتلوا عامة يومهم. ثم اختل مصاف الأمير أبي فارس، وتخاذل أنصاره فقتل في المعركة، واتهب معسكره وقتل إخوته جميعاً صبراً: عبد الواحد قتله الدعي بيده، وعمر وخالد وأبو محمد بن عبد الواحد وبعث برؤوسهم إلى تونس فطيف بها الرماح ونصبت بأسوار البلد. وتخلص عمه الأمير أبو حفص من الواقعة إلى أن كان من أمره ما نذكر.

ويلغ خبر الواقعة إلى بجاية فاضطرب أهلها ومجا بعضهم في بعض، وجمعهم قاضيهام أبو محمد عبد المنعم بن عتيق الجزائري للحديث في الشأن فتكالبوا، وزجرهم ابنه فقتلوا.

الخبر عن انفضاض عساكر السلطان وتقويضه عن تونس

لما تفاقم أمر الدعي بنواحي طرابلس، ودخل الكثير من أهل الأنصار في طاعته، جهز السلطان عساكره وعقد لابنه الأمير أبي زكريا على حربه، فخرج من تونس ونزل القيروان، واقتضى منها غنائم ووضائع استأثر منها بأموال. ثم ارتحل إلى لقاء الدعي وانتهى إلى تمودة، وبلغه هنالك ما كان من استيلاء الدعي على قفصة فأرجف به العسكر وانفضوا من حوله، ورجع إلى تونس فدخلها آخر يوم من رمضان من سنته، وارتحل الدعي على أثره من قفصة واحتل بالقيروان، فبايع له أهلها واقتدى به أهل المهدية وصفانس وسوسة فبايعوا له، وكثر الإرجاف بتونس، فاضطرب السلطان وأخرج معسكره بظاهر البلد في وسط شوال. وضرب الغزو على الناس واستكثر من العدد، وخرج إلى معسكره بالمهدية وتلوم بها لإزاحة العلل. وارتحل الدعي من القيروان زاحفاً إليه فتسربت إليه طبقات الجنود ومشيخة الموحيدين، رضي بمكانه وصاغية إلى بني المستنصر خليفتهم الطويل أمد الولاية عليهم، ورحمة لما نال الوائق وأبناءه من عملهم ثم انفض عن السلطان كبير الدولة موسى بن ياسين في معظم الموحيدين، ولحق الدعي بطريقه، فاختلف أمر السلطان وانتقضت على ملكه، وفر إلى بجاية كما نذكره.

الخبر عن لحاق السلطان أبي إسحاق ببجاية ودخول الدعي بن أبي عمارة إلى تونس وما كان من أمره بها

لما انفض معسكر السلطان أبي إسحاق آخر شوال من سنة إحدى وثمانين وستمائة ركب في خاصته وبعض جنوده ذاهباً إلى بجاية، ومر بتونس فوقف عندها ثم احتمل أهله وولده وسار في كلب البرد، فكان يعاني من قلة الأقوات وتعاور المطر والثلج شدة. وكان يصانع القبائل في طريقه لبذل ماله. ثم مر بقسطنطينية فمنعه عاملها عبد الله بن يوقيان الهرغي من دخولها وقرب إليه بعض القرى من الأقوات، وارتحل إلى بجاية وكان أمره ما يذكر. ودخل الدعي بن أبي عمارة إلى الحضرة، وقلد موسى بن ياسين وزارته، وأبا القاسم أحمد بن الشيخ حجابته، وتقبض على صاحب الأشغال أبي بكر بن الحسن بن خلدون فاستصفاه وصاده

الخبر عن خروج الدعي ورجوعه واستيلاء السلطان أبي حفص على ملكه وغلبه ومهلكه

لما ظهر السلطان أبو حفص وبايعه العرب تسامع به أهل الحضرة واجتمع إليه الناس وأوقع الدعي بأهل الدولة فمقتوه، وخرج من تونس يريد قتاله فأرجف به أهل العسكر ورجع منهزماً، ودخلت البلاد في طاعة السلطان أبي حفص ونهض إلى تونس فنزل بسحوم قريباً منها. وعسكر الدعي بظاهر البلد تجاهه وطالت بينهما الحرب أياماً والناس في كل يوم يستوضحون خبء الدعي ومكره إلى أن تبرؤوا منه وأسلموه، ورحل من مكان معسكره ولاذ بالاختفاء، ودخل السلطان البلد في ربيع الآخر سنة ثلاث وثمانين وستمئة واستولى على سرير ملكه، وطهرة من الدنس قاصيه ودانيه، واختفى الدعي بتونس وغاص في لجة ساكنيتها وأحاط به البحث فعثر عليه لليال من مدخل السلطان بدور بعض السوق يعرف بأبي قاسم القرمادي فهدمت لحينها. وثل إلى السلطان فأحضر له الملا، ووجهه وساءله فاعترف بأدعائه في نسهم فأمر بامتحانه وقتله. وذهب في غير سبيل مرحة، وطيف بشلوه ونصب رأسه. وكان عبد الله بن بغمور المباشر لقتله، وكان خبره من المثلاث. واستبد السلطان بملكه وتلقب المستنصر بالله، وبادر الناس إلى الدخول في طاعته. وبعث أهل القاصية ببيعتهم من طرابلس وتلمسان وما بينهما وعقد للشيخ أبي عبد الله الفازاني على عساكره وعلى الحروب والضاحية، وأقطع البلاد والمغارم للعرب رعيًا لذمة قيامهم بأمره، ولم يكن لهم قبلها أقطاع، وكان الخلفاء قبله يتحامون عن ذلك ولا يفتحون فيه على أنفسهم باباً، وأقام متملياً ملكه وأدعاً في حضرته إلى أن كان ما نذكر.

الخبر عن استيلاء العدو على جزيرة جربة وميورقة ومنازلته المهديّة وأجلاجه على السواحل

كان من أعظم الحوادث، تكالب العدو في أيام هذا السلطان على الجزر البحرية، فاستولت أساطيلهم على جزيرة جربة في رجب من سنة ثلاث وثمانين وستمئة ورئاستها يومئذ من محمد بن سمون بن شيخ الوهبة. ويخلف ابن أمغار شيخ النكازة وهما فرقنا الخوارج. وزحف إليها المراكيا صاحب صقلية نائباً عن

ثم أشخصوا القاضي إلى بلده في البحر وخسرج السلطان أبو إسحاق وابنه الأمير أبو زكريا إلى تلمسان، فقدم أهل بجاية عليهم محمد بن السيد قائماً فيهم بطاعة الدعي، وخرج في أتباع السلطان فأدركه بجبل بني غبرين من زواوة، فتقبض عليه، ونجا الأمير أبو زكريا إلى تلمسان، وبقي السلطان أبو إسحاق ببجاية معتقلاً ريثما بلغ الخبر إلى تونس، وأرسل الدعي محمد بن عيسى بن داود فقتله آخر ربيع الأول سنة اثنتين وثمانين وستمئة وانقضى أمره والله عاقبة الأمور.

الخبر عن ظهور الأمير أبي حفص وبيعه وما كان على أثر ذلك من الأحداث

قد ذكرنا أن الأمير أبا حفص حضر واقعة بني أخيه مع الدعي بمراجنة، فخلص من المعركة راجلاً، ونجا إلى قلعة سنان معقل هواره القريب من مكان الملمحة، ولاذ به في ذهابه إلى منجاته ثلاثة من صنائعهم: أبو الحسين بن أبي بكر بن سيد الناس، ومحمد بن القاسم بن إدريس الفازاني، ومحمد بن أبي بكر بن خلدون، وهو جد المؤلف الأقرب. وربما كانوا يتناقلونه على ظهورهم إذا أصابه الكلال. ولما نجا إلى قلعة سنان تحدث به الناس وشاع خبر منجاته إليها.

وكان الدعي قد أسف العرب وثقلت وطأته عليهم بما كان يسيء الملكة فيهم، فليوم دخوله شكاً إليه الناس عيئهم فتقبض على ثلاثة منهم وقتلهم وصلبهم. ثم سرح شيخ الموحدين عبد الحق بن تافراكين لحسم عليلهم وأوعز إليه بالإنحان فيهم. فاستلحم من لقي منهم. ثم تقبض على مشايخ بني علاق وأودع سجنونه منهم نحواً من الثمانين، فساء أثره فيهم وتطلبوا أعياص البيت، وتسامعوا بخبر الأمير أبي حفص بمكانه من قلعة سنان، فرحلوا إليه وأتوه ببيعتهم في ربيع سنة ثلاث وثمانين وستمئة وجعلوا له شيئاً من الآلة والأخية، وقام بأمره أبو ليل بن أحمد أميرهم. وبلغ الخبر إلى الدعي فداخلته الظنة في أهل دولته. وتقبض على أبي عمران بن ياسين شيخ دولته، وعلى أبي الحسن بن ياسين وابن وانودين، وعلى الحسين بن عبد الرحمن يعسوب زناتة فامتنحهم واستصفى أموالهم. ثم قتلهم آخراً وتوجع لهم الناس واضطرب أمر الدعي إلى أن كان ما نذكره.

الفدريك بن الريد اكرن ملك برشلونة في أساطيله البحرية وكانوا فيما قبل سبعين أسطولاً من غريان وشواني، وضايقهم مراراً. ثم تغلبوا عليها فانتهبوا أموالها وحملوا أهلها أسراً وسيباً. ف قيل: إنهم بلغوا ثمانية آلاف بعد أن رموا بالرضع في الجيوب، فكانت هذه الواقعة من أشجى الوقائع للمسلمين. ثم بنوا بساحلها حصناً واعتمروه وشحنوه حاميةً وسلاحاً. وفرض عليهم المغرم مائة ألف دينار كل سنة، وأقاموا على ذلك وهلك المراكبا إلى رأس المائة. وبقيت الجزيرة في ملك النصارى إلى أن أعادوها الله في أواخر الأربعين والسبعائة كما نذكر.

وفي سنة خمس وثمانين وستمائة ظفر العدو بجزيرة ميورقة، ركب إليها طاغية برشلونة في أساطيله في عشرين ألفاً من الرجال المقاتلة ومروا بميورقة كأنهم سفر من التجار وطلبوا من أبي عمر بن حكم ورئيسها النزول للاستسقاء فأذن لهم. فلما تساحلوا آذنوا أهلها بالحرب فتزاحوا ثلاثاً وثلاثين فيهم المسلمون في كلها قتلاً وجراحة بما يناهز الآلاف، والطاغية في بطارقه قاعد عن الزحف، فلما كان اليوم الثالث واستولت الهزيمة على قومه زحف الطاغية في العسكر فانهزم المسلمون، ولجؤوا إلى قلعتهم فامحصروا بكعابها، وعقدوا لابن حكم ذمة في أهده وحاشيته، فخرجوا إلى سبتة ونزل الباقون على حكم العدو، وسار إلى ميورقة واستولى على ما فيها من الذخيرة والعدة والأمر بيد الله.

وفي سنة ست وثمانين وستمائة بعدها غدر النصارى بمرسى الخرز فاقتموها بعد أن ثلموا أسوارها واكتسحوا ما فيها، واحتلموا أهلها أسرى وأضرموها بيوتها ناراً. ثم مروا بمرسى تونس وانصرفوا إلى بلادهم. وفيها أو في سنة تسع وثمانين وستمائة بعدها نازل أسطول العدو مدينة المهديّة، وكان فيها الفرسان لقتالها فزحفوا إليها ثلاثاً ظفر بهم المسلمون في كلها. ثم جاء مدد أهل الأجم فانهزم العدو حتى اقتحموا عليهم الأسطول، وانقلبوا خائبين وتمت النعمة.

الخبر عن استيلاء الأمير أبي بكر زكريا على الثغر العربي بجاية والجزائر وقسطنطينية وأولية ذلك ومصائره

كان للأمير أبي بكر زكريا ابن السلطان من الترشيع للأمل بهديه وشرف همتة وحسن ملكته، ومخالطته أهلاً لعلم ما يشهد له بحسن حاله، وهو الذي اختط المدرسة للعلم بأزاء دار الأقوري

حيث كان سكناه بتونس، ولما لحق بتلمسان بعد منجاة من مهلك أبيه بجاية، نزل على صهره عثمان بن يغمراسن بتلمسان، وجاء في أثره أبو الحسن بن أبي بكر بن سيد الناس صنيعة أبيه وأخيه بعد أن خلص مع السلطان أبي حفص من الواقعة إلى مرجانة. فلما بايع له العرب وبدت مخالب الملك، رأى أبو الحسين إشار السلطان للفازاوي عليهم فنكب عنه، ولحق بالأمير أبي زكريا بتلمسان واستحثه لطلب ملكه. واستقرض من تجار بجاية هنالك مالاً أنفقه في إقامة أهله الملك له، وجمع الرجال واصطنع الأولياء.

وفشا الخبر بما يرومه من ذلك، فصده عثمان بن يغمراسن عنه بما كان تقلد من طاعة السلطان أبي حفص على سبتهم من الخلفاء بالحضرة قبله، فاعتزم الأمير أبو زكريا على شأنه، وخرج من تلمسان موراً بالصيد الذي كان يتحلله أيام مقامه بينهم، ولحق بدادود بن هلال بن عطايف أمير بني يعقوب، وكافة بني عامر من زغبة، أوعز عثمان بن يغمراسن إلى داود برده إليه فأبى من إخفار ذمته، وارتحل معه بقومه إلى آخر بلاد زغبة، ونزلوا على عطية بن سليمان بن سباع من رؤساء الدواودة، فتلقاه بالطاعة وارتحلوا جميعاً إلى ضواحي قسطنطينية فدخل العرب سدويكش في طاعته.

ونزل البلد سنة ثلاث وثمانين وستمائة وعاملها يومئذ أبو يوقيان من مشيخة الموحدين، وكان صاحب الجاية بها أبو الحسن بن طفيل. كان له من العامل صهر فداخل الأمير أبا زكريا في شأن البلد، وشرط لنفسه وصهره فأمضى السلطان شرطهم وأمكنوه من البلد. وأقاموا به دعوته، وارتحل إلى بجاية وكان قد حدث فيها اضطراب بين أهلها أدى إلى الخلاف والتباين، واستحثوا الأمير أبا زكريا فأغذ السير إليهم ودخلها سنة أربع وثمانين وستمائة ويقال: إن ملكه بجاية كان سابقاً على ملكه بقسطنطينية وهو الأصح فيما سمعناه من شيوخنا. وبعث إليه أهل الجزائر بطاعتهم فاستولى على هذه الثغور القريبة، وتلقب المنتخب لإحياء دين الله. وأغفل ذكر أمير المؤمنين أدباً مع عمه الخليفة بالحضرة، حيث مالاً الموحدين أهل الحل والعقد من الجماعة. ونصب للحجابة أبا الحسين بن سيد الناس فقام بها، ورسخ ملكه وملك بنيه بهذه الناحية الغربية، وانقسمت به الدولة إلى أن خلص الأمر للملوك من عقبه واستولوا على الحضرة كما نذكر.

واشترطوا أن لا حكم عليهم في سواها، وأن رؤساء نفزاوة منهم، فأمضى شرطهم وكان أول استبداد أهل الجريد كما نذكر.

الخبر عن خروج عثمان ابن السلطان أبي

دبوس داعياً لنفسه بجبهات طرابلس

كان أبو دبوس آخر خلفاء بني عبد المؤمن بمراكش لما قتل سنة ثمان وخسين وستمائة، وافترق بنوه وتقلبوا في الأرض، لحق منهم عثمان بشرق الأندلس، ونزل على طاغية برشلونة فأحسن تكريمه، ووجد هنالك أعقاب عمه السيد أبي زيد المنتصر أخي أبي دبوس في مთاهم من إيالة العدو. وكان لهم هنالك مكان وجاه لنزوع أبيهم السيد أبي زيد عن دينه إلى دينهم، فاستبلغوا في مساهمة قريبهم هذا الوافد، وخطبوا له عن الطاعة حظاً. ووافق ذلك حصول مرغم بن صابر بن عسكر شيخ الجوالي من بني دباب في قبضة أسره، وكان قد أسره العدو من أهل صقلية بنواحي طرابلس سنة اثنتين وثمانين وستمائة وباعوه من أهل برشلونة فاشتره الطاغية، وقام عنده أسيراً إلى أن نزع إليه عثمان بن أبي دبوس هذا كما ذكرناه. وشمر لطلب حقه في الدعوة الموحدة حيث كانت وأمل الظفر في القاصية لبعدها عن الحامية، فعبر البحر إلى طرابلس، وكان من حظوظ كرامته عند الطاغية أن أطلق له مرغم بن صابر، وعقد له حلفاً معه على مظاهرتة، وجهز لهما الأساطيل وشحنها بالمدد من المقاتلة والأقوات على مال شرطه له، فنزلوا على طرابلس سنة ثمان وثمانين وستمائة واحتشد مرغم قومه وحملهم على طاعة ابن أبي دبوس، ونازلوا البلد معه ومع جنده من النصرانية، فحاصروها ثلاثاً، وساء أثرهم فيها. ثم دخل النصارى بأسطولهم وأرسو بأقرب السواحل إلى البلد وتنقل ابن أبي دبوس ومرغم في نواحي طرابلس بعد أن أنزلوا عليها عسكرياً للحصار، فاستوفوا من جباية المغارم والوضائع مالاً دفعوه للنصارى في شرطهم، وانقلبوا أسطولهم، وأقام ابن أبي دبوس يتقلب مع العرب. واستدعاه ابن مكى من بعد ذلك لأنه يشبه به في استبداده، فلم يتم أمره إلى أن هلك بجربة، والله وارث الأرض ومن عليها.

الخبر عن مهلك أبي الحسين بن سيد الناس

صاحب بجاية وولاية ابن أبي ججي مكانه

قد قدمنا سلف هذا الرجل وأوليته، وأنه لحق بالأمير أبي

الخبر عن حركة الأمير أبي زكريا إلى ناحية

طرابلس ومنازلة عثمان بن يغمراسن بجاية

في مغيبه

لما استولى الأمير أبو زكريا على الناحية الغربية، واقتطعها من أعمال الحضرة اعتمل في الحركة على تونس، فنهض إليها في عساكره سنة خمس وثمانين وستمائة، ووفد عليه عبد الله بن رحاب بن محمود من مشيخة دباب ومانعه الفزازي عن أحوال تونس فنال قابس وحاصرها، وكان له في قتالها أثر واستولت الهزيمة على مقاتلتها ذات يوم فأئثن فيهم قتلاً وأسراً، وهدم ربيضها وأحرق المنازل في غابتها والنخل، وارتحل إلى مسراته وانتهى إلى الأبيض وأطاعه الجوراري والحاميد وآل سالم وعرب برقة، وبلغه بمكانه من مسراته أن عثمان بن يغمراسن أسف إلى منازلة بجاية وكان من خبره أن الأمير أبا زكريا لما فصل من تلمسان لطلب ملكه على كره منه، وامتنع جاره داود بن عطف من رده، وامتنع له عداوة وحقدًا، وجدد البيعة لصاحب تونس، وأوفد بها علي ابن محمد الخراساني من صناعته. وكان له أثناء ذلك ظهور على بني توجين ومغراوة بالمغرب الأوسط وضاق ذرع أهل الحضرة بمكان الأمير أبي زكريا من مطالبهم وتدويغهم لقاصيتهم، فدخلوا عثمان بن يغمراسن في منازلة معقله بعد بجاية ليردوه على عقبه عنهم، فزحف إلى بجاية سنة ست وثمانين وستمائة ونازلها أياماً وامتنع عليه سائر ضواحيها فلم يظفر بأكثر من الإطلال عليها. وانكفأ الأمير أبو زكريا راجعاً إلى بجاية سنة ست وثمانين وستمائة إلى أن كان من أمره ما نذكر.

الخبر عن فاتحة استبداد أهل الجريد

كان في بعض الأيام بين سداة وكنومة من عمل تقيوس فتنة قتل فيها ابن لشيخ سداة، وأقسم لشارن فيه بشيخ كنومة نفسه، وكان عامل توزر محمد بن يحيى بن أبي بكر التينمللي من مشيخة الموحدين فتقدم شيخ كنومة به، وبذل له مالاً على نصره من عدوه، فكتب الحضرة وأعلن بخلاف أهل سداة واحتشد لهم أهل نقطة وتقيوس، وخرج هو في حشد أهل توزر وغزاهم في بلدهم ولاذ بإعطاء الرهن، وبذل المال فلم يقبل فأمدهم أهل نفزاوة وزحفوا إليه، فانهمزت جموعه وأئثنوا فيهم قتلاً وأسراً إلى توزر، وذلك سنة ست وثمانين وستمائة. ثم عاود غزوهم عقب ذلك ففتحوا عليه ثم عقد لهم سلماً على الوفاء بمغارهم

فأركبوه وكسبوه ولحق ببجاية سنة إثنين وتسعين وستمائة فنزل بباب السلطان، ورغبه في ملك الزاب، وصانع الحاجب ابن أبي جبي بأنواع التحف، وضمن له تحويل الدعوة بالزاب للسلطان الأمير أبو زكريا وتسريب جبايته إليه، فاستماله بذلك وعقد له على الزاب وأمهدة بالعسكر، ونازل بسكرة فامتعت عليه، ورأى مشيختها بنو رمان بعدهم عن صريخ تونس، والحاج عدوهم منصور بن فضل عليهم فاعلنوا بطاعة الأمير أبي زكريا وبعثوا إليه ببيعتهم ووفدهم ودفع عادية بن مزني عنهم، فأرجعهم بما أملوه من القبول، وأن تكون أحكامهم إلى قائد عسكره. ونظر ابن مزني مصروفًا إلى الجباية فقط. ولما وصل الوفد إلى بسكرة خرجوا إلى القائد ومنصور بن مزني، فادخلوها البلد ودانوا بالطاعة، وتصرفت الأمور على ذلك إلى أن كان من أمر منصور بن مزني ما ذكره في أخباره، ولم يزل الزاب في دعوة الأمير أبي زكريا وبنه إلى أن استولى على الحضرة بعده بنوه لهذا العهد، كما تراه في الأخبار بعد إن شاء الله تعالى.

الخبر عن مهلك أبي عبد الله الفازازي شيخ الموحدين والحاجب أبي القاسم بن الشيخ رؤساء الدولة بالحضرة

كان أبو عبد الله الفازازي من مشيخة الموحدين، وكان خالصة للسلطان أبي حفص، وعقد له على العساكر كما قدمناه ودفعه إلى الحروب وتعميد النواحي، فقام في ذلك المقام المحمود، ودوخ الجهات واستنزل الثوار ودفعهم، وجبى الخراج وكانت له في ذلك آثار مذكورة، وفي بلاد الجريد ومشيختها تصارييف وأحوال، وهو الذي امتحن أحمد بن يملول بسعاية المشيخة من أهل توزر، وكبح عنائه عن مراميه إلى الرئاسة عليهم، وهلك آخر حركاته إلى بلاد الجريد على مرحلتين من تونس سنة ثلاث وتسعين وستمائة ولسنة منها كان مهلك الحاجب أبي القاسم بن الشيخ، وكان من خبر أوليته أنه قدم من بلده دانية إلى بجاية سنة ست وعشرين وستمائة واتصل بعاملها محمد بن ياسين فاستكتبه وغلب عليه.

واستدعى ابن ياسين إلى الحضرة وابن الشيخ في جملته، والتمس السلطان من يرشحه لكتابة ويخف عليه، فاطن ابن ياسين في وصف كاتبه أبي القاسم بن الشيخ وحلاه، وابتلاه السلطان فلم ير ضه وصرفه، ثم راجع رأيه فيه واستحسنه ورسمه في خدمته، وأمر ابن أبي الحسين بتلقيه الآداب وتصريفه في وجوه

زكريا بتلمسان، وأبلى في خدمته، فلما استولى الأمير أبو زكريا على الثغر الغربي واقتطعه عن أعمال الحضرة، ونزل بجاية وظاهر بها تونس، عقد لأبي الحسين بن سيد الناس على حجابته، وفوض إليه فيما وراء بابه وأجراه في رئاسته على سنن أبي الحسين الرئيس قبله في دولة المستنصر الذين كانوا يتلقون طرقة، وينزعون إلى مراميه، بل كانت رئاسة هذا في حجابته أبلغ من رئاسة ابن أبي الحسين لخلاء جو الدولة ببجاية من مشيخة الموحدين الذين يزامونه، كما كان ابن أبي الحسين مزاحاً بهم، فاستولى أبو الحسين بن سيد الناس على الدولة ببجاية، وقام بأمره بخدومه أحسن قيام، وصار إلى الحل والعقد وانصرفت إليه الوجوه وتمكن في يده الزمام، إلى أن هلك سنة تسعين وستمائة أعظم ما كان رئاسة وأقرب من صاحبه مكاناً وسراً، فأقام الأمير أبو زكريا مكانه كاتبه أبا القاسم بن أبي حي ولا أدري من أوليته أكثر من أنه من جالية الأندلس، ورد على الدولة، وتصرف في أعمالها، واتصل بأبي الحسين بن سيد الناس فاستكتبه، ثم رقه واستخلصه لنفسه، وأجره رسنه، وتناول زمام الدولة من يد سيد الناس، فقادها في يد مطهر خدمته حتى عنت إليه الوجوه وأمله الخاصة، وأطلع السلطان على اضطلاله وكفايته في أمور خدومه. وهلك أبو الحسين ابن سيد الناس، فرشحه السلطان بمخضته فقام بها سائر أيامه وصدرًا من أيام ابنه الأمير أبي البقاء حتى كان من أمره ما نذكره بعد.

الخبر عن خروج الزاب عن طاعة الأمير أبي حفص إلى طاعة الأمير أبي زكريا صاحب بجاية وانتظام بسكرة في عمله

كان السلطان أبو إسحاق قد عقد على الزاب لفضل بن علي بن مزني من مشيخة بسكرة كما قدمناه، فقام بأمره. ولما هلك السلطان عدا عليه بعض أفريق العرب الموطنين قرى الزاب بمداخلة قوم من أعدائه، وقتلوه سنة ثلاث وثمانين وستمائة كما نذكره، وأملوا الاستبداد بالبلد فدفعهم عنها المشيخة من بني زيان، واستقلوا بأمر بلدهم وبايعوا للأمير أبي حفص صاحب الحضرة ودانوا بطاعته على السنن. وتوقعوا عادية منصور بن فضل بن مزني. وكان لحق بالحضرة عند مهلك أبيه فخاطبوا فيه السلطان أبا حفص ورموه بالدواهي فأمر باعتقاله، وأودع السجن سبع سنين إلى أن فر منه ولحق بكرفة من أحياء هلال بن عامر، وهم العرب المتولون أمر جبل أوراس، ونزل على الشبه من أفريقهم

رباط هذا الولي فوضعت في بيته، فسماه الشيخ محمداً، وعق عليه وأطعم الفقراء يومئذ عصيدة الخنطة، فلقب بأبي عصيدة إلى آخر الدهر. ثم صار بعد الاختفاء ودواعيه إلى قصورهم ونشأ في ظل الخلفاء من قومه، حيث شب وبقيت له مع الولي أبي محمد ذمة يثابر كل منهما على الوفاء بها، فلما فاوضه السلطان أبو حفص في شأن العهد وقص عليه نكير الموحدين لولده، أشار عليه الشيخ بصرف العهد إلى محمد بن الواثق فتقبل إشارته وعلم ترشيحه، وأنفذ بذلك عهده بمحضر الملأ ومشیخة الموحدين، وهلك آخر ذي الحجة سنة أربع وتسعين وستمئة وإلى الله المصير.

الخبر عن بيعه السلطان أبي عصيدة وما كان على أثرها من الأحوال

لما هلك السلطان أبو حفص اجتمع الملأ من الموحدين والأولياء والجند والكافة إلى القصة، فابيعوا بيعة عامة لولي عهده السلطان أبي عبد الله محمد، ويلقب كما ذكرناه بأبي عصيدة ابن السلطان الواثق في الرابع والعشرين لذي الحجة سنة أربع وتسعين وستمئة فانشرحت ببيعه الصدور، ورضيته الكافة، وتلقب المستنصر بالله. وافتتح أمره بقتل عبد الله ابن السلطان أبي حفص لمكان ترشيحه، وقتل وزارته محمد ابن يرزيكن من مشيخة الموحدين، وأبقى محمد الشخشي على خطة الحجابة وصرف التدبير والساكر ورئاسة الموحدين إلى أبي يحيى زكريا بن أحمد بن محمد اللجاني قاتل السلطان المستنصر، عند تعرض ابنه للبيعة، واستنامة الخلافة فقام بما دفع إليه من ذلك. وضايقه فيه عبد الحق بن سليمان رئيس الموحدين قبله، حتى إذا نكب وهلك استبد هو على الدولة، واستقل الشخشي بحجابه. وكان محمد بن إبراهيم بن الدباغ رديفاً له فيها.

وكان من خبر ابن الدباغ هذا أن إبراهيم أباه وقد على تونس في جالية أشبيلية سنة ست وأربعين وستمئة فولد هو بتونس ونشأ بها، وأفاد صناعة الديوان وحسبانه - وكان من المرزبن فيه - أبي الحسن وأبي الحكم ابني مجاهد، وأصهر إليهما في ابنة أبي الحسن فأنكحاه ورشاه للأمانة على ديوان الأعمال. ولما استقل أبو عبد الله الفازاري بالرئاسة استكتبه وكان طياشاً مستضعفاً على الخليفة، فكان كاتبه محمد بن الدباغ يروضه لأغراض الخليفة إذا دسها إليه الحاجب ابن الشيخ، فيقع ذلك من الخليفة أحسن الموقع. ولما ولي السلطان أبو عصيدة وكانت له عنده سابقة رعاها، وكان حاجبه الشخشي بهمة غفلاً عن أدوات

الخدمة ومذاهبها. فكان له في ذلك غناء وخفة على مخدومه إلى أن هلك ابن أبي الحسين، وكان الخراج بدار السلطان موقفاً على نظره من جملة ما إليه، وكان قلمه عاملاً فيه، فأفرد ابن الشيخ بذلك بعد مهلكه إلى آخر أيام السلطان المستنصر. ولما ولي الواثق استبد ابن أبي الحسين عليه كما قلناه، فأبقاه على خطته واختصه لنفسه ودرجه في جلته. ثم جاءت دولة السلطان أبي إسحاق فأقامه في رسمه وزاحمه بأبي بكر بن خلدون صاحب أشغاله. وكانت الرئاسة الكبرى على عهده لبني أبي فارس، ثم أبي زكريا وأبي محمد عبد الواحد من بعده. ثم كانت مضلة الدعي، فاستولى على ملكهم فاستخلص أبا القاسم بن الشيخ، واستضاف له إلى خطة التنفيذ كتاب العلامة في فواتح السجلات. فلما ارتجع السلطان أبو حفص ملكه وقتل الدعي، خافه ابن الشيخ لما كان من رتبته عند الدعي، فلاذ بالصلحاء لإنارة من الخير والعبادة وصلت بينهم وبينه فشفعوا له وتقبلوا السلطان، وأظهر لهم ذات نفسه في الحاجة إلى استعماله، وقلده حجابته مجموعة إلى تنفيذ كتاب العلامة في فواتح السجلات. فلما ارتجع السلطان أبو حفص ملكه وقتل الخارج وصرف العلامة إلى غيره من طبقة الدولة، فلم يزل ذلك إلى أن هلك سنة أربع وتسعين وستمئة وبقي اسم الحجابة من بعده في هذه الخطط الثلاث وأمر التدبير والحرب ورئاستهما راجع إلى مشيخة الموحدين إلى أن تصرفت الأحوال، وأدبل بعضها من بعض كما ياتيكم أثناء الأخبار، وقتل السلطان من بعد ابن الشيخ حجابته لأبسي عبد الله التحتي من طبقة الجند فقام بها إلى آخر الدولة، والله وارث الأرض ومن عليها.

الخبر عن مهلك السلطان أبي حفص وعهده بالأمر من بعده

لم يزل السلطان أبو حفص على أكمل حالات الظهور والدعة إلى أن استوفى مدته، وأصابه وجع أول ذي الحجة من سنة أربع وتسعين وستمئة ثم اشتد به الوجع وأهمه أمر المسلمين وما قلده من عدتهم فعهد لابنه عبد الله بالخلافة ثاني أيام التشريق، ونكره الموحدون لتخلفه عن المراتب لصغره وأنه لم يحتلم وتحذوا في ذلك. وأفضى الخبر إلى السلطان فأسخطه، وعدل عنهم إلى الشورى مع الولي أبي محمد المرجاني. وكان رايه فيه جيلاً وظنه به صالحاً. وكان الواثق بن المستنصر لما قتل هو وبنيه محبسهم فرت إحدى جواريه، وقد اشتملت على حمل منه إلى

زكريا، وكان الأمير أبو زكريا قد انتقض عليه أهل الجزائر بعد مهلك عامله عليها من الموحدين من بني الكمازير، أنبرى بها بعده محمد بن علان من مشيختها، واستفحل أمر عثمان بن يغمراسن وبني عبد الواد من ورائه، وتغلبوا على توجسين ومغراوة، ومليكش، وكان شيعة لصاحب الحضرة بما كان متمسكاً بدعوتهم ومتقبلاً مذهب أبيه في بيعتهم، فقويت عزائم السلطان أبي عسيبة لذلك، ونهض من الحضرة سنة خمس وتسعين وستمئة وتجاوز تخوم عمله إلى أعمال قسطنطينية، واجفلت أمامه الرعايا والقبائل وانتهى إلى ميلة، وفيها كان منقلبه إلى حضرته في رمضان من سنته.

ولما ضايق عمل بجاية بغزوه أعمل الأمير أبو زكريا نظره في تسكين الناحية الغربية ليعتبرغ عنها إلى مدافعة السلطان صاحب الحضرة، فوصل يده بعثمان بن يغمراسن وأكد معه قديم الصهر بمجادت الود والمواصلة. وفي خلال ذلك زحف يوسف بن يعقوب سلطان بني مرين إلى تلمسان، وألقى عليها بكلكله، واستجاش عثمان بن يغمراسن بالأمير أبي زكريا فأمدّه بعسكر من الموحدين لقيهم عسكر من بني مرين بناحية تدلس فهزموهم وأثخنوا فيهم قتلاً. ورجع فلهم إلى بجاية وسرح يوسف بن يعقوب عساكر بني مرين إلى بجاية وعقد عليها لأخيه أبي يحيى بعد أن كان عثمان بن سباع قد وفد عليها نازعاً عن صاحب بجاية إليه، ومرغباً له في ملكها، فأوسع له في الحياء والكرامة ما شاء، وبعث معه هذا العسكر فانتهوا إلى بجاية، وضايقوها ثم جاوزوها إلى تآكرارت وبلاد سدويكش، وعاثوا في تلك الجهات ودوخوها واقلبوا راجعين إلى السلطان يوسف بن يعقوب بمعسكره من تلمسان.

وكان السلطان أبو عسيبة صاحب الحضرة لما علم بإمداد الأمير أبي زكريا لعثمان بن يغمراسن بعث إلى يوسف بن يعقوب عدوهم وحرّضه على بجاية ونواحيها، وسفر بينهما في ذلك رئيس الموحدين أبو عبد الله بن أكمارير أولى سفارته. ثم سفر ثانية سنة ثلاث وسبعمئة بهدية ضخمة أغرب فيها بسرج وسيف ومهمّاز من الذهب مرصعة صنعة الحلى الفاخر من حصياء اليافوت والجوهر. ورافقه في هذه السفارة الثانية وزير الدولة أبو عبد الله بن برزيكن ورجعا بهدية ضخمة من يوسف بن يعقوب كان من جملتها ثلثمائة من البغال، واتصلت المخاطبات والسفارات والهدايا والملاطفات. وكان يوسف بن يعقوب يكتب السلطان في تلك الشؤون تعريضاً ويكتب رئيس الموحدين أبا يحيى بن اللحياني وتردد عساكر بني مرين إلى نواحي بجاية إلى أن هلك يوسف بن يعقوب كما يأتي في أخباره.

الكتاب، فاستكتب السلطان ابن الدباغ ثم رقاها إلى كتاب علامته سنة خمس وتسعين وستمئة وكان يتصرف فيها فأصبح رديفاً للشخشي في حجابته، وجرت أمور الدولة على ذلك إلى أن هلك الشخشي سنة تسع وتسعين وستمئة فقلده السلطان حجابته فاستقل بها على ما قدمناه من أن التدبير والحرب مصروف إلى مشيخة الموحدين.

الخبر عن نكبة عبد الحق بن سليمان وخبر

بنيه من بعده

كان أبو محمد عبد الحق بن سليمان رئيس الموحدين لعهد السلطان أبي حفص، وأصله من تينملل الموطنين بترسق مذكور أول الدولة، كانت له ولسلفه الرئاسة عليهم، وصارت إليه رئاسة الموحدين كافة بالحضرة أيام هذا السلطان وكان له خالصة وشيعة، وكان حريصاً على ولاية ابنه عبد الله للعهد. وكان يدافع نكير الموحدين في ذلك، فأسرّها له السلطان أبو عسيبة. ولما استوثق له الأمر، وقتل عبد الله بحمسه، تقيض على أبي محمد بن سليمان واعتقله في صفر سنة خمس وتسعين وستمئة. ولم يزل معتقلاً إلى أن قتل بحمسه على رأس المائة السابعة، وفر عند نكبة ابنه محمد وعبد الله، فأما عبد الله فلاحق بالأمير أبي زكريا، وصار في جملته إلى أن دخل تونس مع ابنه السلطان أبي البقاء خالد. وأما محمد فأبعد الفر ولحق بالمغرب الأقصى، ونزل على يوسف بن يعقوب سلطان بني مرين بمعسكره من حصار تلمسان، فاستبلغ في تكرّجه وأقام عنده مدة. ثم عاود وطنه ونزع عن طريقه إلى النسك وليس الصوف. وصحب الصالحين وقضى فريضة الحج، وامتد عمره وحسنت فيه ظنون الكافة، واعتقدوا فيه وفي دعائه، وكثرت غاشيته لالتماس البركة منه. وأوجب الخلفاء أزاء ذلك تجلّة أخرى، وأوفدوه على ملوك زناتة مرة بعد مرة في مذاهب الود وقصود الخير. وحضر في بعض الجهاد ببجل الفتح عندما نازلته عساكر السلطان أبي الحسن، ولم يزل هذا دأبه إلى أن هلك في الطاعون الجارف في منتصف المائة الثامنة.

الخبر عن مراسلة يوسف بن يعقوب سلطان

بني مرين ومهاداته

كان السلطان أبو عسيبة لما استفحل أمره واستوسق ملكه حدث نفسه بغزو الناحية الغربية وارتجاع ثغورها من يد الأمير أبي

الخبر عن مقتل هداج وفتنة الكعوب

وبيعتهم لأبي دبوس وما كان بعد ذلك من
نكبتهم

كان هؤلاء الكعوب قد اثرتهم الدولة واصطنعتهم منذ قيامهم بأمر الأمير أبي حفص، فاعتزوا ونموا ويطروا النعمة، وكثر عيشتهم وفسادهم وطال إضرارهم بالسابلة وحطهم للجنت، وانتهاهم للزرع، فاضطغن لهم العامة وحقدوا عليهم سوء آثارهم. ودخل رئيسهم هداج بن عبيد الله سنة خمس وسبعمئة إلى البلد فخزرت العيون وهمت به العامة. وحضر المسجد لصلاة الجمعة فتجنوا عليه بأنه وطىء المسجد بخفيه. وقال: لمن نكر عليه ذلك: إني أدخل بهما مجلس السلطان فثاروا به عقب الصلاة وقتلوه، وجروا شلوه في سكك المدينة، فزاد عيشتهم وأجلاهم على السلطان، واستقدم أحمد بن أبي الليل شيخ الكعوب لذلك العهد عثمان بن أبي دبوس من مكانه بنواحي طرابلس، ونصبه للأمر، وأجلب به على الحضرة ونازلها.

وخرج إليهم الوزير أبو عبد الله بن برزيكن في العساكر فهزمهم، وسار بالعساكر لتمهيد الجهات وتسكين ثائرة العرب، فوفد عليه أحمد بن أبي الليل ومعه سليمان بن جامع من رجالات هواره بعد أن راجع الطاعة. وصرف ابن أبي دبوس إلى مكانه فتقبض عليهما، وبعث بهما إلى الحضرة فلم يزلَا معتقلين إلى أن هلك أحمد بحبس سنة ثمان وسبعمئة وقام بأمر الكعوب محمد بن أبي الليل ومعه حمزة ومولاهم ابنا أخيه عمر رديفين له. ثم خرج الوزير بعساكره سنة سبع وسبعمئة، واستوفد مولاهم ابن عمر وتقبض عليه وبعث به إلى الحضرة فاعتقل مع عمه أحمد. وجاهر أخوة حمزة بالخلاف وأتبعه عليه قومه فكثرت عيشتهم، وأضروا بالرعايا وكثرت الشكاية من العامة، ولغظوا بها في الأسواق وتصاحبوا. ثم نفروا إلى باب القصبية يريدون الثورة فسد الباب دونهم فرموا بالحجارة، وهم في ذلك يعتدون ما نزل بهم من الحاجب ابن الدباغ ويطلبون شفاء صدورهم بقتله. ورفع أمرهم الحاجب واستلحهم جميعاً فأبى من ذلك السلطان وأمره بملاطفتهم إلى أن سكنت هيبتهم. ثم تتبع بالعقاب من تولى كبر ذلك منهم، وانحسم الداء. وكان ذلك في رمضان من سنة ثمان وسبعمئة واستمر العرب في غلوائهم إلى أن هلك السلطان فكان ما يأتي ذكره.

الخبر عن انتقاض أهل الجزائر واستبداد ابن
علان بها

قد قدما ما كان من انتقاض أهل الجزائر أيام المستنصر ودخول عساكر الموحدين عليهم عنوة، واعتقال مشيختهم بتونس حتى أطلقوا بتونس بعد مهلكه، ولما استقل الأمير أبو زكريا الأوسط بملك الثغور الغربية من بجاية وقسنطينة. وكان الوالي على الجزائر ابن أكمازير من مشيخة الموحدين فبادر إلى طاعته باتفاق من مشيخة الجزائر، ووفدوا عليه. وكتب لابن أكمازير بولايته، فلم يزل والياً عليهم إلى أن كان شأن بني مرين وزحفهم إلى بجاية. وكان ابن أكمازير قد أسن وهرم فأدركه الوفاة خلال ذلك. وكان ابن علان من مشيخة الجزائر مختصاً به ومتصرفاً بأمره ونواحيه ومصدراً لإمارته. حصلت له بذلك الرئاسة على أهل الجزائر سائر أيامه. ويقال: كان له معه صهر، فلما وصل ابن أكمازير حدثه نفسه بالاستبداد والانتزاع بالجزائر، فبعث عن أهل الشوكة من نظرائه ليلة هلاك أميره، وضرب أعناقهم وأصبح منادياً بالاستبداد. وشغل الأمير أبو زكريا عنه بما كان من منزلة بني مرين ببجاية إلى أن هلك، وبقيت في انتقاضها على الموحدين آخر الدهر إلى أن تملكها بنو عبد الواد كما نذكره.

الخبر عن مهلك الأمير أبي زكريا صاحب
بجاية وبيعة ابنه الأمير أبي البقاء خالد

كان الأمير أبو زكريا قد استولى على الثغور الغربية كما قلنا، واقتطعها من أعمال الحضرة، وقسم الدعوة الحفصية بدولتين. وكان على غاية من الحزم والتيقظ والصرامة لم يبلغها سواه. وكان كثير الإشراف على وطنه والمباشرة لأعماله بنفسه وسد خلله. ولم يزل على ذلك إلى أن هلك على رأس المائة السابعة. وكان قد عهد بالأمر لابنه الأمير أبي البقاء خالد سنة ثمان وتسعين وستمئة قبلها وعقد له على قسنطينة وأنزله بها. فلما هلك الأمير أبو زكريا جمع الحاجب أبو القاسم بن أبي جُبى مشيخة الموحدين وطبقات الجند، وأخذ بيعتهم للأمير أبي البقاء وطير له بالخير واستقدمه فقدم، وبوع البيعة العامة، وأبقى ابن أبي جُبى على حجابته واستوزر يحيى بن أبي الأعلام، وقدم على صنهاجة أبا عبد الرحمن بن يعقوب بن خلوف منهم، وتسمى الزوار. وقد رئاسة الموحدين أبا زكريا يحيى بن زكريا من أهل البيت الحفصي واستمر الأمر على ذلك إلى أن كان ما نذكره.

الخبر عن سفارة القاضي الغبريني ومقتله

قد قدما ما كان من زحف بني مرين إلى بجاية بمداخلة صاحب تونس. ولما ولي السلطان أبو البقاء اعترم على المواصله مع صاحب تونس قطعاً للزبون عنه، وعين للسفارة في ذلك شيخ القراية ببابه أبا زكريا يحيى بن زكريا الحفصي ليحكم شأن المواصله بينهما. وبعث معه القاضي أبا العباس الغبريني كبير بجاية وصاحب شوراها، فأدوا رسالتهم وانقلبوا إلى بجاية، ووجد بطانة السلطان السبيل في الغبريني فأغروه به، وأشاعوا أنه داخل صاحب الحضرة في التوثب بالسلطان. وتولى كبر ذلك ظافر الكبير وذكره بجراثره، وما كان منه في شأن السلطان أبي إسحاق وأنه الذي أغرى بني غبرين به، فاستوحش منه السلطان وتقبض عليه سنة أربع وسبعمائة. ثم أغروه بقتله فقتل بمحبسه في سته تلك، وتولى قتله منصور التركي، والله غالب على أمره.

الخبر عن حجابة أبي عبد الرحمن بن غمر
ومصائر أموره

هو يعقوب بن أبي بكر بن محمد بن غمر السلمي، وكنيته أبو عبد الرحمن. كان جده محمد فيما حدثني أهل بيتهم قاضياً بشاطبة، وخرج مع الجالية أيام العدو إلى تونس، ونزل بالربض الجوفي أيام السلطان أبي عبيدة، وانتقل ابنه أبو بكر ومحمد إلى قسطنطينة ونزلا على ابن أوقيان العامل عليها من مشيخة الموحدين لعهد الأمير أبي زكريا الأوسط، فأوسعهما عناية وتكريماً. وولى أبا بكر على الديوان بالقل واستخلصه لنفسه. وكان يتردد إلى الحضرة ببجاية في شؤونه فاتصل بمرجان الحفصي من موالى الأمير أبي زكريا وخواص داره، واستخدم على يده للأمير خالد وأمه من كرائم السلطان، فحظي عندهم وتزوج ابنة يعقوب من ربيات القصر، وخوله، ونشأ في جو تلك العناية. وأعلنوا بصحبة الحاج فضل قهرمان دار السلطان وخاصته فاستخدم له سائر أيامه إلى أن هلك. وكان الحاج فضل كثيراً ما يتردد إلى الأندلس لاستجلاب الثياب الحريرية من هنالك واتقاء أصنافها. وكذلك إلى تونس لاستجادة الثياب منها.

وبعثه السلطان آخر أمره إلى الأندلس فاستصحب ابن غمر وهلك الحاج فضل هنالك، فعدل السلطان عن خطاب ابنه محمد إلى خطاب ابن غمر، فأمره بإتمام ذلك العمل والقدم به، فقدم هو وابنه محمد إلى خطاب ابن غمر، فأمره بإتمام ذلك العمل والقدم به، فقدم هو وابن الحاج فضل وساءلها السلطان عن عملهما، فكان ابن غمر أوعى من صاحبه فحلي بعينه وخف عليه، واعتلق بذمة من خدمته أحظته عند السلطان ورقته فاستعمل في الجباية. ثم قلد أعمال الأشغال وزاحم ابن أبي جبي

الخبر عن سفارة الحاجب ابن أبي جبي إلى
تونس وتنكر السلطان له بعدها وعزله

ولما ولي السلطان أبو البقاء كانت عساكر بني مرين مترددة إلى أعمال بجاية بمداخلة صاحب تونس كما ذكرناه، فدوخوا نواحيها. وكان ابن أبي جبي مستبداً على الدولة في حجابته، فضاق ذرعه بشأنهم وأهمته حال الدولة معهم. ورأى أن اتصال اليد بصاحب الحضرة مما يكف عن عزمهم، فزعم على مباشرة ذلك بنفسه لوثوقه من سلطانه. فخرج من بجاية سنة خمس وسبعمائة وقدم على الحضرة رسلاً عن سلطانه، فاهتزت له الدولة وتلقي بما يجب له ولرسله من البر، وأنزله شيخ الموحدين ومدير الدولة أبو يحيى زكريا بن اللحياني بداره استيلاً في تكريمه. وقضى من أمر تلك الرسالة حاجة صدره، وكانت بطانة الأمير أبي البقاء خالد لما خلاهم وجه سلطانهم منه تهافتوا على النصح إليه والسعاية بابن أبي جبي عنده.

وشمر لذلك يعقوب بن غمر وجلى فيه وتابعه عليه عبد الله الرخامي كاتب ابن أبي جبي وصديقه بما كان ابن طفيل قريبه يسخط عليه الناس، ويوغر له صدورهم بباؤه وتحقيره بهم، فالتح له العداوة في كل جائحة وأسخطه على عبد الله الرخامي. وكان صديقه ومداخله فتولى من السعاية فيه مع يعقوب بن غمر كبرها، وألقى إلى السلطان أن ابن أبي جبي داخل صاحب الحضرة في تمكينه من ثغور قسطنطينة وبجاية، بما كان على الأمير العامل

جى لحمة نسب وذمة صهر ووشجت بينهما عروقها. فلما استقل ابن أبي جى بحجابه الأمير أبي زكريا لم يال جهداً في مشاركة علي بن الأمير وترقيته المنازل إلى أن ولاه ثغر قسطنطينية مستقلاً بها وحاجباً للسلطان أبي بكر بن الأمير أبي زكريا، وأنزله معه فقام بحجابه وأظهر فيها غناؤه وحزمه، حتى إذا سخط السلطان ابن أبي جى وصرفه عن حجابه تنكر أبو الحسن بن الأمين وخشي بواد السلطان فحول الدعوة إلى صاحب الحضرة وطير إليه بالبيعة، واستدعى المدد والناثب فوصله رئيس الموحدين والدولة أبو يحيى زكريا بن أحمد بن محمد اللحياني، وعقد البيعة لسلطانه سنة أربع وسبعمئة.

وبلغ الخبر إلى السلطان أبي البقاء ببجاية فنهض إليه بالعاكر آخر سنة أربع وسبعمئة، ونازله أياماً فامتنع عليه، وهم بالإفراج عنه. ثم داخل رجل من بطانة ابن الأمين يعرف بابن موزة أبا الحسن بن عثمان من مشيخة الموحدين، وكان معسكره بباب الوادي فناجزهم الحرب من هنالك حتى انتهى إلى السور، فتسبم المقاتلة بإغضاء ابن موزة لهم عنه، وركب السلطان في العساكر عند الصدمة ووقف على باب البلد، وقد استمكن أوليائه منه فخرج إليه بنو المعتمد وبنو باديس ومشيخة البلد، فاقتحم البلد عنوة ومضى أبو محمد الرخامي واستنزل. ثم حمله في رجال السلطان إلى دار ابن الأمين فغشيه بها وقد انفض عنه الناس واستخفي بغرفة من غرف داره واستمات، فلاطفه الرخامي واستنزل. ثم حمله على برذون مستديراً، وأحضره بين يدي السلطان فقتل، ونصب شلوه وأصبح آية للمعتبرين.

الخبر عن حركة السلطان أبي البقاء إلى

الجزائر

قد قدما ما كان من خبر انتقاض الجزائر على الأمير أبي زكريا واستبداد ابن علان بها. فلما استولى السلطان أبو البقاء على الأمر وتمهدت له الأحوال وأقلع بنو مرين بعد مهلك يوسف بن يعقوب عن تلمسان، أعمل السلطان نظره في الحركة إليها، فخرج إليهم سنة سبع وسبعمئة أو ست وسبعمئة وانتهى إلى متيجيه ودخل في طاعته منصور بن محمد شيخ مليكش وجميع قومه ولجا إليه راشد بن محمد بن ثابت بن متديل أمير مغراوة هارباً أمام بني عبد الواد، فأواه إلى ظله وألقى عليه جناح حمايته. واحتشد جميع من في تلك النواحي من القبائل وزحف إلى الجزائر وأقام عليها أياماً فامتنعت عليه، وانكفأ راجعاً إلى حضرته ببجاية، وأقام

وعبد الله الرخامي، وغصرا به فأغروا السلطان بكتبه، فكتبه وأشخصه إلى الأندلس فأقام هنالك، واستعطف السلطان أبا البقاء بعد مهلك أبيه، وتشفع بوسائل خدمته فاستقدمه. وقدم مع علي وحسين ابني الرنداحي، وركب معهما البحر إلى بجاية في مغيب ابن أبي جى عن الحضرة فصادف من السلطان قبولاً، وشمر في السعاية بابن أبي جى مع مرجان إلى أن تم له ما أراد من ذلك. وصرف ابن أبي جى كما ذكرناه، فقلد السلطان حجابه ليعقوب بن غمر، وقدم على الأشغال عبد الله الرخامي، وكان ناهضاً في أمور الحجابة لمباشرتها مع مخدومه، فأصبح رديفاً لابن غمر وغص بمكانه فأغرى به السلطان ودله على مكان ثورته وعلى عداوته، فنكب وصودر وامتنح وغرب إلى ميورقة، حتى اقتاده يوسف بن يعقوب سلطان بني مرين من أسره، واستقدمه ليقلده أشغاله عند تنكره لعبد الله بن أبي مدين كما نذكره في أخباره، فهلك يوسف بن يعقوب دون ما أمل من ذلك، وأقام الرخامي بتلمسان وبها كان مهلكه. واستقل يعقوب بن غمر بأعباء خطته واضطلع بها، وفوض إليه السلطان في الإبرام والنقض، فحول المراتب بنظره وأجرى الأمور على غرضه. وكان أول ما أتاه صرعته لمرجان مصطنعه ملا صدر السلطان عليه، وحذره مغيبته فتقبض عليه وألقي في البحر فالتقمه الحوت، فخلا وجه السلطان لابن غمر وتفرد بالعقد والحل إلى أن استولى السلطان أبو البقاء على الحضرة وكان من أمره ما نذكره.

الخبر عن ثورة ابن الأمين بقسطنطينية وبيعة

السلطان أبي عسيده ثم فتح السلطان أبي

البقاء خالد لها وقتله

كان يوسف بن الأمين الهمداني بعد أن قتله بطنجة أبناء أبي يحيى بن عبد الحق من بني مرين كما يأتي في أخبارهم، انتقل بنوه إلى تونس أيام المستنصر ورعى لهم السلطان وسيلة قيامهم بالدعوة الحفصية أيام أبي علي بن خلاص بسبينة وبعدها إلى أن غلبهم عليها العزفي كما نذكره في أخباره فلحقاهم مبرة وتكرماً، ونزلوا من الحضرة خير نزل تحت جراية ونعمة وعناية. وكان كبيرهم متحماً متعاضماً فرميا لقي في الدولة لذلك عسفاً إلا أن الإبقاء عليهم كان مانعاً من اضطهادهم. ونشأ بنوهم في ظل ذلك النعيم.

ثم هلك السلطان واضطربت الأمور وضرب الدهر ضرباته، ولحق علي منهم بالثغر الغربي، وتأكدت له مع ابن أبي

من مشيختها، فاستوفى جباية الجريد وعاد إلى قابس.
وانزله عبد الملك بن عثمان بن مكى بداره، وصرح بما
روى عنه من حجه. وصرف العساكر إلى الحضرة وولي بعده
رئاسة الموحدين وتدير الدولة أبو يعقوب بن يزدوتن، وتحول عن
قابس إلى بعض جبالها نجافياً عن هوانها الوحشم. وأقام في انتظار
الركب الحجازي، وكان مريضاً إلى أن أبلّ فتحوّل إلى طرابلس
فأقام بها عاماً ونصفه إلى أن وصل وفد الترك من المغرب الأقصى
آخر سنة ثمان وسبعمائة فخرج معهم حاجباً حتى قضى فرضه
وعاد فكان من شأنه واستيلائه على منصب الخلافة ما يأتي ذكره.
ووصل مدد النصرانية إلى قشتيل جربة سنة ثمان
وسبعمائة بعد منصرف العساكر عنهم، وفيهم فردريك ابن الطاغية
صاحب صقلية، فقاتلهم أهل الجزيرة من المكارية لنظر أبي عبد
الله ابن الحسين من مشيخة الموحدين ومعه ابن أومغار في قومه
من أهل جربة فأظفرهم الله بهم. ولم يزل شأن هذه الجزيرة من
المكان مع العدو كذلك منذ الثالث دولة صنهاجة، وربما وقعت
الفتنة بين المكارية فتصل إحدى الطائفتين يدها بالنصارى إلى أن
كان ارتجاعها في هذه النوبة سنة.... وأربعين لعهد مولانا السلطان
أبي يحيى كما نذكره في أخباره.

الخبر عن مهلك السلطان أبي عصيدة وخبر أبي بكر الشهيد

كان السلطان أبو عصيدة بعد تلمي سلطانه، وتهدد ملكه،
طرقه مرض الاستسقاء فآزم من منه. ثم مات على فراشه في ربيع
الآخر سنة تسع وسبعمائة، ولم يخلف ابناً، وكان بقصرهم سبط
من أعقاب الأمير أبي زكريا جدهم ثم من ولد أبي بكر ابنه
الذي ذكرنا وفاته في خبر شقيقه أبي حفص في فتح مليانة أيام
السلطان المستنصر، فلم يزل بنوه في قصورهم وفي ظل ملكهم.
ونشأ منهم أبو بكر بن عبد الرحمن بن أبي بكر في إيالة السلطان
أبي عصيدة، ورعى في جيم نعمته. فلما هلك السلطان أبو عصيدة
ولم يعقب، وكان السلطان أبو البقاء خالد قد نزع إليه حمزة بن
عمر عند إياسه من خروج أخيه من محبسه فرغبه في ملك الحضرة
واستحبه عليها. ثم وصل أبو عبد الله بن يزريكن فعنى السلطان
أبا عصيدة واستنهض السلطان أبا البقاء لملك تونس، فنهض كما
نذكر. واستراب الموحدون بتونس في شأن حركته فخافوه على
أنفسهم، فبايعوا لهذا الأمير أبي بكر الذي عرف بالشهيد بما كان
من قبله لسبع عشرة ليلة من بيعته، وأبقى أبا عبد الله بن يزريكن

مليكش على طاعته ومطاولته الجزائر بالقتال إلى أن كان من
أمرها. وتغلب بنو عبد الواد عليها كما نذكره في أخبارهم. وجاء
معه راشد بن محمد إلى بجاية متذمناً لخدمته إلى أن قتله عبد الرحمن
بن خلوف كما يذكر في موضعه.

الخبر عن السلم وشروطه بين صاحب تونس وصاحب بجاية

لما افتتح السلطان أبو البقاء خالد قسطنطينة وقتل ابن الأمين
وفرغ من ذلك الشأن أدرك أهل الحضرة الندم على ما استديروا
من مهادة صاحب الثغر، وقارن ذلك مهلك يوسف بن يعقوب
الذي كانوا يرجونه شاغلاً له فجنحوا إلى السلم، ويعثوا وقدهم في
ذلك إليه فأسدوا وأحموا. وشرط عليهم السلطان أبو البقاء أن
من هلك منهما قبل صاحبه فالأمر من بعده للآخر والبيعة له،
فتقبلوا الشرط وحضر المألا والمشايخ من الموحدين ببجاية، ثم
بتونس، فاشهدوا به على أنفسهم، وربط ذلك العهد وأحكمت
أواخيه إلى أن نقضه أهل الحضرة عند مهلك السلطان أبي عصيدة
كما نذكره.

الخبر عن سفر شيخ الدولة بتونس ابن الليحاني لحصار جربة ومضيه منها إلى الحج

لما انعقد أمر هذا الصلح واستتم، راجع رئيس الدولة أبو
يحيى زكريا بن الليحاني نظره لنفسه، وأعمل فكره في الخلاص ممن
استوطنه، وكان يؤمل رجوع الوفد المقربين بالمهدية من أمراء الديار
المصرية إلى يوسف بن يعقوب فيصحبهم لقضاء فرضه، وأبطأ
عليه شأنهم فاعتزم على قصده وورى بمركته إلى جزيرة جربة
لاسترجاعها من أيدي النصارى والرجوع عنها من بعد ذلك إلى
الجريد لتمهيد أحواله. وتناول الرأي في الظاهر من أمره مع
السلطان فاذن له وسرح معه العساكر فخرج من تونس في جمادى
سنة ست وسبعمائة غازياً إلى جربة. ولم يزل يغذ السير حتى انتهى
إلى مجازها. ثم عبر منه إلى الجزيرة، وكان النصارى لما تغلبوا عليها
سنة ثمان وثمانين وستمائة شيدوا بها حصناً لا اعتصام الحامية
سموه بالقشتيل، فنزلت العساكر عليه. وآنفد الشيخ أبو يحيى عماله
للجباية وأقام في منازلته شهرين. ثم انقطعت الأقوات واستعصى
الحصن إلا بالمطاوله فرجع إلى قابس. ثم ارتحل إلى بلاد الجريد
وانتهى إلى توزر ونزلها، وأعمل في خدمته أحمد بن محمد بن يملول

الخبر عن بيعه ابن مزني ليحيى بن خالد ومصادر أموره

كان يحيى بن خالد ابن السلطان أبي إسحاق في جملة السلطان أبي البقاء خالد، وتنكرت له الدولة لبعض النزعات فخشي البادرة وفر فلحق بمنصور بن مزني. وكان منصور قد استوحش من ابن غمر فدعاه إلى القيام بأمره فأجاب، وعقد له على حجابته، وجمع له العرب وأجلب على قسطنطينة أياماً، وبها يومئذ ابن طفيل، وكانت قد اجتمعت ليحيى بن خالد زعنفه من الأوغاد اشتهلوا عليه واشتمل عليهم، وأغروه بابن مزني فوعدهم إلى حين ظفروا، واطلع ابن مزني على سوء دخلته ودخلتهم فنفذ يده من طاعته، وانصرف عنه إلى بلده، فانفضت جموعه وراجع ابن مزني طاعة السلطان أبي البقاء وغالصة بطائنه وحاجبه فتقبلوه، ولحق يحيى بن خالد بتلمسان مستجشاً، ونزل على أميرها أبي زيان محمد بن عثمان بن يغماسن فهلك لأيام من مقدمه. وولي بعده أخوه أبو حمور موسى بن عثمان فأمده وزحف إلى محاربة قسطنطينة فامتنعت عليه. ثم استدعاه ابن مزني إلى بسكرة فأقام عنده وأسنى له الجراية، ورتب عليه الحرس. وكان السلطان ابن اللحياني يبعث إليه من تونس بالجائزة مصانة له في شأنه، حتى لقد أقطع له بتونس من قرى الضاحية ما كان للسلطان وابنه، فلم يزل في إسهام بنيه من بعده إلى أن هلك يحيى بن خالد بمكانه عنده سنة إحدى وعشرين وسبعمئة.

الخبر عن بيعه السلطان أبي بكر بقسطنطينة على يد الحاجب ابن عمر وأولية ذلك

لما نهض السلطان أبو البقاء إلى الحضرة عقد على بجاية لعبد الرحمن بن يعقوب بن مخلوف مضافاً إلى رئاسته على قومه كما كانوا يستخلفون أباه عليها عند سفرهم عنها، وكان يلقب المزوار، وجعله حاجباً لأخيه الأمير أبي بكر على قسطنطينة فانتقل إليها. وعكف السلطان أبو البقاء في تونس على لذاته وأرهف حده وعظم بطشه فقتل عدوان بن المهدي من رجال الدولة في ودعا ابن حريز من رجال الأتابج، فتفاوض رجال الدولة في شأنه وخشوا بادرته وأعمل الحاجب ابن غمر وصاحبه منصور بن فضل عامل الزاب الحيلة في التخلص من إيلته، واستغضب راشد بن محمد أمير مغراوة، كان نزح إليهم عند استيلاء بني عبد الواد على وطنه فتلقوه من الكرامة بما يناسبه واستقر في جملتهم، وعليه

على وزارته وزحزح محمد بن الدباغ عن رتبة الحجابة. فتوعدة لما كان يحقد عليه من التقصير به أيام سلطانه، فكان عونا عليه إلى أن هلك عند استيلاء السلطان أبي البقاء كما نذكره.

الخبر عن استيلاء السلطان أبي البقاء على الحضرة وانفراده بالدعوة الحفصية

لما بلغ السلطان أبو البقاء بمكانه من بجاية وأعمالها الخبر بمرض السلطان أبي عصبدة مع ما كان من العقد بينهما بأن من مات قبل صاحبه جمع الأمر من بعده للأخير، داخلته الظنة أن ينقض أهل الحضرة هذا الشرط واعتزم على النهوض لمشاركة الحضرة، ووصل إليه حمزة بن عمر نازعاً عنهم، فرغبه واستحثه، وخرج من بجاية في عساكره، ووري بالحركة إلى الجزائر لما كان من انتقاضهم على أبيه، واستبداد ابن علان بها. ثم ارتحل إلى قصر جابر وعند بلوغه إليه ورد الخبر بمهلك السلطان أبي عصبدة وبيعة الموحدين بعده لأبي بكر بن عبد الرحمن بن أبي بكر ابن الأمير أبي زكريا، فاضطغنها على الموحدين.

وأغذ السير والخاص إليه كافة أولاد أبي الليل واجتمع أقاتهم أولاد مهليل إلى صاحب تونس، وخرج معهم شيخ الدولة أبو يعقوب بن يزدوتن والوزير أبو عبد الله ابن يريزكن في العساكر للقاء، ووقوا سلطانهم بأنفسهم. فلما زحف إليهم السلطان أبو البقاء اختل مصافهم وانهزموا وانتهب المعسكر، وقتل الوزير ابن يريزكن، وأجفلت أحياء العرب إلى القفر، ودخل العسكر إلى البلد واضطرب الأمر، وخرج الأمير أبو بكر بن عبد الرحمن فوقف بساحة البلد قليلاً، ثم تفرق عنه العسكر وتسايلوا إلى السلطان أبي البقاء. وفر أبو بكر ثم أدرك ببعض الجهات فتل إلى السلطان فاعتقله في بعض الغارات، وغدا على السلطان أهل الحضرة من مشيخة الموحدين والفقهاء والكافة فعدوا بيعته. وقتل الأمير فسمي الشهيد آخر الدهر، وياشر قتله ابن عمه أبو زكريا يحيى بن زكريا شيخ الموحدين. ودخل السلطان من الغد إلى الحضرة واستقل بالخلافة، وتلقب بالناصر لدين الله المنصور. ثم استضاف إلى لقيه المتوكل. وأبقى أبا يعقوب بن يزدوتن في رئاسته على الموحدين مشاركاً لأبي زكريا يحيى بن أبي الأعلام الذي كان رئيساً عنده قبلها واستمر على خطة الحجابة أبو عبد الرحمن يعقوب بن غمر، وولى على الأشغال بالحضرة منصور بن فضل بن مزني، وجرت الحال على ذلك إلى أن كان ما نذكره.

وعلى قومه كانت تدور رحى حروبهم.

واستصحبه السلطان أبو البقاء خالد إلى الحضرة أميراً على زناتة فرفع بعض حشمه إلى الحاجب في مقعد حكمه، وقد استعدى عليه بعض الخدم فأمر بقتله لحينه.

وأحفظ ذلك الأمير راشد بن محمد فركب لها عزائمها، وقوض خيامه لحينه مغاضباً، فوجد الحاجب بذلك سييلاً إلى قصده وغت حيلته وحيلة صاحبه. وأهم السلطان شأن بجاية ونواحيها، وخشي عليها من راشد بما كان صديقاً ملاطفاً لعبد الرحمن بن الخلوف وفاوضهما فيمن يدفعه إليها، فأشار عليه الحاجب بمنصور بن مزني، وأشار منصور بالحاجب، وتدافعا أياماً حتى دفعهما جميعاً إليها. وطلب ابن غمر من السلطان العقد لأخيه أبي بكر على قسطنطينة فقعد له، وولى علياً ابن عمه على الحجابة بتونس نائباً عنه. وفصل من الحضرة ولحق بقسطنطينة، وصرف منصور بن فضل إلى عمله بالزباب فكان من خلافه ما يذكر.

وقام ابن غمر بخدمة السلطان أبي بكر فتصرف في حجابته. ثم داخله في الانتقاض على أخيه، وبدت مخايل ذلك عليهم فارتاب لهم السلطان أبو البقاء وأحسّ علي بن غمر بارتياحه فلحق بقسطنطينة. وجهاز السلطان أبو البقاء عسكرياً وعقد عليها لظافر مولاه المعروف بالكبير، وسرحه إلى قسطنطينة فانتهى إلى باجة وأناخ بها إلى أن كان من أمره ما نذكره.

وبادر ابن غمر إلى المجاهرة بالخلعان ودعا مولانا لسلطان أبا بكر إليه فأجابه، وأخذ له البيعة على الناس فتمت سنة إحدى عشرة وسبعمئة، وتلقب بالموكل وعسكر بظاهر قسطنطينة إلى أن بلغه مجاهرة ابن الخلوف بمخلافهم، فكان ما نذكره.

الخبر عن استيلاء السلطان على بجاية ومقتل ابن خلوف وما كان من الإدارة في ذلك

كان يعقوب بن الخلوف ويكنى أبا عبد الرحمن كبير صنهاجة جند السلطان الموطنين بنواحي بجاية، وكان له مكان في الدولة وغناء في حروبهم ودفاع عدوهم. ولما نزلت عساكر بني مرين على بجاية مع أبي يحيى بن يعقوب بن عبد الحق سنة ثلاث وسبعمئة، كان له في حروبهم مقامات مذكورة وآثار معروفة. وكان الأمير أبو زكريا وابنه يستخلفونه ببجاية أزمان سفرهم عنها،

وكان يلقب بالمزوار. ولما هلك خلفه في سبيله تلك ابنة عبد الرحمن واستخلفه السلطان أبو البقاء على بجاية عندما نهض إلى تونس سنة تسع وسبعمئة وأنزله بها، وكان طموحاً لجوجاً مدلاً بياسه وقومه ومكانه من الدولة.

فلما دعا السلطان أبو بكر لنفسه وخلع طاعة أخيه، وأخذ له أبو عبد الرحمن بن غمر البيعة على الناس وخاطبوه بأخذ البيعة له على من يليه ببجاية وأعمالها فأبى منها، وتمسك بدعوة صاحبه، ونفس على ابن غمر ما تحصل له بذلك من الحظ فجاهر بمخلافهم.

وجمع واحتشد وتقبض على صاحب الأشغال عبد الواحد ابن القاضي أبي العباس الغماري وعلى صاحب الديوان محمد بن يحيى القالون مصطنع الحاجب ابن غمر من أهل المرية كان أسدى إليه عند اجتيازه به معروفاً، ورحل إليه عندما استولى على الرتبة ببجاية، فكافأه عن معروفيه واصطنعه وألقى عليه محبته ورقاه إلى الرتب، وصرفه في أعمال الجباية وقلده ديوان بجاية، فتقبض عبد الرحمن بن خلوف عليه وعلى صاحبه. وجمع الناس وأعلن بالدعوة للسلطان أبي البقاء خالد.

وارتحل السلطان أبو بكر من معسكره بظاهر قسطنطينة وأغذ السير إلى بجاية، ونزل مطلاً عليها وأمهل الناس عامة يومهم وشرط ابن الخلوف على السلطان عزل ابن غمر، وترددت الرسل بينهم في ذلك. وكان الوزير أبو زكريا بن أبي الأعلام من الساعين في هذا الإصلاح بما كان له من الصهر مع ابن الخلوف. وحين رجع إليه بامتناع السلطان عن شرطه منعه من الرجوع إليهم وحسبه عنده، وأرجف أهل المعسكر بالسلطان وخاموا عن لقاء صنهاجة ومن معهم من مغراوة أهل الشوكة والعصيبة والعديد والقوة.

وأجفل السلطان من معسكره فانتهب وأخذت أكته، وسلب من كان في المعسكر من أخلاط الناس. ودخل السلطان إلى قسطنطينة في فل من عسكره، وبعث ابن خلوف عسكرياً في اتباعه فوصلوا إلى ميلة فدخلوها عنوة. ثم وصلوا إلى قسطنطينة فقاتلوها أياماً، ورجعوا إلى بجاية. وأقام السلطان واضطرب أمره، وتوقع زحف ظافر إليه من باجة، واتصل به أن أبا يحيى زكريا بن أحمد اللحياني قتل من المشرق، وأنه لما انتهى إلى طرابلس دعا لنفسه لما وجد بأفريقية من الاضطراب، فبيع وتوافت إليه العرب من كل جهة، فرأى السلطان من مذاهب الحزم أن يبعث إليه بالحاجب ابن أبي عبد الرحمن بن غمر ليشيد من سلطانه، ويشغل أهل الحضرة عنه، فوری بالقرار عن السلطان وتواطأ معه على المكر

بابن خلوف في ذلك.

ولحق ابن عمر بالليحاني واستحثه لملك تونس وهون عليه الأمر، وغدا السلطان عند فصول ابن غمر على منازل فكبسها وسطا بمجاشيته، وولى حجابه حسن بن إبراهيم بن أبي بكر بن ثابت رئيس أهل الجبل المطل على قسطنطينية والفيل من كتامة، ويعرف قومه ببني نليلان، وكان قد اصطنعه من قبل، وارتحل بالساكر إلى بجاية سنة اثنتي عشرة وسبعمائة، واستخلف على قسطنطينية عبد الله بن ثابت أخا الحاجب.

وأشيع بالجهات أن السلطان تنكر لابن غمر وسخطه، وأنه ذهب إلى ابن الليحاني واستجاشه على الحضرة، وبلغ ذلك ابن خلوف واستيقن اضطراب حال السلطان خالد بتونس فطمع في حجابة السلطان أبي بكر، وتوثق لنفسه منه بالعهد بمداخلة عثمان بن شبل بن وعثمان بن سباع بن يحيى من رجالات الدواودة والولي يعقوب الملازي من نواحي قسطنطينية.

وأغذ السير من بجاية ولقي السلطان بفرجيوه من بلاد سدويكش فلقاه مرة ورجباً. ثم استدعاه من جوف الليل إلى رواقه في سرب من مواليه الملعوجي فعاقرهم الحمر إلى أن ثمل، واستغضبوه ببعض التزعات فغضب وأقذع فتناولوه طعنًا بالخناجر إلى أن قتلوه، وجروا شلوه فطرحوه بين القساطيط، وتقبض على سائر قومه وحاشيته، وفر كاتبه عبد الله بن هلال فلحق بالمغرب. وارتحل السلطان مغنًى إلى بجاية فدخلها على حين غفلة من أهلها واستولى السلطان على سائر المملكة التي كانت تحت إيالة ابنه بالجهة المعروفة بالناحية الغربية، واستوثق له أمرها، وأقام في انتظار حاجبه ابن غمر إلى أن كان من الأمر ما نذكره.

الخبر عن مهلك السلطان أبي البقاء خالد

واستيلاء السلطان أبي يحيى بن الليحاني

على الحضرة

كان السلطان أبو البقاء خالد بعد بيعه السلطان أبي بكر بـقسطنطينية قد اضطربت أحواله وجهز إليه العساكر لمنازلة قسطنطينية، وعقد عليها لمولاه ظافر المعروف بالكبير فعسكر بياجاة وأراح ينتظر أمر السلطان. وكان أبو يحيى زكريا بن أحمد بن محمد الليحاني بن أبي محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبي حفص قد بوع بطرابلس لما قفل من المشرق، ورأى اضطراب الأحوال ووفد عليه الحاجب أبو عبد الرحمن بن غمر بهدية من السلطان أبي بكر، وأنه

ثمده ومظاهره على شأنه، فأحكم ذلك من عقدته وشد من أمره، وتوافت إليه رجالات الكعوب أولاد أبي الليل وغيرهم، فبايعوه واسخوه للحضرة فارتحل إليها وبعث في مقدمته أولاد أبي الليل ومعهم شيخ دولته أبو عبد الله محمد بن محمد المزدوري فأغذوا السير إلى الحضرة.

وبعث السلطان إلى مولاه ظافر بمكانه من باجة مستجيشاً به، فاعترضوه قبل وصوله وأوقعوا به واعتقلوا ظافراً وصحبوا تونس ثامن جمادى سنة إحدى عشرة وسبعمائة ووقفوا بساحتها فكانت هية بالبلد قتل فيها شيخ الدولة أبو زكريا الحفصي، وعدا القاضي أبو إسحاق بن عبد الرقيق على السلطان وكان متبوعاً صارماً قوي الشكيمة، فأغراه بمدافعة العدو فخام عن لقاءه، واعتذر بالمرض وأشهد بالانغلاق عن الأمر وحل البيعة. ودخل أبو عبد الله المزدوري القصر فاستمكن من اعتقاله.

ثم جاء السلطان أبو يحيى زكريا بن الليحاني على أثره ثاني رجب فبوع العامة بظاهرها ودخل إلى البلد، واستولى عليها، وولى على حجابه كاتبه أبا زكريا يحيى بن علي بن يعقوب، على الأشغال بالحضرة ابن عمه محمد بن يعقوب، وبنو يعقوب هؤلاء أهل بيت بشاطبة من بيوت العلم والقضاء، وقدموا إلى الحضرة مع الجالية، وكان منهم أبو القاسم عبد الرحمن بن يعقوب، وفد مع ابن الأمين صاحب طنجة كما قدمناه. وتصرف في القضاء بإفريقية، وولاه السلطان المستنصر قضاء الحضرة. وسفر عنه إلى ملوك مصر، وكان بنو علي هؤلاء عبد الواحد ويحيى ومحمد من أقاربه، فكان لهم ظهور في دولة السلطان أبي حفص وبعدها، وكان عبد الواحد منهم صاحب جباية الجريد، وهلك بتوزر سنة اثنتين وسبعمائة. وكان السلطان أبو يحيى بن الليحاني قد استكتب أخاه أبا زكريا يحيى أيام رئاسته على الموحيدين فحظي عنده واختصه ولازمه وحجج معه. فلما ولي الخلافة أحظاه وولاه حجابه. ولما استقر بتونس استوثق له الأمر أعاد الحاجب أبا عبد الرحمن بن غمر إلى مرسله السلطان أبي يحيى بعد أن وثق العهد معه على المهادنة، وضمن له ابن غمر من ذلك ما رضىه وتمسك بابن عمه على ابن غمر فأقام عنده مكرماً متسع الجراية والإسهام إلى أن كان من الأمر ما نذكر.

الخبر عن قدوم ابن غمر على السلطان

ببجاية ونكة ابن ثابت وظافر الكبير

لما قدم ابن غمر على بجاية استبد بحجابه وكفاله كما كان،

وليوم وصوله فر عبد الله بن هلال كاتبه ابن خلوف، ولحق بتلمسان وشمر ابن غمر عزائمه للاضطلاع بأمره، ودفع حسن بن إبراهيم بن ثابت عن الرتبة فلم يتزحزح له، وخرج لبجاية الوطن. ثم أغرى به السلطان وحذره من استبداده بقسطنطينة لمكان معقله المجاور لها وسعيايات تنصح بها حتى صادفت القبول لمكانه والوثوق بنصائحه.

وخرج السلطان في العساكر من بجاية إلى قسطنطينة سنة ثلاث عشرة وسبعمئة للنظر في أحوالها. فلما انتهى إلى فرجيوة لقيه عبد الله بن ثابت فتقبض عليه وعلى أخيه حسن بن الحاجب سنة ثلاث عشرة وسبعمئة وقتلها بعد أن استصفى أموالهما، ويقال: إنه بعد خروج حسن بن ثابت إلى أعمال قسطنطينة بعث في أثره بعض مواليه، وأوعز معهم إلى عمل عبد الكريم بن منديل ورجالات سدويكش فقتلوه بوادي القطن. وأن السلطان لم يباشر نكبته، وكان ظافر الكبير بعد انهزامه وحصوله في أسر العرب كما قدمناه امتنعوا عليه وأطلقوه، ولحق بالسلطان أبي بكر فأثره واستخلصه كما كان لأخيه، وولاه على قسطنطينة عند نكبة ابن ثابت. واستكتب له أبا القاسم بن عبد العزيز لخلوه من الأدوات فأقام ظافراً والياً بقسطنطينة. ثم استقدمه السلطان إلى بجاية وقد غص ابن غمر بمكانه، فأغرى به السلطان فتقبض عليه وأشخصه في السفين إلى الأندلس.

الخبر عن منازل عساكر بني عبد الواد ببجاية وما كان في أثر ذلك من الأحداث

كان السلطان أبو يحيى بعد انهزامه عن بجاية سنة عشر وسبعمئة وبعث سعيد بن يخلف عن مواليه إلى أبي حمو موسى بن عثمان بن يغمراسن. وكان قد أتيح له في زناة المغرب الأوسط ظفر واعتزاز. وتملك أمصارهم من أيدي بني مرين من بعد مهلك يوسف بن يعقوب على تلمسان ودوخ جهاته، واستولى على أعمال مغراوة وتوجين، وملك الجزائر، واستنزل منها ابن علان الثائر بها وملك تدلس من يد ابن خلوف فبعث إليه السلطان في المواصل والمظافرة، وأن تكون يدهما على ابن خلوف واحدة، فطمع لذلك موسى بن عثمان في ملك بجاية. ثم بلغه مهلك ابن خلوف واستيلاء السلطان على ثغره فاستمر على المطالبة.

وادعى أن بجاية له في شرطه، وقارن ذلك لحاق صنهاجة إليه عند مهلك صاحبهم فرغبه في ملك بجاية وضموا له أمرها. ثم قدم عثمان بن سباع بن يحيى مغاضباً للسلطان لما كان من

ونالت منهم الحامية في المدافعة بالقتل والجراحة أعظم السيل، وقلوا راجعين فشيدها حصناً بأصفون وشحنه بالآقوات. ولما وصل محمد بن يوسف ومسامح وبجهم وطوفهما ذنب القصور والعجز وعزلهما. وبعث السلطان عسكرياً في البر وأسطولاً في البحر بعد رجوعه من قسطنطينة سنة أربع عشرة وسبعمئة لهدم حصن بني عبد الواد بأصفون، فخرّب وانتهت أقواته وعدده، وسرح أبو حمو عسكرياً لحصار بجاية عقد عليه لمسعود ابن عمه أبي عامر بن إبراهيم بن يغمراسن، فتنازلهما سنة خمس عشرة وسبعمئة واتصل لهم خروج محمد بن يوسف بن يغمراسن وبني توجين معه على أبي حمو، وأنهم أوقعوا به وهزموه، واستولوا على معسكره، فأجفل مسعود بن أبي عامر وعسكره وأفرجوا عن بجاية. ووصل على أثرها خطاب محمد بن يوسف بالطاعة والانقياد، فبعث السلطان إليه صنيعة محمد بن الحاج فضل بالهدية والآلة، ووعده بالمظاهرة وتسويغ الأسهم التي كانت ليغمراسن بإفريقية. وشغل بنو عبد الواد عن بجاية، وخرج السلطان في عساكره للإشراف على وطنه إلى أن كان ما نذكره.

الخبر عن استبداد ابن غمر ببجاية

لم يزل ابن غمر مستبداً على السلطان في حجابته يرى أن زمامه بيده وأمره متوقف على إنفاذه. وصار يغريه ببطانته فيقتلهم ويغريهم وربما كان السلطان يأتمن من استبداده عليه. وداخله بعض أهل قسطنطينة سنة ثلاث عشرة وتسعمئة في اغتياله ابن غمر فهموا بذلك، ولم يتم فقطن لها ابن غمر فأوقع بهم وقسمهم بين النكال والعذاب فرقاً. ثم رجع السلطان إلى بجاية سنة ثلاث عشرة وسبعمئة لما أهمهم حصاره، واتصلت حاله معه على ذلك النحو من الاستبداد إلى أن بلغ السلطان أشده وأرهف حده وسطا محمد بن فضل فقتله في خلوة معاقته من غير مؤامرة الحاجب.

الكتب التي كان الأمير أبو زكريا الأكبر جمعها واستجاد أصولها ودواوينها، أخرجت للوارقين فبيعت بدكاكينهم. فجمع من ذلك - زعموا - قناطير من الذهب تجاوز العشرين قنطاراً وجواليقين من حصى الدر والياقوت، وخرج من تونس إلى قابس مورياً بمشارفة عملها فاتح سنة سبع عشرة وسبعمائة بعد أن رتب الحامية بالحضرة وباجة والحمامات، واستخلف بالحضرة أبا الحسن بن وانودين وانتهى إلى قابس فأقام بها، وصرف العمال في جهاتها إلى أن كان من بيعة ولده بتونس ما تذكره بعد إن شاء الله تعالى.

الخبر عن نهض السلطان أبي بكر إلى الحضرة ورجوعه إلى قسطنطينة

لما خرج السلطان من هواراة إلى قسطنطينة سنة ست عشرة وسبعمائة كما قدمناه استبلغ في جهاد حركة أخرى إلى تونس، فاحتشد وقسم العطاء وأزاح العلل، واعترض الجنود عن طبقاتهم من زناتة والعرب وسديكش. واستخلف على قسطنطينة الحاجب محمد بن القالون وبعث إلى حاجبه الأعظم أبي عبد الرحمن بن غمر بمكانه من إمارة بجاية في مدد المال للنفقات والأعطيات. فبعث إليه منصور بن فضل بن مزني عامل الزاب، وكان ابن غمر لما رأى من كفايته وأنه جماعة للمال، استضاف له عمل جبل أوراس والحضنة وسديكش وعياض وسائر أعمال الضاحية، فكانت أعمال الجبابة كلها نظره، وأمواله في حسان دخله وخرجه، فبعثه ابن غمر ليقيم إنفاق السلطان. واستخلفه على خطة حجابته، وارتحل السلطان من قسطنطينة في جمادي سنة سبع عشرة وسبعمائة يطوي المراحل. ولقيه في طريقه وفود العرب، وانتهى إلى باجة فانقضت حاميتها إلى تونس.

وكان السلطان أبو يحيى بن اللحاني قد خرج عنها إلى قابس كما قدمناه، واستخلف عليها أبا الحسن بن وانودين، وبعث إليه بنهوض السلطان أبي بكر إلى تونس، وأنه محتاج إلى المدافعة، فاعتذر لهم اللحاني بما قبله من الأموال، وأطلق يدهم في الجيش والمال، فأركبوا واستحلقوا ورتبوا الديوان، وأخرجوا ابنه محمداً ويكنى أبا ضربة فأطلقوه واعتقله.

وبغتهم الخبر بإشراف السلطان أبي بكر على باجة، فخرجوا جميعاً من تونس، وخالفهم إلى السلطان مولاهم ابن غمر بن أبي الليل. كان مضطغناً مع الدولة متربصاً بها، لما كان اللحاني يؤثر عليه أخاه حمزة، فلقي السلطان في دوين باجة، فأعطاه صفقته واستحثه، ووصل إلى تونس، فنزل روض السناجرة

وبكر ابن غمر مقعده بباب السلطان فوجد شلوه ملقى في الطريق مضرجاً في ثيابه، وأخبر أن السلطان سطا به فدخله الريب من استبداد السلطان وإرهاق حده، وخشي بوادره، وتوقع سعاية البطانة ونغي الخلوة. فتحيل في بعده عنه واستبداده بالثغر دونه فأغراه بطلب إفريقية من يد ابن اللحاني، وجهزه بما يصلحه من الأكلة والفساطيط والعساكر والخدام، ورتب له المراتب. وارتحل السلطان إلى قسطنطينة سنة خمس عشرة وسبعمائة ثم تقدم غازياً إلى بلاد هواراة، وأجفل عنها ظافراً بمن تعاطى قائلها من مواليهم. فاستوفى جبابة هواراة، وقفل إلى قسطنطينة سنة ست عشرة وسبعمائة واستبد ابن غمر ببجاية ومدافعة العدو من زناتة عنها.

واستخلف على حجابته السلطان محمد بن القالون، وقرت عنه بما كان يؤمل من استبداده إلى أن كان من أمره ما تذكر.

الخبر عن سفر السلطان أبي يحيى بن اللحاني إلى قابس وتجافيه عن الخلافة

كان هذا السلطان أبو يحيى بن اللحاني قد طعن في السن، وكان بصيراً بالسياسة مجرباً للأمور، وكان يرى من نفسه العجز عن حل الخلافة واستحقاقها مع أبناء الأمير أبي زكريا الأكبر. وعلم مع ذلك استفحال صاحب الثغور الغربية الأمير أبي بكر واستغلاظ أمره بمن انتظم في ملكه، وارتسم في ديوان جنده من اعياص زناتة وفحول شلوه من توجين ومغراوة وبني عبد السواد وبني مرين.

كانوا ينزعون إليه مع الأيام عن ملوكهم خشية على أنفسهم لما قاسموهم في النسب وساهموهم في عيسوية القبيل وفحولية الشول، ومنهم من غلبوا على مواطنهم فملكوها عليهم مثل مغراوة وبني توجين ومليكش، فاستكتف بذلك جند السلطان وكثرت جموعه وهابه الملوك.

ونهض سنة ست عشرة وسبعمائة إلى إفريقية وجال في بلاد هواراة وأخذ جبايتها كما ذكرنا، فتوقع السلطان ابن اللحاني زحفه إليه بتونس. وكانت إفريقية مضطربة عليه، وكان تعويله في الحماية والمدافعة على أوليائه من العرب، تولى منهم حمزة بن علي بن عمر بن أبي الليل فحكمه في أمره وأشركه في سلطانه، وأفرده برئاسة العرب وأجره الرسن، وسرب إليه الأموال، وكثر بذلك زبون العرب واختلافهم عليه، فاعتزم على التفويض عن إفريقية ونفض اليد من الخلافة، فجمع الأموال والذخيرة، وباع ما كان بمودعاتهم من الآنية والفرش والحرثي والماعون والمتاع، حتى

جامع، وأخبروه بأن أبا ضربة بن اللحياني أجفل من باجة بعد أن نزلها معتمراً على اللقاء، فارتحل مولانا السلطان مغداً ولقيه مولاها ابن غمر فراجع الطاعة، وارتحلوا في اتباع أبي ضربة وجموعه حتى شافروا على القيروان، فخرج إليه عاملها ومشيعتها فالتقوا إليه باليد وأعطوا الطاعة.

وارتحل السلطان راجعاً عن اتباع عدوه إلى الحضرة وقد ترك بها أبو ضربة بن اللحياني من بطانته محمد بن الغلاق ليمانع دونها، فأخرج الرماة إلى ساحتها وقتل العساكر ساعة من النهار. ثم اقتحموها عليه، واستبيح عامة أرباضها وقتل ابن الغلاق ودخل السلطان إلى الحضرة في ربيع من سته، فأقام خلال ما انعقدت العامة. وقدم على الشرطة ميمون بن أبي زيد واستخلفه على البلد. ورحل في اتباع أبي ضربة بن اللحياني وجموعه فأوقع بهم بمصوح من جهات بلاد هوار.

وقتل من مشيخة الموحدين أبو عبد الله بن الشهيد من أهل البيت الحفصي، وأبو عبد الله بن ياسين. ومن طبقات الكتاب أبو الفضل البجائي وتقضى على شيخ الدولة أبي محمد عبد الله بن يغمور. وقيد إلى السلطان فعفا عنه ونوهه ليومه. ثم أعاده إلى خطه بعد ذلك. ورجع السلطان إلى تونس في رجب من سته. وكان السلطان أبو عيسى بن اللحياني لما بلغه الخبر بهوض السلطان إلى تونس حركته الثانية سنة سبع عشرة وسبعمئة وما كان من بيعة الموحدين والعرب لابنه أبي ضربة، ارتحل من مقامه بقباس إلى نواحي طرابلس. ثم بلغه رجوع السلطان إلى قسطنطينة فأوطن طرابلس فبنى مقعداً للملكه بسور البلد مما يلي البحر سماه الطارمة، وبعث العمال في الجهات لجباية الأموال، وبعث على جبال طرابلس أبا عبد الله بن يعقوب قريب حاجبه ومعه هجرس بن مرغم كبير الجوارى من دباب فدوخ البلاد وفتح المعادل وجبى الأموال وانتهى إلى برقة. واستخدم آل سالم وآل سليمان من عرب ذباب، ورجع إلى سلطانه بطرابلس ووافاه الخبر بانتهزام أبي ضربة ابنه، فبعث حاجبه أبا زكريا بن يعقوب ووزيره أبا عبد الله بن ياسين بالأموال لاحتشاد العرب، ففرقوها في علاق ودباب وزحف أبو ضربة إلى القيروان. وبلغ خبره إلى السلطان أبي بكر فخرج من تونس آخر شعبان سنة ثمان عشرة وسبعمئة فأجفلوا عن القيروان. ثم تدامروا وعقلوا رواحلهم مستيتين بزعمهم حتى أطلت عليهم العساكر بمكان فج النعام، فانفضت جموعهم وشردت رواحلهم وارتحلوا منهزمين، والقتل والنهب يأخذ منهم مأخذ. ونجا أبو ضربة في فله إلى المهديّة، وكانوا مقيمين على دعوة أبيه فامتنع بها إلى أن كان من شأنه ما سنذكره.

من رياض السلطان في شعبان من سنة سبع عشرة وسبعمئة وخرج إليه الملا وترددوا في البيعة بعض الشيء انتظاراً لشان أبي ضربة وأصحابه. وكان من خبرهم أن السلطان لما أغذ السير من باجة بادر حمزة بن عمر إلى بطانة اللحياني وأوليائه بتونس، فلقبهم وقد خرجوا عنها، فأشار عليهم ببيعة أبي ضربة بن السلطان اللحياني ومزاحمة القوم به، فبايعوه وزحفوا إلى لقاء السلطان.

ودس حمزة إلى أخيه مولاها أن يزحف بالمعسكر فأجفل السلطان من مقامته بروض السناجره لسبعة أيام من احتلاله قبل أن يستكمل البيعة، وارتحل إلى قسطنطينة ورجع عنه مولاها من تخوم وطنه، وسرح منصور بن مزني إلى ابن غمر ببجاية ودخل أبو ضربة بن اللحياني والموحدون إلى تونس منتصف شعبان من سته. وبوع بالحضرة البيعة العامة وتلقب بالمستنصر. وأراد أهل تونس على إدارة سور بالأرباض فيكون سباجاً عليها، فأجابوه إلى ذلك وشرع فيه، وأرهمقه العرب في مطالبهم واشتطوا عليه في شروطهم إلى أن عاود مولانا السلطان حركته كما نذكر.

الخبر عن استيلاء السلطان أبي بكر على الحضرة وإيقاعه بأبي ضربة وفرار أبيه من طرابلس إلى المشرق

لما قفل السلطان من تونس إلى قسطنطينة بعث قائده محمد بن سيد الناس بين يديه إلى بجاية فارتاب ابن غمر بوصوله، وتكر له وشعر السلطان بذلك وأغضى له عنها وطالبه في المدد، فاحتفل في الحشد والآلة والأبنية. وبعث إليه سبعة من رجال الدولة بسبعة عساكر وهم: محمد بن سيد الناس، ومحمد بن الحكم، وظافر السنان وأخوه من موالى الأمير أبي زكريا الأوسط، ومحمد المديوني ومحمد الجرسى ومحمد البطونى. وبعث له من فحول زناتة وعظمائهم عبد الحق بن عثمان من أعياص بني مرين، كان ارتحل إليه من الأندلس كما نذكر في خبره، وأبا رشيد بن محمد بن يوسف من أعياص بني عبد الواد فيمن كان معهم من قومهم وحاشيتهم.

وتوافوا بعساكرهم عند السلطان بقسطنطينة، فاعتزم على معاودة الزحف إلى تونس، وكان قد اختبر أحوال إفريقية وأحسن في ارتيادها، فخرج في صفر من سنة ثمانى عشرة وسبعمئة واستعمل على حاجبته أبا عبد الله بن القالون، ومرادفه أبو الحسن بن عمر ووافاه بالأريس وفد هوار وكبيرهم سليمان بن

تاشفين من بعده سنة ثمان عشرة وسبعمائة فتنفس فخنق الحصار عن بجاية ريثما كانت حركة السلطان إلى تونس وفتحها. ثم خرج أبو تاشفين من تلمسان لتهديد أعماله، وقتل محمد بن يوسف بمقله من جبل وانشرش كما ذكرناه في أخبارهم، فارتحل من هنالك غازياً إلى بجاية، فأطل عليه في سنة تسع عشر وسبعمائة وبدا له من حصنها وكثرة مقاتلتها وامتاعها ما لم يحتسب فانكفاً راجعاً إلى تلمسان، وأصاب ابن غمر المرض فبعث إلى علي ابن عمه بمكان عمله بقسطنطينية، وعهد إليه بأمره والقيام بولاية بجاية إلى أن يصل أمر السلطان.

وهلك لأيام على فراشه في شوال من سنة تسع عشرة وسبعمائة، وقام علي بن غمر بأمر بجاية، واتصل الخبر بالسلطان فأهمه شأن الثغر. وطير ابن سيد الناس إليه مع قهرمانه داره لتحصيل تراثه والبحث عن ذخيرته فاستوفى من ذلك فوق الكثرة من الصامت والذخيرة، وقدم به على السلطان واستقدم معه علي بن غمر، فأولاه السلطان من رضاه ما أحسب أمله، وأقام بالخرصة إلى أن كان منه خلاف مع ابن عمران. ثم راجع الطاعة وقد أحفظ السلطان بولاية عدوه. فلما عاد إلى تونس أوعز إلى مولا نجاح وهلال بقتله، فاغتالوه خارجاً من بستانه فأشوروه، وهلك من جراحته.

الخبر عن إمارة الأمير أبي عبد الله علي قسطنطينية وأخيه الأمير أبي زكريا علي بجاية وتولية القالون علي حجابته

لما هلك ابن غمر أهم السلطان شأن بجاية بما كانت عليه من شأن الحصار، ومطالبة بني عبد الواد لها فرأى أن يكثف الحامية بالثغور الغربية وينزل بها أبناءه للدفاع والحماية، وعقد على قسطنطينية لابنه الأمير أبي عبد الله وعقد على بجاية لابنه الآخر الأمير أبي زكريا وجعل حجابتها لأبي عبد الله بن القالون مستبداً عليهما لمكان صغرهما، وأكثف له الجند وأمره بالمقام ببجاية لممانعتها من العدو الملح على حصارها وارتحلوا من تونس فاتح سنة عشرين وسبعمائة احتفالاً من العسكر والصحاب والأهبة. وأبقى خطة الحجابة خلواً ممن يقوم بها. وأبقى على ابن القالون. وبقي للتصرف في الأمور من رجالات السلطان أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز الكردي الملقب بالزوار. وكان مقدماً على بطانة السلطان المعروفين بالدخلة. وعلى الأشغال الكاتب أبو القاسم بن عبد العزيز، وستذكر أوليتهما بعد. وانصرف إلى بجاية رافلاً في

وبلغ الخبر إلى أبيه بمكانه من طرابلس فاضطرب معسكره وبعث إلى النصاري في أسطول يحمله إلى الإسكندرية فوافوه بستة أساطيل فاحتمل أهله وولده، وركب البحر ومعه حاجبه أبو زكريا بن يعقوب إلى الإسكندرية، واستخلف على طرابلس أبا عبد الله بن أبي عمران من ذوي قرابته وصهره، فلم يزل بها إلى أن استدعاه الكموب ونصبوه للأمر، وأجلبوا به على السلطان مراراً كما نذكره بعد. وركب السلطان أبو يحيى بن اللحياني البحر إلى الإسكندرية فنزل بها على السلطان محمد بن القالون من ملوك الترك بمصر والشام واستقدمه إلى مصر فعظم من مقدمه واهتز للقائه ونوه من مجلسه، وأسنى من جرائته وأقطعه إلى أن هلك سنة ثمان وعشرين وسبعمائة ورجع السلطان أبو بكر إلى تونس بعد الواقعة على أبي ضربة وقومه بفتح النعام، فدخلها في شوال من سنته. واستقامت إفريقية على طاعته، وانتظمت أمصارها وثغورها في دعوته إلى المهدي وطرابلس كما ذكرناه إلى أن كان ما يأتي ذكره.

الخبر عن مهلك الحاجب ابن عمر ببجاية وولاية الحاجب محمد بن القالون عليها ثم الإدالة منه بابن سيد الناس

كان الحاجب بن عمر لما استبد ببجاية سنة خمس عشرة وسبعمائة، انتقل السلطان إلى قسطنطينية ولم يراجعها بعد. ثم لما رجع من تونس ثانية حركته سنة سبع عشرة وسبعمائة صرف إليه منصور بن فضل وبعث في أثره قائده أبا عبد الله محمد بن حاجب أبيه الحسن بن سيد الناس يهيء له قصوره ببجاية للتحول إليها، فرد ابن غمر وتنكر له وطالبه السلطان في المدد فبادر به فأقطعه جانب الرضا. وعقد له على بجاية وقسطنطينية كما ذكرنا ذلك كله قبل. فاستبد ابن غمر بالثغر وما إليه من الأعمال مقتصرأ على ذكر السلطان في الخطبة واسمه في السكة. وأقام على ذلك إلى أن ملك السلطان تونس واستولى على جهاتها، وبعث إليه بابن عمه محمد بن غمر فعقد أبو عبد الرحمن الحاجب على قسطنطينية فمضى إليها، وهو في خلال ذلك كله يدافع عساكر زناتة عن بجاية.

وقد كان أبو حمو صاحب تلمسان بعد ظهوره على محمد بن يوسف واسترجاعه بلاد مغراوة وتوجين من يده كما قدمناه يسرب العساكر لحصارها. وابتنى بالوادي على مرحلتين منها قلعة تكرر ليجمر بها الكتائب لحصارها. ثم هلك أبو حمود وولي ابنه أبو

حلل العز والتوبه إلى أن كان من أمره ما نذكر.

الخبر عن استقدام ابن القالون والإدالة منه

بابن سيد الناس في بجاية وبظافر الكبير في

قسنطينة

لما انصرف أبو عبد الله بن يحيى بن قالون إلى بجاية، وخلا وجه السلطان فيه لبطانته عند ولايته ببجاية، بشوا فيه السعايات ونصبوا له الغوائل، وتولى كبر ذلك المزوار ابن عبد العزيز بمداخلة أبي القاسم بن عبد العزيز صاحب الأشغال. وعظمت السعاية فيه عند السلطان حتى داخلت فيه المظنة، وعقد محمد بن سيد الناس على بجاية، نقله إليها من عمله باجة، وكتب له عهده بخطة واستقدم صاحبه محمد بن القالون فقدم، وقد تغير السلطان له ودخل ابن سيد الناس ببجاية، وقام بأمر حصارها وحجابه أميرها إلى أن استقدم للحجابه، وكان من أمره ما نذكره. ومر ابن القالون بقسنطينة في طريقه إلى الحضرة فحدثه نفسه بالامتناع بها، ودخل مشيختها في ذلك فأبوا عليه، فأشخصهم إلى الحضرة نكالاً بهم.

ونمي الخبر بذلك إلى السلطان فأمرها لابن القالون وعزم على استضافة الحجابه بقسنطينة لابن سيد الناس، فاستعفى مشيختها من ذلك وأروه أن ابن الأمين قريه وابن أخيه، وذكره ثروة أبيه فأقصر عن ذلك، وصرف اعترامه إلى مولاه ظافر الكبير وذلك عند قدومه من المغرب، وكان من خبره أنه كان من موالي الأمير زكريا، وكان له في دولة ابنه السلطان أبي البقاء ظهور، وهو الذي زحف هو بالعاسكر عندما استراب السلطان أبو البقاء بأخيه السلطان أبي بكر فأقام ببجاية. وجاء المزدوري والعرب إلى تونس في مقدمة ابن اللحياني فزحف إليهم ففضوه وتقبطوا عليه كما ذكرنا ذلك كله. ثم لحق بعدها بمولانا السلطان أبي يحيى وأعادته إلى مكانه من الدولة، وولاه قسنطينة عند مهلك ابن ثابت سنة ثلاث عشرة وسبعماية.

ثم غص به ابن غمر وأغرى به السلطان فأشخصه في سفين إلى الأندلس، وأجاز إلى المغرب. ونزل على السلطان أبي سعيد إلى أن بلغه الخبر بمهلك ابن غمر فكر راجعاً إلى تونس، ولقاه السلطان مبرة وتكرماً. ووافق ذلك وصول الحاجب ابن القالون من بجاية، فعقد السلطان لظافر هذا على حجابه ابنه بقسنطينة الأمير أبي عبد الله فقدمها وقام بأمرها، واستعمل ذويه وحاشيته

في وجه خدمتها وصرف من كان هنالك من الخدام أهل الحضرة إلى بلدهم. وكان بها أبو العباس بن ياسين متصرفاً بين يدي الأمير أبي عيد الله، والكااتب أبو زكريا بن الدباغ على أشغال الجباية، وكانا قدما من الحضرة في ركاب الأمير أبي عبد الله فصرهما القائد ظافر لحين وصوله، واستقل بأمره إلى أن كان ما نذكره.

الخبر عن ظهور ابن أبي عمران وفرار ابن

القالون إليه

كان محمد بن أبي عمران هذا من عقب أبي عمران موسى بن ابراهيم ابن الشيخ أبي حفص، وهو الذي ولي إفريقية نائباً عن أبي محمد عبد الله ابن عمه الشيخ أبي محمد عبد الواحد، كتب له بها من مراكش لأول ولايته، فأقام والياً عليها ثمانية أشهر إلى أن قدم آخر سنة ثلاث وعشرين وستماية، وأقام أبو عمران هذا في جلنتهم إلى أن هلك ونشأ بنوه في ظل دولتهم إلى أن كان من عقبه أبو بكر والد محمد هذا، فكان له صيت وذكر. وكان السلطان أبو يحيى زكريا بن اللحياني قد رعى له ذمة قرابته، ووصله بصهر عقده لابنه محمد على ابته. واستخلفه على تونس عند خروجه عنها.

ثم استخلفه على طرابلس عند ركوبه السفين إلى الإسكندرية. وكان أبو ضربة بعد انهزامه وافتراق جموعه اعتصم بالمهدية، ونازله بها السلطان أبو بكر فامتنعت عليه وأقلع عنها على سلم عقده لأبي ضربة وأقام حمزة بن عمر في سبيل خلافه على السلطان، ويتقلب في نواحي إفريقية حتى عظم زبوره على السلطان ونزع إليه الكثير من الأعراب وكثرت جموعه، فاستقدم محمد بن أبي عمران من مكان ولايته بشفر طرابلس.

وزحف إلى تونس معارضاً للسلطان قبل اجتماع عساكره وكمال تعييته، فخرج السلطان أبو بكر من تونس في رمضان من سنة إحدى وعشرين وسبعماية ولحق بقسنطينة وصحبه إليها مولاهم ابن عمر، وكان الحاجب محمد بن يحيى بن القالون قد غصته البطانة والحاشية بالسعاية فيه عند السلطان، وتبين له الخرافة عنه. وكان معز بن مطاع الفزازي وزير حمزة بن عمر وصاحب شواره صديقاً لابن القالون وغالصاً، فداخله في الأجلاب بابن عمران. فلما خرج السلطان أمام زحفه تخلف القالون بتونس، وركب من الغد في البلد منادياً بدعوة ابن أبي عمران. ودخل محمد بن أبي عمران ثانية خروج السلطان، واستولى على الحضرة وأقام بها بقية سنته، وصدر من الأخرى، ولحق السلطان

الخبر عن واقعة رغيص مع ابن اللحياني وزناته وواقعة الشقة مع ابن أبي عمران

لما انهزم حمزة بن عمر وابن أبي عمران عن تونس مرة بعد أخرى ورأى حمزة ابن أبي عمران غير مغن عنه فصرفه إلى مكان عمله بظرابلس، وبعث إلى أبي ضربة ابن السلطان اللحياني بمكانه من المهدي فداخله في الصريخ بزناة والوفود على سلطان بني عبد الواد فرحل معه أبو ضربة ووفدوا على أبي تاشفين صاحب تلمسان ورغوبه في الظفر ببجاية، وأن يشغل صاحب تونس عن مددها بترديد البعوث وتجهيز العساكر إليه، فسرح معهم السلطان آلافاً من العساكر وعقد عليها لموسى بن علي الكردي صاحب الثغر بتميز زدكت، وكثير الحاشية والرجالات. وارتحلوا من تلمسان يغدون السير، وبلغ السلطان خبر فصولهم بتلمسان فبرز للقائهم من تونس في عساكره حتى انتهى إلى رغيص بين بونة وقسطنطينة.

ولما أطلت عساكر زناته والعرب اختل مصاف السلطان، وانهزمت المجنات وثبت في القلب وصدق العزيمة واللقاء، فاختل مصافهم وانهزموا في شعبان سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة، وامتلأت أيدي العساكر من أسلابهم من نساء زناته، ومن عليهن السلطان وأطلقهن. ورجع أبو ضربة وموسى بن علي الكردي في فلهم إلى تلمسان، وعاد السلطان إلى حضرته لأيام من هزيمتهم. ولقيه الخبر في طريقه باجتماع العرب وابن أبي عمران بنواحي القروان، فتخطى الحضرة إليهم ولقيهم بالشقة، وأوقع بهم ورجع إلى تونس في شوال من سنة أربع وعشرين. فأتبعه حمزة ومن معه إلى تونس عندما افترقت العساكر، ومعه إبراهيم بن الشهيد من البيت الحفصي.

وسبق إليه بخبرهم عامر بن بو علي بن كثير وسحيم بن.... فخرج للقائهم من يومه في خف من الجنود بعد أن بعث عن عسكر باجة، وقائدها عبد الله العاقل مولا فصبه العرب بنواحي شاذلة فقاتلوه صدرها وحى الوطيس، ووصل عبد الله العاقل والناس متواقفون، واشتدت الحرب ثم كانت الهزيمة على العرب، واستبيحت حرماهم وافترت جموعهم، ورجع السلطان إلى البلد واستقر بالحضرة.

بقسطنطينة فجمع عساكره واحتشد جموعه، وأزاح العلل واستكمل التعبئة وزحف منها في صفر سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة، وخرج ابن أبي عمران للقائه مع حمزة بن عمر في جموع العرب ولقيهم السلطان أولى وثانية بالرجلة وأوقع بهم، وقتل شيخ الموحدين أبا عبد الله بن أبي بكر. وكان على مقدمتهم محمد بن منصور بن مزني وغيره. وأتخت العساكر فيهم قتلاً وأسراً، وكان للسلطان فيها ظهور لا كفاء له. ثم تقبض على مولاهم ابن عمر فكان من خبره ما نذكره.

الخبر عن مقتل مولاهم بن عمر وأصحابه من الكعوب

لما أتيح للسلطان من الظهور على ابن عمران وأتباعه والظفر بهم ما أتيح، وصنع له فيه رغم أنف مولاهم ابن عمر، وظهرت مع أصحابه كلمات أنبات بفساد دخلتهم. ثم غي للسلطان أن مولاهم داخل في الفتك به ابنه منصور وربييه زعدان ومعدان ابني عبد الله بن أحمد بن كعب، وسليمان بن جامع من شيوخ هواره. وشى بذلك عنهم ابن عمهم عون بن عبد الله بن أحمد بعد أن داخلوه فيها، فتصمح بها للسلطان. فلما عدوا على السلطان تقبض عليهم وبعثهم إلى تونس فاعتقلوا بها، ورجع هو إلى الحضرة فدخلها في جمادى من سته. وجد البيعة على الناس، وزحفت العرب في أتباعه حتى نزلوا بظاهر البلد وشرطوا عليه إطلاق مولاهم وأصحابه، فأنفذ السلطان قتلهم فقتلوا بمحبسهم، وبعث بأشلاتهم إلى حمزة فعظم عنده موقع هذا الحزن، وصرخ في قومه وتأمروا أن يثأروا بصاحبهم.

وأغذوا السير إلى الحضرة ودخل ابن أبي عمران معهم على حين افتراق وإراحة السلطان. وظنوا أنهم يتنهزون الفرصة، وخرج السلطان عن تونس لأربعين يوماً من دخوله ولحق بقسطنطينة ودخل ابن أبي عمران إلى تونس فأقام بها ستة أشهر خلال ما احتشد السلطان جموعه واستكمل تهيئته. ونهض من قسطنطينة وزحف إليه ابن أبي عمران وحمزه بن عمر في جموعه. فأوقع السلطان بهم وأتخن فيهم وشردهم في النواحي وعاد إلى تونس فدخلها في صفر سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة، ومضى حمزة لوجهه إلى أن كان من أمره ما نذكره.

الخبر عن أجلاب حمزة بإبراهيم بن الشهيد وتغلبه على الحضرة

لما انهزم أبو ضربة بن اللحياني وحمزة بن عمر وعساكر بني عبد الواد لحق أبو ضربة بتلمسان فهلك بها، ولقي حمزة بعده من الحروب مع السلطان ما لقي، ويش الكعوب من غلبه وتدامروا لفتنته والإجلاب عليه، فوفد حمزة بن عمر على أبي تاشفين صريحاً ومعه طالب بن مهلهل، قرنه في قومه، ومحمد بن مسكين شيخ بني حكيم من أولاد القوس وكلهم من سليم ومعهم الحاجب ابن القالون، فاستحثوا عساكره لصريحهم فكتب لهم السلطان كتيبة عقد عليها لموسى بن علي الكردي وأعادهم معهم. ونصب لهم لملك تونس من أعياص أبي حفص إبراهيم بن الشهيد منهم، وأبوه الشهيد هو أبو بكر بن أبي الخطاب عبد الرحمن الذي نصب للأمر عند مهلك السلطان أبي عصيدة، وقتله السلطان أبو البقاء خالد كما ذكرناه. وكان إبراهيم هذا قد لحق بالعرب ونصبوه للأمر وأجلبوا به على تونس أثر واقعة رغيث وبرزت إليهم العساكر فانهزموا كما ذكرناه، ولحق بتلمسان وجاء هذا الوفد على أثره فنصبه السلطان أبو تاشفين لهم واستعمل على حجابته محمد بن يحيى بن القالون، وبعث معهم العساكر لنظر موسى بن علي الكردي وزحفوا إلى إفريقية. وخرج السلطان أبو بكر من تونس للرافعة من سنة أربع وعشرين وسبعمئة وانتهى إلى قسطنطينة وعاجلوه قبل استكمال التعبئة فنزلوا بساحتها. وأقام موسى بن علي على منازلها بعساكر بني عبد الواد. وتقدم إبراهيم بن الشهيد وحمزة بن عمر إلى تونس فدخلها في رجب سنة خمس وعشرين وسبعمئة واستمكن منها، وعقد على باجة لمحمد بن داود من مشيخة الموحدين وثار عليه في بعض ليالي رمضان بعض بطانة السلطان كانوا بالبلد في غيابات الاختفاء، وكان منهم يوسف بن عامر بن عثمان، وهو ابن أخي عبد الحق بن عثمان من أعياص بني مرين، وفيهم القائد بلاط من وجوه الترك المرتزقة بالحضرة، وابن جبار نقيب الشرفاء فاعتدوا واجتمعوا من جوف الليل وهتفوا بدعوة السلطان وطافوا بالقصبة فامتنعت عليهم، فعمدوا إلى دار كشلي من الترك المرتزقة، وكان بطانة لابن القالون فقاتلوا وامتنت عليهم. ثم أعجلهم الصباح عن مرابهم وتبعوا بالقتل، وفرغ من شأنهم، وكان موسى بن علي ومن معه من العساكر لما تخلف عن ابن الشهيد لخصاص قسطنطينة أقام عليها أياماً، ثم أفلح عنها لخمسة عشرة ليلة من منازلته ورجع إلى صاحبه بتلمسان. وخرج السلطان من قسطنطينة

فاستكمل الحشد والتعبية، ونهض إلى تونس فأجفل منها ابن الشهيد وابن القالون، ودخلها السلطان في شوال سنة خمس وعشرين وسبعمئة واستولى على دار ملكه، وأقام بها إلى أن كان من أمره ما نذكره.

الخبر عن حصار بجاية وبناء تيمرزكت وانهازم عساكر السلطان عليها

كان أبو تاشفين منذ خلا له الجو وتمكن في الأمر منه القوم يلح على بجاية بترديد البعوث ومطاوله الحصار، والسلطان أبو بكر يدفع لحمايتها والممانعة دونها من رجال دولته وعظماء وزرائه الأول، فالأول من أهل الكفاية والاضطلاع بما يدفع إليه من ذلك. وسرب إليهم المدد من الأموال والأسلحة والجنود وتعهد إليهم بالصبر والثبات في المواطن ونظره من وراء ذلك. وكان أبو تاشفين كلما أحس من السلطان أبي بكر بهوضه إلى المدافعة عنها، أو عزم على غزو كتائبه المجمرة عليها رماه بشاغل يوهن من عزمه ويسكن عنان بطشه. وكانت فتنة حمزة ابن عمر من أدهى الشواغل في ذلك بما كان يجنب العرب عن الطاعة، ويجمع الأحزاب للإجلاب على الحضرة، وينصب الأعياص يطعمهم فيما ليس لهم من نيل الخلافة. وكان ذلك ديدناً متصلاً أزمان تلك المدة.

ولما سرح أبو تاشفين العساكر سنة خمس وعشرين وسبعمئة مع إبراهيم بن الشهيد وحمزة بن عمر وأوليائهم من أهل إفريقية، وعقد عليها لموسى بن علي من رجالته، فنازل قسطنطينة ثم أفلح عنها وعاود حصارها سنة ثمان وعشرين وسبعمئة. وشن الغارة في نواحيها، واكتسح الأموال ورجع إلى وادي بجاية فاخطت مدينة بتيكلات على مرحلة منها، وعلى قارعة الطريق الشارع من الغرب إلى الشرق وبما كانت بجاية زائفة عنه إلى البحر، فاخطوا تلك المدينة وشيدوها وجمعوا الأيدي عليها، وقسموها مسافات على جيوشهم فاستمت لأربعين يوماً وسموها تيمرزكت باسم حصنهم الأقدم بالجبل قبالة وجدة، حيث امتنع يغمراسن على السعيد ونازله وهلك عليه كما ذكرناه في أخباره. وشحنوا هذه المدينة بالأقوات والمدد وعمروها بالمقاتلة من الرجل والفرسان والقبائل، وأخذت بمخنت البلد.

وقلق السلطان بما كانها فأوعز إلى قواد عساكره وأصحاب عمالاته من مواليه وصنائعه أن ينفروا بعساكرهم إلى صاحب الثغر محمد بن سيد الناس ويزحفوا معه إلى هذا البلد المخروب،

وجدنا الأقرب فأبى، ورغب في الإقالة فأجحف جنوحاً لما كان بسبيله منذ سنين من الصاغية إلى الدين والرغبة في السكون والفرار من الرتب. وأشار على السلطان بصاحب الثغر محمد بن أبي الحسين بن سيد الناس لتقديعه سلفه مع سلف السلطان، وكثرة تابعه وحاشيته وقوة شكيمة في الاضطلاع بما يدفع إليه.

أخبرني بهذا الخبر أبي رحمه الله وصاحبنا محمد بن منصور بن مزني، قال لي: حضرت لاستدعاء جدكم إلى معسكر السلطان بياجة يوم مهلك المزوار، وأدخله السلطان إلى رواقه، وغاب ملياً ثم خرج وقد استفاض بين البطانة والحاشية أنه دعي إلى الخطة فاستنكرها، وأقام السلطان يومئذ في خطة الحجابة الكاتب أبا القاسم بن عبد العزيز يقيم الرسم، واستقدم خالسته محمد بن حاجب أبيه أبي الحسين بن سيد الناس، فقدم في عزم فاتح ثمان وعشرين وسبعمائة وولاه حجابته فاضطلع لها، وجدد له العقد على بياجة وحجابة ابنه بها، فدفع إليها للنيابة عنه في الحجابة صنيعة محمد بن فرحون، ومعه كاتبه أبو القاسم بن المريد. وجرى الحال على ذلك ببياجة وعساكر زناتة تجوس خلالها ومعاقلمهم تأخذ بمخنفها. وقدم القالون دوين مقدم ابن سيد الناس بشفاعة من نزيله علي بن أحمد سيد الدواودة، وطمع في عوده إلى الخطة.

وكان من خبره أنه لما تخلف عن السلطان بتونس في خدمة ابن أبي عمران رأى ركوب السفين إلى الأندلس، فاعجلهم السلطان عن ذلك وخرج ابن أبي عمران فأجلب معه على الحضرة مراراً، ولحق بتلمسان. ثم جاء مع ابن الشهيد وفعل الأفاعيل، ثم اغل أمر ابن الشهيد، ولحق هو بالدواودة من رياح. ونزل على علي بن أحمد رئيسهم لذلك العهد فأجاره وأنزله بطولقة من بلاد الزاب، وخاطب السلطان في شأنه واقتضى له الأمان حتى أسعف ووفد على الحضرة مع أخيه موسى بن أحمد، وفي نفس القالون طمع في الخطة. وسبقه ابن سيد الناس إلى السلطان فاستقل بها. وجاء القالون من بعده فأوصله السلطان إلى نفسه، واعتذر إليه ووعدته وعقد له على قفصة فصار إليها وصحب موالي السلطان من المملوحي بشير وفارح وأوعز ابن سيد الناس إلى مشيخة قفصة أن يتقبضوا على حاميته ليتمكن الموالي منه. فلما نزل بساحة البلد دخل كشلي من جند الترك المرتقة كان في جملة منذ أيام حجابته وكان يستظهر بمكانه. فلما دخل إلى البلد قتل في سككها فكانت لقتله هيعة تسمع الناس بعظمها من خارج البلد، وبرز القالون من فسطاطه وقد جث للربع فتقدم إليه الموالي الذين جاؤوا معه وتناولوه طعناً بالخناجر إلى أن هلك. والله وارث الأرض ومن عليها.

ويستمتوا دون تخريبه، فنهض ظافر الكبير من قسطنطينة وعبد الله العاقل من هواره وظافر السنان من بونة: وتوافروا ببياجة سنة سبع وعشرين وسبعمائة وبلغ موسى بن علي خيرهم فاستنفر من عساكر بني الواد، وخرجت العساكر جميعاً من بياجة تحت لواء ابن سيد الناس. وزحف إلى العدو بمخيمهم من تيكلات فكانت الدبرة عليه وعلى أصحابه، وقتل ظافر الكبير ورجع فلهم إلى بياجة. وداخلت ابن سيد الناس فيهم الفلنة بما كان يداخل موسى بن عيسى في زبون كل واحد منهما بصاحبه على سلطانه. فمنعهم من دخول البلد ليلتذ وأسحروا قافلين إلى أعمالهم، وعقد السلطان على قسطنطينة لأبي القاسم بن عبد العزيز أياماً. ثم استقدمه إلى الحضرة ليستعين به محمد بن عبد العزيز المزوار في خطة حجابته بما كان غفلاً من الأدوات التي تحتاج إليها الحجابة. وعقد على حجابة ابنه الأمير أبي عبد الله بقسطنطينة لمولاه ظافر السنان إلى أن كان من تحويل بنائه ما نذكره.

الخبر عن مهلك الحاجب المزوار وولاية ابن سيد الناس مكانه ومقتل ابن القالون

هذا الرجل محمد بن القالون المعروف بالمزوار، لا أدري من أوليته أكثر من أنه كردي من الأكراد الذين وفد رؤساؤهم على ملوك المغرب أيام أجلاهم التتر عن أوطانهم بشهرزور عند تغلهم على بغداد سنة ست وخمسين وستمائة: فمنهم من أقام بتونس، ومنهم من تقدم إلى المغرب فتزلوا على المرتضى براكش فأحسن جوارهم. وصار قوم منهم إلى بني مرين وآخرون إلى بني عبد الواد حسبما نذكر في أخبارهم.

ومن المقيمين بالحضرة كان سلف ابن عبد العزيز هذا إلى أن نشأ هو في دولة الأمير أبي زكريا الأوسط صاحب الثغور الغربية، وتحت كنف من اصطناعه. واختلط بأبنائه وقدم في جملة ابنه السلطان أبي بكر إلى تونس مقدماً في بطائه ورئيساً على الحاشية المسمين بالدخلة، وكان يعرف لذلك بالمزوار. وكان شهماً وقوراً متديناً وله في الدولة حظ من الظهور، وهو الذي تولى كبر السعاية في الحاجب ابن القالون حتى ارتاب بمكانه. وفر إلى ابن أبي عمران سنة إحدى وعشرين وسبعمائة كما قدمناه. وولاه السلطان الحجابة مكانه فقام بها مستعيناً بالكاتب أبي القاسم بن عبد العزيز لخلوه هو من الأدوات. وإنما كان شجاعاً بهمة.

ولم يزل على ذلك إلى أن هلك في شعبان سنة سبع وعشرين وسبعمائة وأراد السلطان على الحجابة محمد بن خلدون

الخبر عن ولاية الفضل على بونة

كان السلطان عقد على بونة منذ أول دولته لمولاه مسرور العلوجي فقام فاضطلع بولايتها، وكان من الغلظة ومراس الحروب بمكان. وكان مع ذلك غشوماً جباراً وخرج إلى ولهاصة سنة... * فاضطهدهم وذهبوا إلى مدافعتهم عن أموالهم فحاربهم. وبلغ خبر مهلكه إلى السلطان فعقد على بونة لابنه أبي العباس الفضل، وبعثه إليها. وولى على حجابته وقيادة عسكره ظافراً السنان من مواليه العلوجين فقام بما دفع إليه من ذلك أحسن قيام إلى أن كان من أمرهم ما نذكره.

الخبر عن واقعة الرياس وما كان قبلها من مهلك الأمير أبي فارس أخيه السلطان

كان السلطان أبو بكر لما قدم إلى تونس قدم معه إخوته الثلاثة محمد وعبد العزيز وعبد الرحمن، وهلك عبد الرحمن منهم وبقي الآخرون. وكانا في ظل ظليل من النعمة، وحظ كبير من المساهمة في الجاه. وكان في نفس الأمير أبي فارس تشوق إلى نيل المرتبة وترتب بالدولة. وكان عبد الحق بن عثمان بن محمد بن عبد الحق من فحول بني مرين وأعياص ملكهم قدم على الحضرة نازعاً إليها من الأندلس، فنزل على ابن عمر بيجاية قبيل مهلكه سنة ثمان عشر وسبعمئة ثم لحق بالسلطان فلقاه مرة ورحباً، ووفر حظه وحظ حاشيته من الجرايات والأقطاع، وجعل له أن يستركب ويستلحق، وكان يستظهر به في مواقف حروبه، ويتجمل في المشاهد بمكانه من سريره بما كان سيداً في قومه. وكان قد انعقدت له بيعة على أهل وطنه، وكانت فيه غلظة وأنفة وإباء. وغدا في بعض أيامه على الحاجب ابن سيد الناس فتلقيه الإذن بالغدر، فذهب مغاضباً، ومر بدار الأمير أبي فارس فعمله على ذات صدره من الخروج والثورة، وخرجا من يومهما في ربيع سنة تسع وعشرين وسبعمئة ومرا ببعض أحياء العرب فاعترضهما أمير الحي فعرض عليهما النزول، فأما عبد الحق فأبى وذهب لوجهه إلى أن لحق بتلمسان، وأما الأمير أبو فارس فاجاب ونزل، وطير بالخبر إلى السلطان فسرح لوقته محمد بن الحكيم من صناعته وقواد دولته في طائفة من العسكر والنصارى، فصبحوه في الحي وأحاطوا ببيت نزله فامتنع من الإلقاء باليد، ودافع عن نفسه مستميتاً فقتلوه قعصاً بالرماح، وجاؤوا بشلوه إلى الحضرة فدفن بها.

ونزل عبد الحق بن عثمان على أبي تاشفين خير نزل، ورغبه فيما كان بسبيله من مطالبة الدولة الخفصية وتدويخ ممالكها، وفد على أثره حمزة بن عمر ورجالات سليم صريحاً على عاداتهم. فأجاب أبو تاشفين صريحهم ونصب لهم محمد بن أبي عمران وكان من خبره أنه تركه السلطان اللحياني عاملاً على طرابلس. فلما انهزم أبو ضربة وانحل أمره استقدمه العرب وأجلبوا به على الحضرة سنة إحدى وعشرين وسبعمئة فملكها سنة أشهر. ثم أجفل عنها عند رجوع السلطان إليها، ولحق بطرابلس إلى أن انتقض عليه أهلها سنة أربع وعشرين وسبعمئة وثاروا به وأخرجوه فلحق بالعرب وأجلبوا به على السلطان مراراً ينهزمون عنه في كلها.

ثم لحق بتلمسان واستقر بها عند أبي تاشفين في خير جوار وكرامة وجراية إلى أن وصل هذا الوفد إليه سنة تسع وعشرين وسبعمئة فنصبه للأمر بإفريقية. وأمدهم بالأسكر من زناته. عقد عليهم ليحيى بن موسى من بطائنه وصنائع أبيه. ورجع معهم عبد الحق بن عثمان بمن في حملته من بنيه وعشيرته ومواليه وحاشيته. وكانوا أحلاس حرب وفتيان كريمة، فنهضوا جميعاً إلى تونس فزحف السلطان للقائهم وتراءى الجمعان بالرياس من نواحي بلاد هوار سنة سبع وعشرين وسبعمئة، فدارت الحرب واختل مصاف السلطان، وأفلت جموعه. وأحيط به فأفلت بعد عصب الريق، وأصابته في حومة الحرب جراحة وهن لها، وقتل كثير من بطائنه وحاشيته، وكان من أشهرهم محمد المديوني. وانتهب المعسكر وتقبض على أحمد وعمر ابني السلطان فاحتملا إلى تلمسان حتى أطلقهما أبو تاشفين بعد ذلك في مراسلة وقعت بينه وبين السلطان فاتمه فيها أبو تاشفين، وجنح إلى السلم وأطلق الابنين ولم يتم شأن الصلح من بعد ذلك. وتقدم ابن أبي عمران بعد الواقعة إلى تونس فدخلها في صفر سنة ثلاثين وسبعمئة واستبد عليه يحيى بن موسى قائد بني عبد الواد، وحجب التصرف في شيء من أمره، ثم عاد يحيى بن موسى إلى سلطانه. ونهض السلطان أبو بكر من قسطنطينة إلى تونس بعد أن استكمل الحشد والتعبية، فأجفل ابن أبي عمران عنها، ودخل إليها السلطان في رجب من سنة إلى أن كان ما نذكره.

الخبر عن مراسلة ملك المغرب في الاستجاشة على بني عبد الواد وما يتبع ذلك من المصاهرة

كان مهلك السلطان أبي سعيد على تفتنة ما قدمناه من الأخبار آخر سنة إحدى وثلاثين وسبعمئة وولي السلطان أبو الحسن من بعده فبعث إلى ابن تاشفين يخاطبه في الغض عن عنان عيته ببلاد الموحدين وطغيانه عليها، فليج وأستكر وأساء الرد، فنهض إليه في سبيل الصريخ لهم سنة اثنتين وثلاثين وسبعمئة وطوى البلاد طياً إلى تلمسان، وأفرجت عساكرهم عن بجاية إلى سلطانهم. وتقدم السلطان عن تلمسان لمشاركة أحوال بجاية والأخذ بمحجة العدو المحاصر لها ويحث عسكراً من قومه مدداً لهم عقد عليهم لمحمد البطوي، وأركبهم أساطيله من سواحل وهران فدخلوا إليها وقبولوا بما يناسبهم من الكرامة والجراية. واستنهض السلطان أبو الحسن أبا بكر حصار تلمسان معه كما كان الشرط بين أبيه وبين ابنه الأمير أبي زكريا، فشرع السلطان في جهاز حركته وإزاحة عائلته. وأقام السلطان أبو الحسن في تياسالة في انتظاره شهراً حتى انصرم فصل الشتاء.

وبلغه بمسكركه من تاسالة أن أخاه السلطان أبا علي صاحب سبلماسة انتفض وخرج إلى درعة، فقتل عامله عليها بعد أن كان داخله وعقد له على المهادنة والتجافي عنه بمكانه من سبلماسة. فلما بلغه هذا الخبر كر راجعاً إلى المغرب لإصلاح شأنه.

وكان السلطان أبو بكر قد خرج من تونس واحتفل في الحشد والتعبية فأنتهى إلى بجاية وبعث مقدماته إلى ثغور بني عبد الواد المحيطة ببجاية فهزموا كتابها. ثم زحف بمجملته إلى تيمزدكت، وفرت عنها الكتائب المجرمة بها، فأناخ عليها حتى خربها وانتهب أموالها وأسلحتها، ونسف آثارها وقفل عنها إلى بلد المسيلة أختها في الغي، وموطن أولاد سباع بن يحيى من الدواودة، كانت مشيختهم سليمان ويحيى ابنا علي بن سباع وعثمان بن سباع عمهم وابنه سعيد، قد تمسكوا بطاعة أبي تاشفين وحملوا عليها قومهم، ونهجوا لعساكره السبيل إلى وطء بلاد الموحدين والعيث فيها ومجاذبة جبلها.

وأقطعهم أبو تاشفين بلد المسيلة وجبل متنان ووانوغة وجبل عياض فأصاروها من أعمالها، فلما شرد السلطان عساكرهم عن بجاية وهدم ثغرهم عليها واسترجع أعمال بجاية إليها سار بجموعه إلى هذا الوطن ليسترجع أعماله ويمجد به دعوته. وزاد في

كان السلطان أبو بكر لما خلاص من واقعة الرياس نجاً إلى بونة، وركب منها البحر إلى بجاية، وقد ضاق ذرعه بإلحاح عبد الواد على ممالكه وتجهيز الكتائب على ثغره وترديد البعوث إلى وطنه، فأعمل نظره في الوفادة على ملك المغرب السلطان أبي سعيد ليذكره ما بين سلفه وسلفهم من السابقة، مع ما لهم عند بني عبد الواد من الأوتار والإحن، ليعث بذلك دواعيهم على مطالبة بني عبد الواد: فيأخذ بمحزتهم عنه.

ثم عين للوفادة عليه ابنه الأمير أبا زكريا، وبعث معه أبا محمد عبد الله بن تافراكين من مشيخة الموحدين لساناً لخطابه ونجياً لشواره. وركبوا البحر من بجاية فنزلوا بمرسى غساسة، واهتز صاحب المغرب لقدمه وأكرم وفادته واستبلغ في القرى والإجارة، وأجاب دعاءهم إلى محاربة عدوهم وعدوه على شريطة اجتماع اليد عليها وموافاة السلطان أبي سعيد والسلطان أبي يحيى بعساكرهما لتلمسان لموعده ضربه لذلك.

وكان السلطان أبو سعيد قد بعث سنة إحدى وعشرين وسبعمئة يحيى الزنداجي قائد الأسطول بسببة إلى مولانا السلطان أبي بكر في الإصهار على إحدى كرائمه، وشغل عن ذلك بما وقع من شأن ابن أبي عمران. فلما وفد عليه ابن السلطان وأولياؤه أعاد الحديث في ذلك، وعين للنباية عنه في الخطبة من السلطان إبراهيم بن أبي حاتم العزفي وصرفه مع العدو، فوافوا السلطان بتونس آخر سنة ثلاثين وسبعمئة وقد طرد عدوه وشفى نفسه، فجأؤوه بأمنيته من حركة صاحب المغرب على تلمسان. وخطب منه إبراهيم للأمير أبي الحسن ابن السلطان أبي سعيد، فعقد على ابنته فاطمة شقيقة الأمير أبي زكريا السفير إليهم وزفها إليه في أساطيله سنة إحدى وثلاثين وسبعمئة وتقدم لزفافها من مشيخة الموحدين أبو القاسم بن عتو ومحمد بن سليمان الناسك، وقد مر ذكره، فنزلت على محل وثير من الغبطة والعز، وكان الشأن في مهرها وزفافها ومشاهد أعراسها وولائمها وجهازها كله من المفاخر للدولتين، ولم يزل مذكوراً على الأيام.

لأمرهما.

فأما أبو تاشفين فنكس موسى بن علي كما نذكره في أخباره، وأما السلطان أبو بكر فأغضى لابن سيد الناس عنها. ثم استدعاه وقلده حجابته سنة سبع وعشرين وسبعمائة كما قدمناه، واستخلف على مكانه بيجاية محمد بن فرحون وأحمد بن المزيدي للقيام بما كان يتولاه من مدافعة العدو وكفالة الأمير أبي زكريا ابن السلطان. وقدم هو على السلطان وأسكنه بقصور ملكه، وفوض إليه أمور سلطانه، تفويض الاستقلال، فجري في طلق الاستبداد عليه وأرخص له السلطان حبل الإمهال واعتد عليه فلتات الدالة مع ما كانت الظنون ترجع فيه بالمداينة في شأن العدو والزبون على مولاه باستغلاظهم. وأمهله السلطان لمكانه من حماية الثغر بيجاية والاستقلال به دونه، حتى إذا تجلت غصامتهم، وأطل أبو الحسن عليهم من مرقبه ونهض السلطان أبو بكر إلى بيجاية وخرب تيمرزكت، فأغراه البطانة حينئذ بالحاجب محمد بن سيد الناس.

وتبته له السلطان فأحفظ له استبداده وتقض عليه مرجعه من هذه الحركة في ربيع سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة واعتقله. ثم امتحنه بأنواع العذاب لاستخراج المال معه فلم ينبس بقطرة، وما زال يستغيث ويتوسل بسوابقه من الرضاع والمربي، وسوابق أبيه عند سلفه حتى لدغه العذاب فأفحش، ونال من السلطان وأقنع فقتل شديداً بالعصي وجرح شلوه فأحرق خارج الحضرة وعفا رسمه كان لم يكن، وإلى الله عاقبة الأمور.

ولما تقبض السلطان على ابن سيد الناس ومحا أثر استبداده قلد حجابته الكاتب أبا القاسم بن عبد العزيز، وقد كان قدم من الحمة عند مبايعة ابن مكي لعبد الواحد بن اللحياني فلحق بالسلطان في طريقه إلى تيمرزكت، فلم يزل معه إلى أن دخل حضرته، وتقبض على ابن سيد الناس فولاه الحجابة، وكان مضعفاً لا يقوم بالحرب، فعقد السلطان على الحرب والتدبير لضيعته وكبير بطانته يومئذ محمد بن الحكيم وفوض له فيما وراء الحضرة، وهو محمد بن علي بن محمد بن حمزة بن إبراهيم بن أحمد اللخمي، ونسبه في بني العزفي الرؤساء بسبته. وجده أحمد هو أبو العباس المذكور بالعلم والدين والد أبي القاسم المستقل برئاسة سبته بعد الموحدين، وكان من خير أوليته فيما حدثني به محمد بن يحيى بن أبي طالب العزفي آخر رؤساء العزفين بسبته، والمتقضي أمرهم بها بانتضاء رئاسته، وحدثني بها أيضاً حسين ابن عمه عبد الرحمن بن أبي طالب، وحدثني بها أيضاً الثقة عن إبراهيم ابن عمهما أبي حاتم قالوا جميعاً: إن أبا القاسم العزفي كان له أخ يسمى إبراهيم، وكان مسرفاً على نفسه وأصاب دماً في سبته،

إغرائه بذلك علي بن أحمد كبير أولاد محمد لقتال أولاد سباع هؤلاء ونظرانهم وأهل أوتارهم ودخولهم، فارتحل غازياً إلى المسيلة حتى حتى نزلها، واصطلم نعمها وخرب أسوارها، وبلغه بمكانه منها شأن عبد الواحد ابن السلطان اللحياني وأجلابه على تونس، وكان من خبره أنه قدم من المشرق بعد مهلك أبيه السلطان أبي يحيى زكريا سنة تسع وعشرين وسبعمائة فنزل على دباب وباع له عبد الملك بن مكبي رئيس المشيخة بقابس، وتسامع به الناس وإفريقية شاغرة من الحامية والعساكر لتهوضهم مع السلطان، فاغتم حمزة بن عمر الفرصة، واستقدمه فباع له ورحل به إلى الحضرة، فنزل بساحتها، ودخل عبد الواحد بن اللحياني وحاجبه ابن مكبي إلى البلد فأقاموا بها ريثما بلغ الخبر إلى السلطان ففقل من الحضرة وبعث في مقدمته محمد البطوي من بطانته في عسكر اختارهم لذلك، فأجفل ابن اللحياني وجوعه عن تونس لحمس عشرة ليلة من نزولهم، ودخل البطوي إليها وجاء السلطان على أثره أيام عيد الفطر سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة.

الخبر عن نكبة الحاجب محمد بن سيد الناس وولاية ابن عبد العزيز وابن الحكيم من بعده

قد قدمنا أولية هذا الرجل وأن أباه أبا الحسين كان حاجباً للأمير أبي زكريا بيجاية. ولما هلك سنة تسعين وستمئة خلف ابنه محمداً هذا في كفالة السلطان ومرعى نعمته، فاشتمل قصرهم عليه وآواه إلى حجره وأرضعه مع الكثير من بنيه، ونشأ في كنفه. وكان الحجاب للدولة من بعد أبيه مثل ابن أبي جبي والرخامي صنائع لأبيه فكانوا يعرفون حقه ويؤثرونه على أنفسهم في التجلة. ولم يدرك في سن الرجولة والسعي في المجد إلا أيام ابن غمر آخرهم، فكان له منه مكان حتى إذا ارتحل السلطان أبو يحيى إلى قسطنطينة لطلب تونس، وجهز له ابن غمر الآلات والعساكر، وأقام له الحجاب والوزراء والقواد، كان فيمن سرح معه محمد بن سيد الناس قائداً على عسكر من عساكره. وكان ظنراً للسلطان فكانت له عنده أثره واختصاص، وعقد له من بعد مهلك ابن غمر على بيجاية لما عزل عنها القالون كما قدمناه، فاستبد بها على السلطان وحامها دون عساكر زناتة، ودفع في صدورهم عنها وكان له في ذلك كله مقامات مذكورة.

وكانت بينه وبين قائد زناتة موسى بن علي مداخلة في زيون كل واحد منهما بمكان صاحبه على سلطانه، وفطن

الخبر عن فتح قصبة وولاية الأمير أبي العباس عليها

كان أهل الجريد منذ تقلص عنهم ظل الدولة عند انقسام الملك بين الثغور الغربية والحضرة وما إليها، وصار أمرهم إلى الشورى بين المشيخة إلا في الأحيان يؤملون الاستبداد كما كانوا عليه من قبل الموحدين، فقدم عبد المؤمن إلى إفريقية وبنو الرند على قصبة وقسطنطينة، وابن اطاس على توزر، وابن مطروح على طرابلس فأمّلوا فتحها، وشغل مولانا السلطان أبا بكر عنهم بعد استقلاله بالأمر وانفراده بالدعوة الحفصية شأن الفتنة مع آل يغمراسن بن زيان وإجلاب عساكرهم مع حمزة بن عمر على أوطانه. حتى إذا أخذ السلطان أبو الحسن مجرتهم وأطل عليهم من مراقبه فعادوا إلى أوكراهم بعد أن أسفوا، وتنفس تخنق الثغور الغربية من حصارهم، وزال عن كاهل الدولة إصر معاناتهم وسكن اضطراب الخوارج على الدولة وخفت أصوات المرجفين في ممالكها، وصرف السلطان نظره في أعطاف ملكه ومحو الشقاق من سائر أعماله، وسمت همته إلى تدويخ القاصية من بلاد الجريد واستنقاذ أهلها من أيدي الذئاب الغاوية والكلاب العادية زعماء أمصارها وأعراب فلاتها، فنهض إلى قصبة سنة خمس وثلاثين وسبعمئة وقد كان استبد بشورها يحيى بن محمد بن علي بن عبد الجليل بن العابد الشريدي من بيوتاتها، فنازلها أياماً والعساكر تلح عليها بأنواع القتال، ونصب عليها المجانيق فامتنعوا. ثم جمع الأيدي حتى قطع نخيلهم وإقلاع شجرائهم فنادوا بالأمان فأمّنهم. وخرج إليه ابن عبد الجليل رئيسهم الآخر من سته، فأشخصه إلى الحضرة وأنزله بها ورجالات من قومه بني العابد. وفر سائرهم إلى قابس فنزل في جوار ابن مكى ودخل أهل البلد في حكمه، وتفيأوا بعد أن كانوا ضاحين من الملك كله فأحسن التجاوز عنهم، وبسط المعدلة فيهم. وأحسن أمل ذوي الحاجات منهم بالإسهام والأقطاع وتجديد ما بأيديهم من المكتوبات السلطانية. ثم أترهم بسكنى ولده المخصوص بعدئذ لعهد الأمير أبي العباس، وأنزله بين ظهرانيهم وأوصاه بهم، وعقد له على قسطنطينة وما إليها. وجعل معه على حجابته أبا القاسم ابن عتو من مشيخة الموحدين، وقفل إلى حضرتة فدخلها في رمضان من سته.

وحلف أخوه أبو القاسم ليقبض منه، وفر ولحق بديار المشرق. هذا آخر خبرهم، وإن محمداً هذا من بني.

وبقية الخبر عن أهل هذا البيت من سواهم أن إبراهيم أنجب محمداً، وأنجب محمد حمزة، ثم أنجب حمزة علياً فكلف بالقراءة واستظهر علم الطب واستقر في إيالة السلطان أبي زكرياء بالثغور الغربية وأصاب السلطان وجع في بعض أزماته وأعياء دواؤه فجمع له الأطباء وكان فيهم علي هذا فحس على المرض وأحسن المداواة، فوقع من السلطان أحسن المواقع واستخلصه لنفسه وخلطه بخاصيته وأهل خلوته، وصار له من الدولة مكان لا يجاريه أحد فيه. وكان يدعى في الدولة بالحكيم وبه عرف ابنه من بعده، وأصهر إلى إحدى بيوت قسطنطينة فزوجوه وخلط أهله بحرم السلطان. وولد له محمد ابنه بقصره، ورضع مع الأمير أبي بكر ابنه، ونشأ في حجر الدولة وكفالتها على أحسن الوجوه من تربيتها.

ولم بلغ أشده وصرف إليه رئيس الدولة يعقوب بن غمر وجه إقباله واختصاصه. فكان له منه مكان أكسبه ترشيحاً للرئاسة فيما بعد من بين خواص السلطان وخلصائه.

ولما نهض السلطان أبو يحيى إلى إفريقية قلده قيادة بعض العساكر. ثم عقد له بعد مهلك ابن عمر على عمل باجة حين رقى ابن سيد الناس عنها إلى بجاية. وكان عمل باجة من أعظم الولايات في الدولة فأضطلع به. ثم لما أمر السلطان بطانته في نكية ابن سيد الناس دفعه لذلك. فولي القبض عليه وكمن له في عصابة من البطانة في بعض الحجر من رياض رأس الطابية. واستدعي ابن سيد الناس إلى السلطان ومر بمكانهم. فلما انتهى إليهم توثبوا به وشدوه كثافاً وتلوه إلى محبسه بالبرج المعد لكثاف مثله بالقصبة.

وتولى ابن الحكيم من امتحانه وعذابه ما ذكرناه إلى أن هلك، وعقد له السلطان مكانه على الحرب والتدبير من خططه، وفرض إليه فيما وراء الحضرة كما قلناه.

وجعل تنفيذ الأموال والكتب على الأوامر لابن عبد العزيز، فكان عدله في حل الدولة، إلا أن ابن عبد الحكيم كان أسف فيه لما كان إليه من التدبير في الحرب والرئاسة على الكتابة، لرئاسة السيف على القلم فأضطلع برئاسته وأحسن الغناء والولاية إلى أن كان من خبره وخبر الدولة ما نذكر.

الخبر عن ولاية الأمير أبي فارس بن عزوز وأبي البقاء خالد على سوسة ثم إضافة المهدية إليهما

للدافعة العدو، وعقد على قسطنطينة للأمير أبي عبد الله ومعهم أحمد بن ياسين. وخرجوا جميعاً من تونس سنة عشرين وسبعمائة ونزل كل بعمله. وقدم ظافر الكبير من الغرب فولاه السلطان حجابة ابنه بقسطنطينة وأنزله بها إلى أن هلك سنة سبع وعشرين وسبعمائة على تيمز دكت كما ذكرناه، فجاء بحجابته من تونس أبو القاسم بن عبد العزيز الكاتب فأقام أربعين يوماً.

ثم رجع إلى الحضرة وأضاف السلطان حجابة قسطنطينة لابن سيد الناس إلى حجابة بجاية، وبعث إليها نائباً عنه مولاه هلال النازع إليه عن موسى بن علي قائد بني عبد الواد فقام بخدمة الأمير أبي عبد الله إلى أن كانت نكبة ابن سيد الناس عندما بلغ الأمير أبو عبد الله أشده وجرى في طلق استبداده ففوض له في عمله السلطان وأطلق من عنانه، وكان يؤمره في شأنه ويناجيه في خلوته.

وأنزل معه بقسطنطينة مولاه نبيلاً من المعلوجين يقيم له رسم الحجابة. ثم استدعى ظافر السنان من تونس سنة أربع وثلاثين وسبعمائة لقيادة الأعنة والحرب، فقدم لذلك وأقام سنة ونصفها. ثم رجع وقام نبيل بحجابته كما كان ودفع ليعيش بن... من صنائع الدولة لقيادة العساكر وحماية الأوطان فقام له ذلك مراسم الخدمة ورتب الدولة واستمرت حال الأمير أبي عبد الله على ذلك والأيام تزيده ظهوراً ومساعبه الملوكية تكسبه خلافاً وترشياً إلى أن اغتبط دون غايته وإعتاقه الأجل عن مده، فهلك رضوان الله عليه آخر سبع وثلاثين وسبعمائة وقام بأمره من بعده كبير بنيه الأمير أبو زيد عبد الرحمن، فعقد له السلطان أبو بكر على عمل أبيه لنظر نبيل مولاهم لمكان صغره، واستمرت حالهم على ذلك إلى آخر الدولة، وكان من أمرهم ما نذكره بعد والله تعالى أعلم.

لما نكب السلطان حاجبه ابن سيد الناس، وولى محمد بن فرحون على حجابة ابنه الأمير أبي زكريا، وقارن ذلك ما نزل بيغمراسن من عدوهم وتفرغ السلطان للنظر في ملكه وتمهيد أحواله، وأن يرسي قواعد أعماله بنجباء أبنائه. فعقد على سوسة والبلاد الساحلية لولديه الأميرين عزوز وخالد شريكين في الأمر، وأنزلهما بسوسة، وأنزل معهما محمد بن طاهر من صنائع الدولة ومن بيوت أهل الأندلس القادمين في الجالية، ورتاسة سلفهم بمرسية معروفة في أخبار الطوائف. وكان أخوه أبو القاسم صاحب الأشغال بالحضرة فأقاما كذلك. ثم هلك محمد بن طاهر فاستقدم السلطان محمد بن فرحون من بجاية ثقة باستبداد ابنه وأن يولي من شاء على حجابته وأنزل ابن فرحون مع هذين الأميرين لصغرهما سنة خمس وثلاثين وسبعمائة. ثم استدعاه الأمير أبو زكريا فرجع إليه وأقام هذان الأميران بسوسة حتى إذا نكب السلطان قائده محمد بن الحكيم واستنزل قريبه محمد بن الرزك من المهدية كان أنزله بها ابن الحكيم لما افتتحها من يد المتغلب عليها من أهل رجيس، ويعرف بابن عبد الغفار واتخذها شحناً لنفسه، وأنزل بها قريبه هذا وأشحنها بالعدد والأقوات فلم يغن عنه. ولما هلك استنزل ابن الرزك وبعث السلطان عليهما ابنه الأمير أبا البقاء، وأفرد الأمير أبا فارس بولاية سوسة فأقاما كذلك إلى أن كان من خبر مهلكهما ما نذكره.

الخبر عن وفاة الأمير أبي عبد الله صاحب قسطنطينة من الأبناء وولاية بنيه من بعده

كان الأمير أبو عبد الله مخصوصاً من أبيه من بين ولده بالآثرة والعناية قد صرف إليه إقباله وألقى عليه محبته لما كان يتوسم في شواهد من الترشيح، وما تحلى به من خلال الملك. وكان الناس يعرفون له حق ذلك؛ وذلك أن ابن عمر كان مستبداً بالثغور الغربية: ببجاية وقسطنطينة ومدافعاً عنها العدو من زناتة المطالبين لها. فلما هلك ابن عمر سنة تسع عشرة وسبعمائة كما قدمناه صرف السلطان نظره إلى ثغوره، فعقد على بجاية لابنه الأمير أبي زكريا وعقد على حجابته لابن القالون وسرحه معه

الخبر عن شأن العرب ومهلك حمزة ثم أجلاب بنيه على الحضرة وانهزامهم ومقتل معز وزيرهم وما قارن ذلك من الأحداث

لما ملك السلطان أبو الحسن تلمسان وأعمالها، وقطع دابر آل زيان واجتث أصلهم وجمع كلمة زناتة على طاعته، واستبجهم غضباً تحت لوائه، ودانت القبائل بالانقياد له ورجفت القلوب لرعبه، وفود عليه حمزة بن عمر يرغب في ممالك إفريقية ويستحثه لها يدنيه مع أبي تاشفين من قبله، فكف بالباس من غلوائه،

وزجره عن خلافه على السلطان وشقاقه. ونهج له بالشفاعة سبيلاً إلى معاودة طاعته والعمل بمرضاته، فرجع حمزة إلى السلطان عائداً بحمله متوسلاً بشفاعة صاحبه راغباً بإذعانه، وقطع مسواد الخلاف من العرب باستقامته فتلقتاه السلطان بالقبول وأسعاف الرغبة والجزاء على المناصحة والمخالصة. ولم يزل حمزة بن عمر من لادن رضى مولانا السلطان عنه وإقباله عليه صحيح الطاعة خالص الطوية نادياً بمظاهرة محمد بن الحكيم قائد حربه، وشهاب دولته على تدويخ إفريقية وتمهيد أعمالها وحسم أدواء الفساد منها.

وأخذ الصدقات من جميع طوائع البدو الناجعة في أقطارها، وجمع الطوائف المتعاصين بالثغور على إلقاء اليد للطاعة والكف عن أموال الجباية فكانت لهذا القائد آثار في ذلك مهدت من الدولة وأرغمت أنوف المتعاطين بالاستبداد في القاصية حتى استقام الأمر وانمحت آثار الشقاق فاستولى على المهديّة سنة سبع وثلاثين وسبعمئة وغلب عليها ابن عبد الغفار المتزّي بها من أهل رجيس واستولى على تبسة وتقبض على صاحبها محمد بن عبدون من مشيختها وأودعه سجن المهديّة إلى أن أطلق بعد نكته، ونازل توزر من بعد ذلك حتى استقام ابن يملول على طاعته المضعفة، واستمرّهن ولده، ونازل بسكرة غير مرة يدافعه يوسف بن منصور بن مزني بذمة عليه يدعيها من السلطان أبي بكر وسلفه. ويعطيه الجباية عن يد مع ما كان له من الاعتلاق بخدمة السلطان أبي الحس فيتجافى عنه ابن الحكيم لذلك بعد استيفاء مغارمه.

وزحف إلى بلاد ريغة فافتتح قاعدتها تفرّت واستولى على أموالها وذخيرتها وسار إلى جبل أوراس فافتتح الكثير من معاقله. وعصفت ريح الدولة بأهل الخلاف من كل جانب وجاست عساكر السلطان خلال كل أرض. وفي أثناء ذلك هلك حمزة بن عمر سنة اثنتين وأربعين وسبعمئة على يد أبي عون بن علي بن كبير أحد بطون بني كعب بطعنة طعنه غيلة فأشواه وقام بأمره من بعده بنوه، وكبرهم يومئذ عمر، ودخلتهم الظنة بأن قتله بإملاء الدولة فأعصوبوا وتدامروا واستجاشوا بأقنابهم أولاد مهلهل فجيئوا معهم وزحف إليهم ابن الحكيم في عساكر السلطان من زناتة والجند فقلوه واستلحموا كثيراً من وجوههم. ورجع إلى الحضرة فتحصن بها واتبعوه فنزلوا بساحتها سنة ثلاثين وسبعمئة وقتلوا العساكر سبع ليال.

ثم اختلّفوا ونزل طالب بن مهلهل في قومه إلى طاعة السلطان فأجفلوا وخرج السلطان على تفتية ذلك في جمادى من سنته في عساكره وأحزابه من العرب وهوارة فأوقع بهم برقادة من ضواحي القيروان ورجع إلى حضرته آخر رمضان من سنته.

ثم اختلّفوا ونزل طالب بن مهلهل في قومه إلى طاعة السلطان فأجفلوا وخرج السلطان على تفتية ذلك في جمادى من سنته في عساكره وأحزابه من العرب وهوارة فأوقع بهم برقادة من ضواحي القيروان ورجع إلى حضرته آخر رمضان من سنته.

ثم اختلّفوا ونزل طالب بن مهلهل في قومه إلى طاعة السلطان فأجفلوا وخرج السلطان على تفتية ذلك في جمادى من سنته في عساكره وأحزابه من العرب وهوارة فأوقع بهم برقادة من ضواحي القيروان ورجع إلى حضرته آخر رمضان من سنته.

الخبر عن مهلك الحاجب ابن عبد العزيز

وولاية أبي محمد بن تافراكين من بعده وما

كان على تفتية ذلك من نكبة ابن الحكيم

هذا الرجل اسمه أحمد بن إسماعيل بن عبد العزيز الغساني وكنيته أبو القاسم، وأصل سلفه من الأندلس انتقلوا إلى مراكش واستخدموا بها للموحدين، واستقر أبوه إسماعيل بتونس، ونشأ أبو القاسم بها واستكتبه الحاجب ابن الدباغ، ولما دخل السلطان أبو البقاء خالد إلى تونس، ونكب ابن الدباغ لجأ ابن عبد العزيز إلى الحاجب ابن غمر، وخرج معه من تونس إلى قسطنطينة واستقر ظافر الكبير هنالك فاستخدمه إلى أن غرب إلى الأندلس كما قدمناه. ثم استعمله ابن غمر على الأشغال بقسطنطينة سنة ثلاث عشرة وسبعمئة فقام بها وتعلّق بخدمة القالون بعد استبداد ابن عمر بيجاية. فلما وصل السلطان أبو بكر إلى تونس سنة ثمان عشرة وسبعمئة استقدمه القالون واستعمله على أشغال تونس. ثم كانت سعايته في القالون مع المزوار بن عبد العزيز إلى أن فر القالون سنة إحدى وعشرين وسبعمئة وولي الحجابة المزوار بن عبد العزيز، وكان أبو القاسم بن عبد العزيز هذا رديفاً لضعف أدواته.

ولما هلك ابن عبد العزيز المزوار بقي أبو القاسم بن عبد العزيز يقيم الرسم إلى أن قدم ابن سيد الناس من بجاية، وتقلد الحجابة كما قدمناه فقص بمكان ابن عبد العزيز هذا وأشخصه عن الحضرة وولاه أعمال الحامة ثم استقدم منها عندما ظهر عبد الواحد اللحياني بجهات قابس فلاحق بالسلطان في حركته إلى تيمرزكت، وأقام في جملة السلطان إلى أن نكب ابن سيد الناس، وولي الحجابة بالحضرة كما ذكرت ذلك كله من قبل إلى أن هلك

الدولة وجو عنايتها، وأصهر عبد الله منهما إلى أبي يعقوب بن يزدوت شيخ الدولة في ابنته فعقد له عليها. وأصهر من بعده أخوه أحمد إلى أبي محمد بن يغمور في ابنته فعقد له أيضاً عليها، واستخلص أبو ضربة اللجاني كبيرهما أبا محمد عبد الله وأثره بصحبته، فلم يزل معه إلى أن كانت الواقعة عليه بمصوح، وتقبض على كثير من الموحدين فكان في جملتهم. ومن عليه السلطان أبو بكر ورقاه في رتب عنايته إلى أن ولاه الوزارة بعد الشيخ أبي محمد بن القاسم. ثم قدمه شيخاً على الموحدين بعد مهلك شيخهم أبي عمر بن عثمان سنة اثنتين وأربعين وبعثه إلى ملك المغرب مع ابنه الأمير أبي زكريا صاحب بجاية صريحاً على بني عبد الواد فجلى في خدمة السلطان وعرض سفارته. وتوجه للإيثار بعدها إليه. واختص بالسفارة إلى ملك المغرب سائر أيامه. وغص الحاجب ابن سيد الناس بمكانه، وهم بمكرهه فكبح السلطان عنانه عنه، ويقال إنه أفضى إليه بذات صدره من نكته. ولما انقسمت الدولة من الحرب والتدبير وغالصة السلطان وتنفيذ أوامره بين ابن عبد العزيز الحاجب وابن الحكيم القائد. كان له هو القدر المعلى في المشورة والتدبير، وكانوا يرجعون إليه ويعولون على رايه، وكان ثالث أئامهم ومصقلة آرائهم.

ولما هلك الحاجب ابن عبد العزيز، وكان السلطان قد أضمر نكبة ابن الحكيم، لما كان يتعاطاه من الاستبداد ويحتجته من أموال السلطان، وأسر الحاجب ابن عبد العزيز إلى السلطان زعموا بين يدي مهلكه بالتحذير من ابن الحكيم وسوء دخلته، وأنه فاوضه أيام نزول العرب عليه بساح تونس سنة اثنتين وأربعين كما قدمناه في الإدالة من السلطان ببعض الأعياص من بني أبي دبوس، كانوا معتقلين بالحضرة، ألقاها الغدر على لسانه ضجراً من تعود السلطان عن الخروج بنفسه إلى العرب وسأمه ما هو فيه من الحصار فاعتدها عليه ابن عبد العزيز حتى ألقاها إلى السلطان عند موته، وبرى منها إليه فاودعها إذناً وأعية وكان حتف ابن الحكيم فيها. ولما هلك ولي شيخ الموحدين أبو محمد بن تافراكين فاوضه في نكبة ابن الحكيم، وكان يتربص به لما كان بينهما من المنافسة.

وكان ابن الحكيم غائباً عن الحضرة في تدويخ القاصية، وقد نزل جبل أوراس واقتضى مغارمه وتوغل في أرض الزاب واستوفى جبايته من عامله يوسف بن منصور، وتقدم إلى ريخ ونازل تغرت وافتتحها، وامتلأت أيدي عساكرهم من مكاسبهم وحليهم. واتصل به خبر مهلك ابن عبد العزيز وولاية أبي محمد بن تافراكين الحجابة فنكر ذلك لما كان يظن أن السلطان لا يعدل

فاتح سنة أربع وأربعين وسبعمائة فعقد السلطان على حجابته لشيخ الموحدين أبي محمد عبد الله بن تافراكين.

وكان بنو تافراكين هؤلاء من بيوت الموحدين في تينملل ومن آيت الخمسين. وولي عبد المؤمن كبيرهم عمر بن تافراكين على فاس أول ما ملكها الموحدون سنة أربعين وخمسمائة إلى أن فتحوا مراكش، فكان عبد المؤمن يستخلفه عليها أيام مغيبه على الإمارة والصلاة. ولما ثار بمراكش عبد العزيز وعيسى ابنا أومغار أخي الإمام المهدي سنة إحدى وخمسين كان أول ثورتهم أن اعترضوا عمر بن تافراكين عند ندائه للصلاة فقتلوه، وفضحهم الصبح فاستلحمهم العامة، ثم كان ابنه عبد الله بن عمر من بعده من رجالات الموحدين ومشيتهم. ولما عقد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن على قرطبة لأخيه السيد أبي إسحاق أنزل معه عبد الله بن عمر بن تافراكين للمشورة مع جماعة من الموحدين كان منهم يوسف بن واتودين، وكان عبد الله المقدم فيهم وجاء ابنه عمر من بعده متقبلاً مذهبه مرموقاً بتجلته. ولما ولي السيد أبو سعيد بن عمر بن عبد المؤمن على إفريقية ولاه قابس وأعمالها إلى أن استنزله عنها يحيى بن غانية سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة.

ثم كان منهم بعد ذلك عظماء في الدولة وكبراء من المشيخة آخرهم عبد العزيز بن تافراكين، خالف الموحدين بمراكش لما نقضوا بيعة المأمون، فاغتالوه في طريقه إلى المسجد عند الأذان للصبح، بما كان محافظاً على شهود الجماعات. ورعاه له المأمون في أخيه عبد الحق وبنه أحمد ومحمد وعمر، فلما استلحم الموحدون وعمهم الجزع ارتحل عبد الحق مورياً بالحج ونزل على السلطان المستنصر فانزله بمكانه من الحضرة وسرحه بعض الأحيان إلى الحامة لحسم الداء فيها. وقد كان يوقع الخلاف من مشيختها فحسن غناؤه فيها، وقتل أهل الخلاف وحسم العلل، وولاه السلطان أبو إسحاق على بجاية بعد مقتل محمد بن أبي هلال فاضطلع بها. ولما ولي الدعي ابن عمارة سرحه في عسكر من الموحدين لقهز العرب وكف عدوانهم فأتخن فيهم ما شاء. ولم يزل معروفاً بالرياسة مرموقاً بالتجلة إلى أن هلك. وكان بنو أخيه عبد العزيز وهم: أحمد ومحمد وعمر جاؤوا على أثره من المغرب فنزلوا بالحضرة خير منزل، وغذاو بلبان النعمة والجاه فيها. وكان أحمد كبيرهم، وولاه السلطان أبو حفص على قفصة ثم على المهديّة، ثم استعفى من الولاية فأعفي.

وكان السلطان أبو عصيدة يستخلفه على الحضرة إذا أخرج منها على ما كان لأوليّه إلى أن هلك الأول المائنة الثامنة سنة ثلاث. ونشأ ابنه أبو محمد عبد الله وأبو العباس أحمد في حجر

وجد له العقد عليه أبوه. وتملك الكثير من نفزاوة.

ولما استيحت نقطة ونفزاوة سمت همتة إلى ملك توزر جرتومة الشقاق وعش الخلاف والنفاق، وخشي مقدمها محمد بن يملول مغبة حاله فذهب إلى مصانعة قائد الدولة محمد بن الحكيم بذات صدره فتجافى عنه إلى أن كان مهلكهما في سنة واحدة، واضطرب أمر توزر وتوالت بنوه وإخوته وقتل بعضهم بعضاً. وكان أخوه أبو بكر معتقلاً بالحضرة فاطمقة السلطان من محبسه بعد أن أخذ عليه الموائيق بالطاعة والجبابة، ومضى إلى توزر فملكها وطالبه الأمير أبو العباس صاحب قفصة وبلاد قسطنطينة بالانقياد الذي عاهد عليه، فنازعه ما كان في نفسه من الاستبداد وصارت توزر لذلك شجاً معترضاً في صدر إمارته فخاطب أباه السلطان أبا بكر وأغراه به فنهض إليه سنة خمس وأربعين، وانتهى إلى قفصة وصار الخبر إلى أبي بكر ابن يملول رئيسها يومئذ فادركه الدهش وانفض من حوله الأولياء، وجاهر بطاعة السلطان ولقائه ففر عنه كاتبه وكاتب أبيه المستولي على أمره علي بن محمد التومودي المعروف الشهرة، ولحق ببسكرة في جوار يوسف بن مزني واتخذ السلطان السير إلى توزر فخرج إليه أبو بكر بن يملول وألقى إليه بيده وخلط نفسه بجملته.

ثم ندم على ما فرط من أمره وأحس بالتكراء من الدولة، وانذر بالمهلكة فلحق بالزباب ونزل على يوسف بن منصور ببسكرة فتلقاه من الترحيب والقرى بما تحدث به الناس، ولما استولى السلطان على توزر وانتظما في أعماله عقد عليها لابنه الأمير أبي العباس وأنزل بها وأمكنه من رمتها ورجع السلطان إلى الحضرة ظافراً عزيزاً، وتغلا أيام ملكه إلى أن هلك على فراشه كما نذكر. واتصلت ممالك الأمير أبي العباس في بلاد الجريد وساور أبو بكر بن يملول توزر مراراً يقلت في كلها من المهلكة إلى أن مات ببسكرة سنة سبع وأربعين قبيل مهلك ابن السلطان كما نذكر. وأقام الأمير أبو العباس بمحل إمارته ولم يزل يهدد الأحوال ويستنزئ الثوار. وكان ابن مكّي قد امتنع عليه بقابس، وكان من خبره أنه لما رجع عبد الملك من تونس مع عبد الواحد بن اللحياني الذي كان حاجباً له ذهب ابن اللحياني إلى المغرب وأقام هو بقابس. ثم استراب بمثال أمره مع السلطان حين ذهب ملك آل زيان فأوفد أخاه أحمد بن مكّي على السلطان أبي الحسن متنصلاً من ذنوبه متذمراً بشفاعته منه إلى السلطان أبي بكر فشفع له وأعاده السلطان إلى مكان رئاسته. واستقام هو على الطاعة ونكب عن سنن العصيان والفتنة.

وكان لأحمد بن مكّي حظ من الخلال والأدوات ونفس

بها عنه. وكان يرشح لها كاتبه أبا القاسم بن واران، ويرى أن ابن عبد العزيز قبله لم يتميز بها إثارة عليه، فبدا له ما لم يحتسبه فظن الظنون ونعر ثم أصحب، وأغذ السير إلى الحضرة وقد واكب السلطان أبا محمد بن تافراكين في نكبته وأعد البطانة للقبض عليه. وقدم على الحضرة منتصف ربيع من سنة أربع وأربعين وجلس له السلطان جلوساً فخماً فعرض عليه هديته من المقربات والرقائق والأنعام، حتى إذا انفض المجلس وشيع السلطان وزراره وانتهى إلى بابيه أشار إلى البطانة فلحقوا به وتلّوه إلى محبسه. ويسط عليه العذاب لاستخراج الأموال فأخرجها من مكان احتجائها وحصل منها في مودع السلطان أربعمئة ألف من الذهب العين ومثلها أو ما يقاربها قيمة من الجواهر والعقار إلى أن استصفى. ولما أمتك عظمه ونفذ ماله خنق بمحبسه في رجب من سنة وذهب مثلاً في الأيام. وغرب ولده مع أمه إلى المشرق، وطوح بهم الاغتراب إلى أن هلك منهم من هلك، وراجع الحضرة علي وعبيد منهم في آخرين من أصاغهم بعد أيام وأحوال والله يحكم لا معقب لحكمه.

الخبر عن شأن الجريد واستكمال فتحه

وولاية ابنه أبي العباس عليه وولاية صاحب

قابس أحمد بن مكّي على جزيرة جربة

كان أمر الجريد قد صار إلى الشورى منذ شغلت الدولة بمطالبة زناتة بني عبد الواد وما نالها لذلك من الاضطراب، واستبد مشيخة كل بلد بأمره، ثم انفرد واحد منهم بالرئاسة، وكان محمد بن يملول من مشيخة توزر هو القوائم فيها والمستبد بأمرها كما سنذكره. ولما فرغت الدولة إلى الاستبداد وأرهف السلطان حده للثوار وعفى على آثار المشيخة بقفصة وعقد لابنه الأمير أبي العباس على قسطنطينة. ونزل بقفصة فأقام بها مهدياً لإمارته، ومردداً بعونه إلى البلاد اختبأراً لما يظهرون من طاعته. وزحف حاجبه أبو القاسم بن عتو بالساكر إلى نقطة ابتلاء لطاعة رؤسائها بني مدافع المعروفين ببني الخلف، وكانوا إخوة أربعة استبدوا برئاستها في شغل الدولة عنهم فسامهم سوء العذاب، ولاذوا بجدران الحصون التي ظنوا أنها صانعتهم وتبرأت منهم الرعايا فادركهم الدهش، وسألوا النزول على حكم السلطان فجنّبوا إلى مصارعهم وصلبوا على جذوعهم آية للمعتبرين، وأفلت السيف عليّاً صغيرهم لنزوعه إلى العسكر قبل الحادثة، فكانت له ذمة واقية من الهلكة. فانظم الأمير أبو العباس بلد نقطة في مملكته

فدفن بها وجاهر سحيم بالخلاف، وخرج إلى الرمال فلم يزل كذلك إلى حين مهلك السلطان كما نذكره.

الخبر عن مهلك الأمير أبي زكريا صاحب بجاية من الأنباء وما كان بعد ذلك من ثورة أهل بجاية بأخيه الأمير أبي حفص وولاية ابنه الأمير أبي عبد الله

كان السلطان أبو بكر لما هلك الحاجب ابن غمر عقد على بجاية لابنه الأمير أبي زكريا كبير ولده، وأنفذه إليها مع حاجبه محمد بن القالون كما ذكرناه وجعل أموره تحت نظره. ثم رجع القالون إلى تونس فأنزل معه ابن سيد الناس كذلك، فلما استبد سيد الناس ببجاية الحضرة جعل على حجابته أبا عبد الله بن فرحون. ثم لما تقبض على ابن سيد الناس وعلي ابن فرحون وقد استبد الأمير أبو زكريا بأمره، وقام على نفسه فوض إليه السلطان الأمر في بجاية وبعث إليه ظافراً السنان مولى أبيه الأمير أبي زكريا الأوسط قائداً على عسكره. والكاتب أبا إسحاق بن غلان متصرفاً في حجابته فأقاما بيباه مدة ثم صرفهما إلى الحضرة، وقدم لحجابته أبا العباس أحمد بن أبي زكريا الرندي، كان أبوه من أهل العلم وكان يتحلل مذهب الصوفية الغلاة، ويطالع كتب عبد الحق بن سبعين. ونشأ أحمد هذا ببجاية واتصل بخدمة السلطان وترقى في الرتب إلى أن استعمله الأمير أبو زكريا كما قلناه. ثم هلك وقد أنف السلطان أبو بكر من انتزاع هؤلاء السوقة على حجابته ابنه فأنفذ لها من حضرته كبير الموحدين يومئذ صاحب السفارة أبا محمد بن تافراكين سني أربعين وسبعمائة فأقام أحوال ملكه، وعظم أبهة سلطانه، وجهز العساكر لسفره وأخرجه إلى أعماله فطاف عليها وتقدها، وانتهى إلى تخومها من المسيلة ومقرة. ولم يستكمل الحول حتى سخطه مشيخة من أهل بجاية لما نكروا من الأبهة والحجاب حتى استغلظ عليهم باب السلطان، وتولى كبير ذلك القاضي ابن أبي يوسف تعتاً وعللاً، واستعفى هو من ذلك فأعفى وعاد إلى مكانه بالحضرة.

ثم استقدم الأمير أبو زكريا حاجبه الأول بعهد ابن سيد الناس، وهو أبو عبد الله محمد بن فرحون، وقد كان السلطان بعثه في غرض الرسالة إلى ملك المغرب في الأسطول الذي بعثه مدداً للمسلمين عند إجازة السلطان أبي الحسن إلى طريف. وكان أخوه زيد بن فرحون قائد ذلك الأسطول بما كان قائد البحر ببجاية،

مشغوفة بالرياسة والسرو، وكان يقرض الشعر فيجيد ويرسل فيحسن، وكان خط كتابته أنيقاً ينحو به منحى الخط الشرقي شأن أهل الجريد فيمتنع ما شاء، فكانت لذلك كله في نفس الأمير أبي العباس صاغية إليه. وكان هو مستريباً بالمخالطة لما شاء من آثاره السالفة. ولم يزل الأمير أبو العباس يقتل له في الذروة والغارب إلى أن جمعه مجلس السيدة أمة الواحدة أخت مولانا السلطان قافلة من حجها فمسح ما كان بصدره، وأحكم له عقد مخلصه واصطنعه لنفسه، فحل من إمارته بمكان غبطة واعتزاز. وعقد له السلطان على جزيرة جربة، واستضافها إلى عمله وأنزل عنها مخلوف بن الكماد من صنائعه كان افتتحها سنة ثمان وثمانين وعقد له السلطان عليها ونزلها أحمد بن مكسي. واستقل عبد الملك أخوه برئاسة قابس فقاما على ذلك وجردا عزائمهما في ولاية أبي العباس صاحب أعمال الجريد فلم يزالوا كذلك إلى أن كان من أمر الجمع ما نذكره.

الخبر عن مهلك الوزير أبي العباس بن تافراكين

كان السلطان أبو بكر عند نكبة لقائده ابن الحكيم استعمل على حجابته شيخ الموحدين أبا محمد بن تافراكين كما ذكرناه، وفوض إليه فيما وراء بابه وعقد على الوزارة لأخيه أبي العباس أحمد، وكان أبو محمد جلس بالبان لمكان الحجابة فدفع إلى الحرب وقود العساكر، وإمارة الضاحية أخاه أبا العباس فقام بما دفع إليه من ذلك. وكان بنو سليم بعد مهلك حمزة بن عمر تقموا ما كان عليه من الإذعان وسموا إلى الخلاف والعناد، فكان من أبناء حمزة في ذلك من الأجلاب على الحضرة ما ذكرناه، وكان سحيم ابن من أولاد القوس بن حكيم بهمة غوار ومارد وخلاف وعناد، وكان السلطان قد ولي على حجابته ابنه الأمير أبي العباس في أعمال الجريد أبا القاسم بن عتو من مشيخة الموحدين وكان يناهض بني تافراكين بزعمه في الشرف، وينفس عليهم ما آتاهم الله من الرتبة والخط، فلما ولي أبو محمد الحجابة ملئ منه حسداً وحفيظة، وداخل فيما زعموا سحيماً هذا الغوي في النيل من أبي العباس بن تافراكين صاحب العساكر وشارطه على ذلك بما آداه إليه وتكاثروا أمرهم. وخرج أبو العباس بن تافراكين فاتح سنة سبع في العساكر لبجاية هواره فوفد عليه سحيم هذا وقومه وضابقيه في الطلب. ثم انتهزوا الفرصة بعض الأيام وأجلبوا عليه، فانقض معسكره وكبا به فرسه فقتل وحمل شلوه إلى الحضرة

نفوسهم وأنسوا بولاية ابن مولاهم، وجاءت الأمور إلى مصابرها كما نذكره.

الخبر عن مهلك مولانا السلطان أبي بكر وولاية ابنه الأمير أبي حفص

بينما الناس في غفلة من الدهر وظل ظليل من العيش وأمن من الخطوب تحت سراق من العز وذمة وافية من العدل، إذ ريع بالسرب وتكدر الشرب وتقلصت ظلال العز والأمن، وتعتل فناء الملك ونعي السلطان أبو بكر بتونس فجأة من جوف الليل ليلة الأربعاء ثاني رجب من سنة سبع وأربعين وسبعمئة، فهب الناس من مضاجعهم متسابلين إلى القصر يستمعون نبأ النعي وأطافوا به سائر ليلتهم تراهم سكارى وما هم بسكارى. ويادر الأمير أبو حفص عمر ابن السلطان من داره إلى القصر فملكه وضبط أبوابه واستدعى الحاجب أبا محمد بن تافراكين من داره، ودعوا المشيخة من الموحدين والموالي وطبقات الجند، وأخذ الحاجب عليهم البيعة للأمير أبي حفص. ثم جلس من الغداة جلوساً فخماً على الترتيب المعروف في الدولة أحكمه الحاجب أبو محمد لعرفته بعوائدها وقوانين تربيها، تلقنه عن أشياخه أهل الدولة من الموحدين، وغدا عليه الكافة في طبقاتهم فبايعوا له وأعطوه صفقة أيمانهم. وانفض المجلس وقد انعقدت بيعته وأحكمت خلافته.

وكان الأمير خالد ابن مولانا السلطان مقيماً بالحضرة قدمها سائراً منذ أشهر وأقام متملياً من الزيارة، فلما سمع النعي فر من ليلته، وتقبض عليه أولاد منديل من الكموب وردوه إلى الحضرة فاعتقل بها. وقام أبو محمد بن تافراكين بخطة الحجابة كما كان وزيادة تفويض واستبداد إلا أن بطانة السلطان كانوا يكثرون السعاية فيه ويوغرون صدره عليه. يذكرون منافسات ومناقشات سابقة بين الحاجب والأمير أيام أبيه، واتصل ذلك منهم غصاً بمكانه، وأندر الحاجب بذلك منهم فأعمل الحيلة في التخلص من صاحبهم كما نذكر بعد.

فلما رجع ابن عبد الله بن فرحون من سفارته تلك أذن له في المقام عند الأمير أبي زكريا واستعمله على حجابته إلى أن هلك فولي من بعده في تلك الخطبة ابن القشاش من صنائع دولته. ثم عزله وولى عليها أبا القاسم بن علناس من طبقة الكتاب، اتصل بدار هذا الأمير وترقى في ديوانه إلى أن ولاه خطة الحجابة. ثم عزله بعلي بن محمد بن المنت الحضرمي. كان أبوه وعمه قدما على جالية الأندلس وكانا يتحلان القراءات.

وأخذ أهل بجاية عن عمه أبي الحسن علم القراءات، وكان طموحاً للرئاسة واتصل بمحظية كانت للمولى أبي زكريا تسمى أم الحكم قد غلبت على هواه، فرسخت على ابن المنت هذا بخطة الحجابة واستعمله فيها فقام بها وأصلح معونات السلطان وأحوال مقاماته في سفره، وجهاز له العساكر وجال في نواحي أعماله.

وهلك هذا الأمير في إحدى سفاراته وهو على حجابته بتكرارات من أعمال بجاية من مرض كان أزم من به في ربيع الأول سنة سبع وأربعين وسبعمئة، وكان ابنه الأمير أبو عبد الله في حجر مولاه فارح من معلوجي بن سيد الناس. وكان اصطنعه فالفاه قابلاً للترشيح فأقام مع ابن مولاه ينتظر أمر الخليفة، ويادر حاجبه الأول أبو القاسم بن علناس إلى الحضرة وأنى الخبر إلى الخليفة فعقد على بجاية لابنه الأمير أبي حفص كان معه الحضرة، وهو من أصاغر ولده، وأنفذه إليها مع رجاله وأولي اختصاصه.

وخرج معه أبو القاسم بن علناس فوصل إلى بجاية ودخلها على حين غفلة. وحمله الأوغاد من البطانة على إرهاف الحد وإظهار السطو فخشي الناس البوادر واتمروا. ثم كانت في بعض الأيام هيئة تمالأ فيها الكافة على التوثب بالأمير القادم فطافوا بالقصبة في سلاحهم ونادوا بإمارة ابن مولاهم. ثم تسوروا جدرانها واقتحموا داره وملكوا عليه أمره وأخرجوه برمته بعد أن انتهبوا جميع موجوده، وتسابلوا إلى دار الأمير أبي عبد الله محمد ابن أميرهم ومولاهم بعد أن كان معتمراً على التفويض عنهم واللاحق بالخليفة جده. وأذن له في ذلك عمه الأمير القادم فبايعوه بداره من البلد. ثم نقلوه من الغد إلى قصره بالقصبة وملكوه أمرهم. وقام بأمره مولاه فارح ولقبه باسم الحجابة واستمر حالهم على ذلك. ولحق الأمير أبو حفص بالحضرة آخر جمادى الأولى من سنة لشهر من يوم ولايته إلى أن كان من شأنه بعد مهلك مولانا السلطان ما نذكره. وتدارك السلطان أمر بجاية وبعث إليهم أبا عبد الله بن سليمان من كبراء الصالحين من مشيخة الموحدين يسكنهم ويؤنسهم، وبعث معهم كتاب العقد عليها لحافده الأمير أبي عبد الله محمد بن الأمير أبا زكرياه ذهاباً مع مرضاتهم فسكنت

أبي سعيد فأحمد نزله، ثم رجع إلى الحضرة ولم يزل مشنوءاً أيام السلطان. كلها، واستكتب الأمير أبو حفص ولده محمداً وكانت له به وصلة، فلما استوسق له الملك بعد مقر أبي محمد بن تافراكين كما ذكرناه، ولّى أباه أبا العباس هذا على حجابته، وعقد على حربه وعساكره لظافر مولى أبيه وجده المعروف بالسنان، واستخلص لنجواه وسره كاتبه أبا عبد الله محمد بن الفضل بن من طبقة الفقهاء ومن أهل البيوت النابذة بتونس، كان له بها سلف مذكور، واتصل بدار السلطان وارتسم بها مكتباً لولده. وقرأ عليه هذا الأمير أبو حفص فيمن قرأ عليه منهم فكانت له من أجل ذلك خصوصية به ومزيد عناية عنده. ولما استبد بأمره كان هو مستبداً بشوراه، وجرت الحال على ذلك إلى أن كان من أمره ما نذكره.

الخبر عن استيلاء السلطان أبي الحسن على

إفريقية ومهلك الأمير أبي حفص وانتقال

الأبناء من بجاية وقسطنطينية إلى المغرب وما

تخلل ذلك من الأحداث

كان السلطان أبو الحسن يحدث نفسه منذ ملك تلمسان وقبلها بملك إفريقية، ويربص بالسلطان أبي بكر ويسر له حسواً في ارتقاء، فلما لحق به حاجبه أبو محمد بن تافراكين بعد مهلكه رغبه في سلطانه واستحثه بالدوم عليها، وجدد له الحوار فتبعت لذلك عزائمه. ثم وصل الخبر بمهلك ولي العهد وأخويه وخبر الواقعة، فأحفظه لذلك بما كان من رضاه بعهدده، وخطة بالوفاق على ذلك بيده في سجله. وذلك أن حاجب الأمير أبي العباس وهو أبو القاسم بن عتو من مشيخة الموحدين كان سفر عن السلطان لآخر أيامه إلى السلطان أبي الحسن بهدية. وحمل سجل العهد فوقف عليه السلطان أبو الحسن، وسأل منه أمضاء لمولاه وكتب ذلك بخطه في سجله، فخطه بيمينه وأحكم له عقده. فلما بلغه مهلك ولي العهد تعلل بأن النقص أتى على ما أحكمه فأجمع غزو إفريقية ومن بها، فمسك بظاهر تلمسان، وفرق الأعطيات، وأزاح العلل. ثم رحل في صفر من سنة ثمان وأربعين وسبعمان يجر الدنيا بما حملت. وأوفد عليه أبناء حمزة بن عمر أمراء البدو بإفريقية، ورجالات الكموب أخاهم خالداً يستصرخه لئلا أخيه أبي الهول المالك يوم الواقعة فاجلبهم.

ونزع إليهم أيضاً أهل القاصية بإفريقية بطاعتهم فجاءوا في

الخبر عن زحف الأمير أبي العباس ولي العهد من مكان إمارته بالجريد إلى الحضرة وما كان من مقتله ومقتل أخويه الأميرين أبي فارس عزوز وأبي البقاء خالد

كان السلطان أبو بكر قد عهد إلى ابنه الأمير أبي العباس صاحب أعمال الجريد كما ذكرناه سنة ثلاث وأربعين وسبعمان، فلما بلغه خبر مهلك أبيه وما كان من بيعة أخيه، نعى على أهل الحضرة ما جاؤوا به من نقض عهده. ودعا العرب إلى مظاهرة أمره، فاجابوه ونزعوا جميعاً إلى طاعته عن طاعة أخيه بما كان مرهفاً لحده في الاستبداد والضرب على أيدي أهل الدولة من العرب وسواهم، وزحف إلى الحضرة ولقيه أخوه أبو فارس صاحب عمل سوسة لقيه بالقيروان فأثابه طاعته وصار في جملة، وجمع السلطان أبو حفص عمر جموعه واستركب واستلحق وأزاح العلل، وأخرج غرة شعبان وارتحل عن تونس، وحاجبه أبو محمد بن تافراكين قد نذر منه بالهلكة، واعتمل في أسباب النجاة، حتى إذا تراءى الجمعان رجع الحاجب إلى تونس في بعض الشغل وركب الليل ناجياً من المغرب. وبلغ خبر مفره إلى السلطان فأجفل واختل مصافه، وتحيز إلى باجة فتلوم بها وتحلف عنه أهل المعسكر فلحقوا بالأمير أبي العباس، وملك الحضرة ثامن رمضان ونزل برياض رأس الطاية وأطلق أخاه أبا البقاء من معتقله.

ثم دخل إلى قصره لسبع ليال من ملكه وصبحه الأمير أبو حفص ثامنهما فائقم عليه البلد لصاغية كانت له في قلوب الغوغاء من غشيانه أسارهم وطروقه منازلهم أيام جنون الشباب وقضاء لذاته في مرياه. وفنك بأخيه الأمير أبي العباس. ولسرعان ما نصب رأسه على القنائة، وداست شلوه سنابك المعسكر، وأصبح آية للمعتبرين. واثارت العامة بمن كان بالبلد من وجوه العرب ورجالاتهم فقتلوا في تلك الهيعة من كتب عليه القتل. وتلوا كثيراً منهم إلى السلطان فاعتقلهم، وقتل أبا الهول بن حمزة بن عمر بن بينهم، وتقبض على أخويه خالد وعزوز، فأمر بقطعهم من خلاف فقطعوا وكان فيه مهلكهم. واستوسق ملكه بالحضرة واستعمل على حجابته أبا العباس أحمد بن علي بن رزين من طبقة الكتاب، كان كاتباً للشخصي الحاجب وبعده للقائد ظافر الكبير. واتصل بالسلطان أبي بكر لأول ملكه بالحضرة فأسف علي بن عمر بولاية ابن القالون الحاجب فخاطب السلطان فيه ونكبه. ثم أطلق من محبسه ومضى إلى المغرب ونزل على السلطان

وفد واحد: ابن مكّي صاحب قابس وابن يملول صاحب توزر وابن العابد صاحب قفصة ومولاهم ابن أبي عنان صاحب الحامة وابن الخلف صاحب نقطة، فلقوه بوهرا وآتوه ببعثهم رغبة ورهبة. وأدوا بيعة ابن ثابت صاحب طرابلس، ولم يتخلف عنهم إلا من يعد داره. ثم جاء من بعدهم وعلى أثرهم صاحب الزاب يوسف بن منصور بن مزني ومعه مشيخة الموحدين الدواودة، وكبيرهم يعقوب بن علي فلقيه بنو حسن من أعمال بجاية فأوسع الكل حياءً وكرامةً، وأسنى الصلوات والجوائز وعقد لكل منهم على بلده وعمله. وبعث مع أهل الجزائر الولاية للجباية لنظر مسعود بن إبراهيم البرنياني من طبقة وزرائه، وأغذ السير إلى بجاية، فلما أطلت عساكره عليها توامر أهلها في الامتناع، ثم أنابوا وخرج أميرها أبو عبد الله محمد بن الأمير أبي زكريا فآثاه طاعته، وصرفه إلى المغرب مع إخوانه، وأنزله ببلد ندرومة. وأقطع له الكفاف من جبايتها وبعث على بجاية عماله وخلفاءه. وسار إلى قسطنطينة فخرج إليه أبناء الأمير أبي عبد الله يقدمهم كبيرهم الأمير أبو زيد وآتوه طاعتهم، وأقبل عليهم وصرفهم إلى المغرب وأنزلهم بوجدة وأقطعهم جبايتها، وأنزل بقسطنطينة خلفاءه وعماله، وأطلق القرابة من مكان اعتقالهم بها، وفيهم أبو عبد الله محمد أخو السلطان أبي بكر وبنوه، ومحمد ابن الأمير خالد وإخوانه وبنوه، وأصارهم في جملة حتى صرفهم إلى الغرب من الحضرة من بعد ذلك.

الخبر عن ولاية الأمير أبي العباس الفضل على بونة وأولية ذلك ومصائره

كان السلطان أبو الحسن قد أصهر إلى السلطان أبي بكر قبيل مهلكه في إحدى كرائمه، وأوفد عليه في ذلك عريف بن يحيى كبير بني سويد من زغبة وصاحب شوره وخالصة سره مع وفد من رجالات دولته من طبقات الفقهاء والكتاب والموالي كان فيهم صاحب الفتيا بمجلسه أبو عبد الله السطي وكاتب دولته أبو الفضل بن عبد الله بن أبي مدين وأمير الحرم عنبر الخضي، فأسعف السلطان وعقد له على حظيته عزونة شقة ابنه الفضل وزفها إليه بين يدي مهلكه مع أخيه الفضل، ومعه أبو محمد عبد الواحد بن أكماز من مشيخة الموحدين، وأدركهم الخبر بمهلك السلطان في طريقهم. فلما قدموا على السلطان أبي الحسن تقبلهم بقبول حسن، ورفع مجلس الفضل، ولما استتب له ملكها أعرض له عن ذلك، إلا أنه رعى له ذمة الصهر وسابقة الوعد فأقنعه بالعقد على بونة مكان عمله منذ أيام أبيه، وأنزله بها عندما رحل عنها إلى تونس. واضطفن المولى الفضل من ذلك حقداً لما كان يرجوه من تجافيه له عن ملك آبائه، ولحق وفادته وصهره وأقام بمكان عمله منها يؤمل الكرة إلى أن كان من أمره ما نذكره والله أعلم.

وفد واحد: ابن مكّي صاحب قابس وابن يملول صاحب توزر وابن العابد صاحب قفصة ومولاهم ابن أبي عنان صاحب الحامة وابن الخلف صاحب نقطة، فلقوه بوهرا وآتوه ببعثهم رغبة ورهبة. وأدوا بيعة ابن ثابت صاحب طرابلس، ولم يتخلف عنهم إلا من يعد داره. ثم جاء من بعدهم وعلى أثرهم صاحب الزاب يوسف بن منصور بن مزني ومعه مشيخة الموحدين الدواودة، وكبيرهم يعقوب بن علي فلقيه بنو حسن من أعمال بجاية فأوسع الكل حياءً وكرامةً، وأسنى الصلوات والجوائز وعقد لكل منهم على بلده وعمله. وبعث مع أهل الجزائر الولاية للجباية لنظر مسعود بن إبراهيم البرنياني من طبقة وزرائه، وأغذ السير إلى بجاية، فلما أطلت عساكره عليها توامر أهلها في الامتناع، ثم أنابوا وخرج أميرها أبو عبد الله محمد بن الأمير أبي زكريا فآثاه طاعته، وصرفه إلى المغرب مع إخوانه، وأنزله ببلد ندرومة. وأقطع له الكفاف من جبايتها وبعث على بجاية عماله وخلفاءه. وسار إلى قسطنطينة فخرج إليه أبناء الأمير أبي عبد الله يقدمهم كبيرهم الأمير أبو زيد وآتوه طاعتهم، وأقبل عليهم وصرفهم إلى المغرب وأنزلهم بوجدة وأقطعهم جبايتها، وأنزل بقسطنطينة خلفاءه وعماله، وأطلق القرابة من مكان اعتقالهم بها، وفيهم أبو عبد الله محمد أخو السلطان أبي بكر وبنوه، ومحمد ابن الأمير خالد وإخوانه وبنوه، وأصارهم في جملة حتى صرفهم إلى الغرب من الحضرة من بعد ذلك.

وفد عليه هنالك بنو حمزة بن عمر ومشايخ قومهم الكعوب فأتوا به بإجفال المولى أبي حفص من تونس مع طواعن أولاد مهلهل، واستحثوه باعتراضهم قبل لحاقهم بالقفر، وسرح معهم العساكر في طلبه لنظر حمو العشري من مواليه، وسرح عسكراً آخراً إلى تونس لنظر يحيى بن سلسمان من بني عسكر ومعه أبو العباس بن مكّي، وسارت العساكر لطلب الأمير أبي حفص فأدركوه بأرض الحامة من جهات قابس، وصحبوهم فذافعوا عن أنفسهم بعض الشيء، ثم انفضوا وكبا بالأمير أبي حفص جواده في بعض ناقاء الجرايع، وأجملت الغيايات عنه وعن مولاه ظافر راجلين فتقبض عليهما، وأوثقهما قائد الكتائب بيده، حتى إذا جن الليل وتوقع أن يفلتتهما العرب من أساره قبل أن يصل بهما إلى مولاه فذبحهما، وبعث برؤوسهما إلى السلطان أبي الحسن فوصلا إليه بجاية.

وخلص الفل من الواقعة إلى قابس، فتقبض عبد الملك بن مكّي على رجالات من أهل الدولة، كان فيهم أبو القاسم بن عتو من مشيخة الموحدين وصخر بن موسى من رجالات سدريش

الخبر عن بيعة العرب لابن أبي دبوس

وواقعته مع السلطان أبي الحسن

بالقيروان وما قارن ذلك كله من الأحداث

كان السلطان أبو الحسن لما استوسق له ملك إفريقية أسف العرب بمنعهم من الأمصار التي ملكوها بالإقطاعات، والضرب على أيديهم في الأتاوات، فوجسوا لذلك، واستكانوا لغلبته، وتربصوا الدوائر. وربما كان بعض البادية يشن الغارات في الأطراف فيعتدها السلطان من كبائرهم. وأغاروا بعض الأيام في ضواحي تونس فاستاقوا الظهر الذي كان في مراعيها، وأظلم الجو بينهم وبينه، وخشوا عاديته وتوقعوا بأسه. ووجد عليه أيام القطر من رجالاتهم خالد بن حمزة وأخوه أحمد من بني كعب وخليفة بن عبد الله بن مسكين، وخليفة بن بوزيد من رجالات حكيم.

وساءت طنونهم في السلطان لسوء أفعالهم فدخلوا عبد الواحد بن اللحياني في الخروج على السلطان. وكان من خبر عبد الواحد هذا أنه بعد إجماله من تونس سنة اثنتين وثلاثين وسبعائة كما ذكرناه لحق بابي تاشفين فأقام عنده في مبرة وتكرمة. ولما أخذ السلطان أبو الحسن بمخنق تلمسان واشتد حصارها سال عبد الواحد من أبي تاشفين تخليته للخروج فودعه وخروج إلى السلطان أبي الحسن فنزل عليه. ولم يزل في جملته إلى أن احتل بإفريقية.

فلما خشن ما بينه وبين الكعوب والتمسوا الأعياص من بني أبي حفص ينصبونهم للأمر رجوا أن يظفروا من عبد الواحد بالبيعة فدخلوه وأرتاب لذلك، وخشي بادرة السلطان فرفع إليه الخبر، فتقبض السلطان عليهم أربعتهم بعد أن أحضرهم معه فأنكروا وبهتوا. ثم ونجهم واعتقلهم، وعسكر بساحة الحضرة لغزوهم، وتلوم لبعث الأعطيات وإزاحة العلل، وبلغ الخبر إلى أحياتهم فقطع اليأس أسباب رجائهم. وانطلقوا يحزبون الأحزاب ويلتمسون للملك الأعياص. وكان أولاد مهلهل أقباهم وعديلة حملهم قد آياسهم السلطان من القبول والرضا بما بالغوا في نصيحة المولى أبي حفص ومظاهرته فلحقوا بالفقر، ودخلوا الرمال فركب إليهم قتيبة بن حمزة وأمهم ومعهم ظواعن أبنائهما متذممين لأولاد مهلهل بالعصية والقرابة، فأجابوهم واجتمعوا بقسطيلية وتواهبوا التراث والدماء، وتذامروا بما شملهم من رعب السلطان، وتوقع بأسه. وتفقّدوا من أعياص الموحدين من ينصبونه للأمر، وكان بتوزر أحمد بن عثمان بن أبي دبوس آخر خلفاء بني عبد المؤمن بمراكش وقد ذكرنا خبره وخروجه بجهات طرابلس وأجلابه مع

العرب على تونس أيام السلطان أبي عسيمة. ثم انفضوا وبقي عثمان بجهات قابس وطرابلس إلى أن هلك بجزيرة جربة، واستقر بنو ابنه عبد السلام بالحضرة بعد حين فاعتقلوا بها أيام السلطان أبي بكر. ثم غربهم إلى الإسكندرية مع أولاد ابن الحكيم عند نكبته كما ذكرنا ذلك كله، فنزلوا بالإسكندرية وأقبلوا على الحرف لمعاشهم. ورجع أحمد هذا من بينهم إلى المغرب واستقر بتوزر واحترف بالحياطة. ولما تفقد العرب الأعياص دلمهم على نكروته بعض أهل عرفانه فانطلقوا إليه وجاؤوا به، وجمعوا له الآلة، ونصبوه للأمر وتبايعوا على الاستماتة. وزحف إليهم السلطان في عساكره من تونس أيام الحج من سنة ثمان، ولقيهم بالثنية دون القيروان فغلهم وأجفلوا أمامه إلى القيروان. ثم تدامروا ورجعوا مستميتين ثاني محرم سنة تسع، فاختلف مصافه ودخل القيروان واتهبوا معسكره بما يشتمل عليه وأخذوا بمخنقة إلى أن اختلفوا فأفرجوا عنه وخلص إلى تونس كما نذكر والله تعالى أعلم.

الخبر عن حصار القصة بتونس ثم الإفراج

عن القيروان وعنهما وما تحلل ذلك

كان الشيخ أبو محمد بن تافراكين أيام حجابته للسلطان أبي بكر مستبداً بأمره مفضلاً إليه في سائر شؤونه، فلما استوزره السلطان أبو الحسن لم يحره على مألوفه لما كان قائماً على أمره وليس التفويض للوزراء من شأنه. وكان يظن أن السلطان أبا الحسن سيكل إليه أمر إفريقية وينصب معه الفضل للملك. وربما زعموا أنه عاهد على ذلك فكان في قلبه من الدولة مرض، وكان العرب يفاضونه بذات صدورهم من الخلاف والإجلاب، فلما حصلوا على البغية من الظهور على السلطان أبي الحسن وعساكره وأحاطوا به في القيروان تحيل ابن تافراكين في الخروج على السلطان لما تبين فيه من النكر منه ومن قومه. وبعث العرب في لقائه وأن يعملوه حديث فينهم إلى الطاعة فأذن له وخرج إليهم وقلده حجابة سلطانتهم، ثم سرحوه إلى حصار القصة. وكان السلطان عند رحيله من تونس خلف بها الكثير من حرمه وأبنائه ووجه قومه. فلما كانت واقعة القيروان واتصل الخبر بتونس كانت لبناته هيعة خشي عليها عسكر السلطان على أنفسهم فلجأ من كان معهم من تونس إلى قصبتها، وأحاط بهم الغوغاء فامتنعت عليهم واتخذوا الآلة للحصار، وفرقوا الأموال في الرجال، وعظم فيها غناء بشير من المعلوجين الموالي فطار له ذكر. وكان الأمير أبو سالم ابن السلطان أبي الحسن قد جاء من المغرب

الخبر عن استيلاء الأمير الفضل على

قسطنطينة وبجاية ثم استيلاء أمرائهما

عليهما

كان سنن السلطان أبي الحسن في دولته بالمغرب وفود العمال عليه آخر كل سنة لإيراد جبايتهم والحامسة على أعمالهم، فوفدوا عليه عامهم ذلك من قاصية المغرب ووافاهم خبر الواقعة بقسطنطينة وكان معهم ابن مزني عامل الزاب وفد أيضاً بجبايته وهديته، وكان معهم أبو عمر تاشفين ابن السلطان أبي الحسن كان أسيراً من يوم واقعة طريف. ووقعت المهادنة بين الطاغية وبين أبيه فأطلقه وأوفد معه جمعاً من بطارقه وقدموا معه على أبيه وفد معه أخوه عبد الله من المغرب وكان أيضاً معهم وفد السودان من أهل مالي في غرض السفارة، واجتمعوا كلهم بقسطنطينة، فلما اتصل بهم خير الواقعة على السلطان كثر الاضطراب، وتجلبت السفاه من الغرغراء إلى ما بأيديهم وخشي الملا من أهل البلد على أنفسهم فاستدعوا أبا العباس الفضل من عمله ببونة. ولما أطل على قسطنطينة ثارت العامة بمن كان هنالك من الوفود والعمال واتهبوا أموالهم واستلحموا منهم، وخلص أبناء السلطان مع وفود السودان والجلالفة إلى بسكرة مع ابن مزني، وفي حفارة يعقوب بن علي أمير الدواودة فأوسعهم ابن مزني قري وتكرمة إلى أن لحقوا بالسلطان أبي الحسن بتونس في رجب من سنة تسع.

ودخل المولى الفضل إلى قسطنطينة وأعاد ما ذهب من سلطان قومه. وشمل الناس بعدله وإحسانه، وسوغ الأقطاع والجوائز ورحل إلى بجاية لما آتس من صاغية أهلها إلى الدعوة الخفصية. فلما أطل عليها ثار أهلها بالعمال الذين كان السلطان أنزلهم بها واستباحوهم وأفلتوا من أيدي نكبتهم بجريرة الذن ودخل الفضل إلى بجاية واستولى على كرسي ملكها. ونظمتها مع قسطنطينة وبونة في ملكه. وأعاد القاب الخلافة ورسومها وشيائنها كما كانت، واعتزم على الرحيل إلى الحضرة. وبينما هو يحدث نفسه بذلك إذ وصل الخبر بقدم أمراء بجاية وقسطنطينة من المغرب، وكان من خبرها أن الأمير أبا عنان لما بلغه خبر الواقعة بأبيه وانتزاع منصور ابن أخيه أبي مالك بالبلد الجديد دار ملكهم، وأحسن مجالاص أبيه من هوة الحصار بالقيروان وثب على الأمر ودعا لنفسه، ورحل إلى المغرب كما تذكره في أخباره. وسرح الأمير أبا عبد الله محمد ابن الأمير أبي زكريا صاحب بجاية من الأبناء إلى عمله. وأمد بالأموال وأخذ عليه المواريث ليكون له

فوفاه الخبر دوين القيروان، فانفض معسكره ورجع إلى تونس فكان معهم بالقصبة.

ولما خرج ابن تافراكين من هوة الحصار بالقيروان إليهم طمعوا في الاستيلاء على قصبة تونس وفض ختامها، فدفعوه إلى ذلك. ثم لحق به سلطانه ابن أبي دبوس وعانى من ذلك ابن تافراكين صعباً لكثرة الرجال الذين كانوا بها، ونصبوا المجانيق عليها فلم يغن شيئاً، وهو أثناء ذلك يحاول النجاء بنفسه لاضطراب الأمور واختلال الرسوم إلى أن بلغه خلوص السلطان من القيروان إلى سوسة.

وكان من خبره أن العرب بعد إيقاعهم بعساكره أحاطوا بالقيروان واشتدوا في حصارها، ودخل السلطان أولاد مهلهل من الكعوب وحكيماً من بني سليم في الإفراج عنه، واشترط لهم على ذلك الأموال واختلف رأي العرب لذلك، ودخل عليه فتية بن حمزة بمكانه من القيروان زعماً بالطاعة فتقبله وأطلق أخويه خالداً وأحمد، ولم يبق إليهم.

ثم دخل إليه محمد بن طالب من أولاد مهلهل وخليفة بن بو زيد وأبو الهول بن يعقوب من أولاد القوس وأسرى معهم بعسكره إلى سوسة فصبجها وركب منها في أساطيله إلى تونس، وسبق الخبر إلى ابن تافراكين بتونس فتسلل من أصحابه وركب السفين إلى الإسكندرية في ربيع سنة تسع وأربعين وسبعماية.

وأصبحوا وقد تفقدوه فاضطربوا وأجفلوا عن تونس، وخرج أهل القصبة من أولياء السلطان فملكوها وخربوا منازل الحاشية فيها. ونزل السلطان بها من أسطوله في ربيع الآخر فاستقلت قدمه من العثار، ورجا الكرة لولا ما قطع أسبابها عنه مما كان من انتراء أبنائه بالمغرب على ما تذكره في أخبارهم. وأجلب العرب وابن أبي دبوس معهم على الحضرة ونازلوا بها السلطان فامتنت عليهم فرجعوا إلى مهادنته فعقد لهم السلم، ودخل حمزة بن عمر إليه وأفاد فحبسه إلى أن تقبض على ابن أبي دبوس وأمكنه منه فلم يزل في حبسه إلى أن رحل إلى المغرب، ولحق هو بالأندلس كما تذكره في أخباره، وأقام السلطان بتونس، وفد عليه أحمد بن مكّي فعقد لعبد الواحد بن اللحياني على الثغور الشرقية طرابلس وقابس وصفاس وجربة وسرحه مع ابن مكّي فهلك عند وصوله إليها في الطاعون الجارف، وعقد لأبي القاسم بن عتو من مشيخة الموحدين وهو الذي كان قطعه بإغراء أبي محمد بن تافراكين، فلما ظهر خلافه أعاد ابن عتو إلى مكانه، وعقد له على بلاد قسطنطينة وسرحه إليها وأقام هو بتونس إلى أن كان ما تذكره.

رداء دون أبيه، وليحول بينه وبين الخلوص إليه متى مر به.

وانطلق أبو عبد الله إلى بجاية وقد سبقه إليها عمه الفضل واستولى عليها فنازله بها وطال حصارها، ولحق به بمكانه من منازلها نبيل المولى من العلوجي مع أبناء الأمير أبي عبد الله وكافل بنيه من بعده. وتقدم إلى قسطنطينية وبها عامل من قبل الفضل، فثار به الناس لحينه، ودخل نبيل وملك البلد وأقام فيها دعوة الأمير أبي زيد ابن الأمير أبي عبد الله. وكان الأمير أبو عنان استصحبه وإخوانه إلى المغرب، وبعد احتلاله بفاس سرحهم إلى مكان إمارتهم بقسطنطينية بعد أن أخذ عليهم الموثق في شأن أبيه يمثل موثق ابن عمهم فجاؤوا على أثر نبيل مولاهم ودخلوا البلد واحتل أبو زيد منها مكان إمارته وسلطان قومه كما قبل رحلتهم إلى المغرب.

ولم يزل الأمير أبو عبد الله ينازل بجاية إلى أن بيته بعض ليالي رمضان من سنته بمدخله بعض الأشياع من زعانفتها داخلهم مولاه وكافله فارح في ذلك، فسرب فيهم الأموال وواعدوه للبيات، وفتحوا له باب البر من أبوابها فافتحمها وفاجأهم هدير الطبول فهب السلطان من نومه وخرج من قصره فتسنى الجبل المظلل عليها متسرباً في شعابه إلى أن وضع الصباح وظهر عليه فجيء به إلى ابن أخيه فمن عليه واستبقاه، وأركبه السفين إلى بلده بونة في شوال من سنة تسع وأربعين وسبعمائة ووجد بعض الأعياص من قرابته قد ثاروا بها، وهو محمد بن عبد الواحد من ولد أبي بكر ابن الأمير أبي زكريا الأكبر كان هو وأخوه عمر بالحضرة، وكان لعمر منهما النظر على القرابة. فلما كان هذا الاضطراب لحقوا بالفضل وتركهم بونة عند سفره إلى بجاية، فحدثتهم أنفسهم بالانتراء فلم يتم لهم الأمر. وثار بهم الحاشية والعامّة فقتلوا لوقتهم ووافى الفضل إلى بونة وقد انجلت غيبتهم ومحيت آثارهم فدخل إلى قصره وألقى عصا تسياره، واستقل الأمير أبو عبد الله ابن الأمير أبي زكريا ببجاية محل إمارة أبيه والأمير أبو زيد بن الأمير أبي عبد الله بقسطنطينية محل إمارة أبيه، والأمير أبو العباس الفضل ببونة محل إمارته منذ عهد الإمرة والسلطان أبو الحسن بتونس إلى أن كان من أمرهم ما نذكره إن شاء الله تعالى

الخبر عن حركة الفضل إلى تونس بعد

رحيل السلطان أبي الحسن إلى المغرب

كان العرب بعدما قدمنا من طاعتهم وإسلامهم السلطان إلى

أبي دبوس قد انقبضوا عن السلطان أبي الحسن وأجلبوا عليه ثانية، وتولى كبر ذلك فتية بن حمزة، وخالف إلى السلطان أخوه خالد مع أولاد مهلهل وافترق أمرهم. وخرج كبيرهم عمر بن حمزة حاجاً فاستقدم فتية وأصحابه الأمير الفضل من مكان إمارته ببونة لطلب حقه واسترجاع ملك آبائه، فأجابهم ووصل إلى أحيائهم آخر سنة تسع وأربعين وسبعمائة، فنازلوا تونس وأجلبوا عليها. ثم أفرجوا عنها وعاودوا منازلها أول سنة خمسين وسبعمائة، وأفرجوا عنها آخر المصيف واستدعاهم أبو القاسم بن عتو صاحب الجريد من مكان عمله بتوزر فدخل في طاعة الفضل وحمل أهل الجريد كلهم عليها واتبعه في ذلك بنو مكى وانتقضت إفريقية عن السلطان أبي الحسن من أطرافها فركب أساطيله إلى المغرب أيام الفطر من سنة خمسين وسبعمائة ونهض المولى الفضل إلى تونس وبها أبو الفضل ابن السلطان أبي الحسن، كان أبوه قد عقد له عليها عند رحيله إلى المغرب فتدأياً من ثورات الغوغاء وممرات هيبتهم، وأمن عليه بما كان قد عقد له من الصهر مع عمر بن حمزة في ابنته، فلما أطلت رايات المولى الفضل على تونس أيام الحج نبضت عروق التشيع للدعوة الخفصية، وأحاطت الغوغاء بالقصر ورجوه بالحجارة. وأرسل أبو الفضل إلى بني حمزة متذمراً بصهرهم فدخل عليه أبو الليل وأخرجه ومن معه من قومه إلى الحى واستركب له من رجالات بني كعب من أبلغه مأمنه وهذاه السبيل إلى وطنه، ودخل الفضل إلى الحضرة وقعد بمجلس آبائه من الخلافة وجدد ما طمسه بنو مرين من معالم الدولة واستمر أمره على ذلك إلى أن كان من أمره ما نذكر إن شاء الله تعالى.

الخبر عن مهلك الفضل وبيعة أخيه المولى

أبي إسحاق في كفالة أبي محمد بن تافراكين

وتحت استبداده

لما دخل أبو العباس الفضل إلى الحضرة واستبد بملكها عقد إلى حجابته لأحمد بن محمد بن عتو نائباً عن عمه أبي القاسم ريثما يصل من الجريد وعقد على جيشه وحربه لمحمد بن الشواش من بطانته. وكان وليه المطارد به أبو الليل فتية بن حمزة مستبداً عليه في سائر أحواله مشتطاً في طلباته. وأنف له بطانته من ذلك فحملوه على التنكر له وأن يبدل منه بولاية خالد أخيه وبعث عن أبي القاسم بن عتو وقد قلده في حجابته وفوض إليه أمره وجعل مقاد الدولة بيده، فركب إليه البحر من سوسة واستأنف له خالد بن

الخبر عن حركة صاحب قسطنطينية إلى تونس وما كان من حجابة أبي العباس بن مكي وتصاريه ذلك

لما استولى أبو محمد بن تافراكين على تونس وباع للمولى أبي إسحاق بالخلافة واستبد عليه نقم عليه الأمراء شأن استبداده وشمر ابن مكي للسعي عليه لمنافسة كانت بينهما قديمة من لدن أيام السلطان أبي بكر. واستعان على ذلك بأولاد مهلهل مقاسمي أولاد أبي الليل في رئاسة الكعوب ومجازيهم جبل الإمارة، فلما رأوا صاغية ابن تافراكين إلى أولاد أبي الليل أقتاهم أجمعوا له ولهم، وحالفوا بني حكيم من قبائل علاق، وأجلبوا على الضواحي وشنوا الغارات. ثم وفدوا على الأمير أبي زيد صاحب قسطنطينية وأعمالها يستحثونهم للنهوض إلى إفريقية واستخلاص ملك آباءه عن استبد عليه واحتازه، فسرح معهم عسكريين لنظر ميمون ومنصور الجاهل من مواليه وموالي أبيه، وارتحلوا من قسطنطينية. وارتحل معهم يعقوب بن علي كبير الدواودة بمن معه من قومه وسرح أبو محمد بن تافراكين من الحضرة للقائهم عسكرياً مع أبي الليل بن حمزة لنظر مقاتل من موالي السلطان، والتقى الجمعان ببلاد هواره سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة فكانت الدبرة على أولاد أبي الليل.

وقتل يومئذ أبو الليل فتيحة بن حمزة بيد يعقوب بن سحيم من أولاد القوس شيوخ بني حكيم، ورجع فلهم إلى تونس وامتدت أيدي أولاد مهلهل وعساكر قسطنطينية في البلاد وجبوا الأموال من أوطان هواره وانتهوا إلى أبة. ثم قفلوا راجعين إلى قسطنطينية، وولي على أولاد أبي الليل مكان فتيحة أخوه خالد بن حمزة، وقام بأمرهم، وكان أبو العباس بن مكي أثناء ذلك يكتب المولى أبا زيد صاحب قسطنطينية من مكان ولايته بقباس ويعدة من نفسه الوفاة والممدد بالمال والأحزاب والقيام بأعطيات العرب، حتى إذا انصرم فصل الشتاء وفد عليه مع أولاد مهلهل فلقيه مرة وتكرماً. وعقد له على حجابته وجمع عساكره وجهازه آتته وأزاح علل تابعه، ورحل من قسطنطينية سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة من صفر، وجهاز أبو محمد بن تافراكين سلطانه أبا إسحاق لما يحتاج إليه من العساكر والآلة وجعل على حربه ابنه أبا عبد الله محمد بن نزار من طبقة الفقهاء ومشيوخ الكتاب، كان يعلم أبناء السلطان الكتاب ويقرئهم القرآن كما قدمناه، وفصل من تونس في التعبئة حتى تراءى الجمعان بمجامعته وتزاحفوا فاختل

حمزة ظهيراً على أخيه بعد أن نبذ إليه عهده وفأوضهم أبو الليل ابن حمزة قبل استحكام أمورهم، فغلب على السلطان وحمله على عزله قائده محمد بن الشواش فدفعه إلى بونة على عساكرها.

واضطربت نار الفتنة بين أبي الليل بن حمزة وبين أخيه خالد، وكاد شملهم أن يتصدع. وبينما هم يجيشون نار الحرب ويجمعون الجموع والأحزاب إذ قدم كبيرهم عمر وأبو محمد عبد الله بن تافراكين من حجهم. وكان ابن تافراكين لما احتل بالإسكندرية بعث السلطان أبو الحسن فيه إلى أهل المشرق، وخاطب ملوك مصر في التحكيم فيه فأجاره عليه الأمير المستبد على الدولة حيتنذ ببيغاروس. وخرج من مصر لقضاء فرضه، وخرج عامنذ عمر بن حمزة لقضاء فريضة الحج أيضاً فاجتمعا في مشاهد الحاج آخر سنة خمسين وسبعمائة وتعاقدا على الرجوع إلى إفريقية والتظاهر على أمرهما وقتلا فآلقيا خالداً وفتية على الصفيين فأشار عمر بن داية فاجتمعا وتوافقا ومسح الإحن من صدورهما، وتواطأوا جميعاً على المكر بالسلطان، وبعث إليه وليه فتيحة بالمراجعة فقبله واتفقوا على أن يقتل حجابته أبا محمد بن تافراكين حاجب أبيه وكبير دولته، ويدل به من ابن عتو فأبى.

ثم أضحت ونزلت أحياءهم ظاهر البلد واستحثوا السلطان للخروج إليهم ليكملوا عقد ذلك معه فخرج ووقف بساحة البلد إلى أن أحاطوا به، ثم اقتادوه إلى بيوتهم وأذنوا لابن تافراكين في دخول البلد، فدخلها لإحدى عشرة من جمادى الأولى سنة إحدى وخمسين وسبعمائة وعمد إلى دار المولى أبي إسحاق إبراهيم ابن مولانا السلطان أبي بكر فاستخرجه بعد أن بذل من العهد لأمه والمواثيق ما رضىته، وجاء به إلى القصر وأقعدته على كرسي الخلافة وباع له الناس خاصة وعامة وهو يومئذ غلام مناهز فانعقدت بيعته. ودخل بنو كعب فأنوه طاعتهم وسبق إليه أخوه الفضل ليلتذ فاعتقل وغط من جوف الليل بمحبسه حتى فاض ولاذ حاجيه أبو القاسم بن عتو يومئذ بالاختفاء في غيابات البلد وعثر عليه لليال وامتحن وهلك في امتحانه، وخوطف العمال في الجهات بأخذ البيعة على من قبلهم فبعثوا بها واستقام ابن يملول صاحب توزر على الطاعة وبعث بالجباية والمهدية، واتبعه صاحب نفطة وصاحب قفصة وخالفهم ابن مكي وذهب إلى الإجلاب على ابن تافراكين لما كان قد كفل السلطان وحجزه عن التصرف في أمره واستبد عليه إلى أن كان من أمره ما نذكر إن شاء الله تعالى والله تعالى أعلم.

ثم جاء على أثرهم فتلقاه بالقبول والتكرمة وأنزله بأحسن نزل. ثم دس إليه من أغراه بالنزول له عن بجاية رغبة فيما عند السلطان إزاء ذلك من التجلة والإدالة منها بمكناسة المغرب، والراحة من زبون الجند والبطانة، وإخفاقاً مما سواه إن لم يتعده فأجاب إليه على اليأس والكراهة، وشهد مجلس السلطان في بني مرين بالرغبة في ذلك، فأسعف وأسنت جائزته، واقتطعت له مكناسة من أعمال المغرب. ثم انتزعها لأيام قلائل ونقله في جملته إلى المغرب، وبعث الأمير أبو عنان أبو عبد الله مولاه فارحاً المستبد كان عليه ليأتيه بأهله وولده، وعقد أبو عنان على بجاية لعمر بن علي ابن الوزير من بني واطاس، وهم ينتسبون بزعهم إلى علي بن يوسف أمير لمتونة فاختصه أبو عنان بولايته لثلاثة هذا النسب الصنهاجي بينه وبين أهل وطنها منهم. وانصرفوا جميعاً من المرية. ولما احتلوا بجاية تأمر أولياء الدعوة الحفصية بها ومن صنهاجة والموالي وتمشت رجالاتهم في قتل عمر بن علي الوزير وأشباع بني مرين، وتصدى لذلك زعيم صنهاجة منصور بن إبراهيم بن الحاج مرين، ورجالات من قومه بإملاء فارح كما زعموا. وغدوا عليه في داره من القصة فأكب عليه منصور يناجيه فطعنه وطعن آخر منهم القاضي ابن فركان بما كان شيعاً لبني مرين. ثم أجهزوا على عمر بن علي ومضى القاضي إلى داره فمات.

واتصلت الهبة بفارح فركب إليها وهتف الهاتف بدعوة صاحب قسطنطينية محمد بن أبي زيد، وطبخوا إليه بالخبر واستحثوه للقدوم. وأقاموا على ذلك أياماً ثم تأمر الملا من أهل بجاية في التمسك بدعوة صاحب المغرب خوفاً من بواده فثاروا بفارح وقتلوه أيام التشريق من سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة وبعثوا برأسه إلى السلطان بتلمسان. وتولى كبر ذلك هلال صاحبه من موالي ابن سيد الناس ومحمد بن الحاجب أبي عبد الله بن سيد الناس ومشيخة البلد، واستقدموا العامل بتدلس من بني مرين وهو يحيى بن عمر بن عبد المؤمن من بني ونكاسن فيادر إليهم. وسرح السلطان أبو عنان إليها حاجه أبا عبد الله محمد بن أبي عمرو في الكتائب فدخلها فاتح أربع وخمسين وسبعمائة وذهبت صنهاجة في كل وجه ولحق كبارهم وذوو الفعلة منه بتونس، وتقبض على هلال مولى ابن سيد الناس لما دخلته فيه من الظنة، وعلى القاضي محمد بن عمر لما كان شيعاً لفارح، وعلى عرفاء الغوغاء من أهل المدينة وأشخصهم معتقلين إلى المغرب. وصرف نظره إلى تهديد الوطن واستدعى كبراء العرب وأهل النواحي وأعمال بجاية وقسطنطينية.

وفد عليه يوسف بن مزني صاحب الزاب ومشيخة

مصاف السلطان أبي إسحاق، وافترقت جموعه وولوا منهزمين. واتبهم القوم عشية يومهم ولحق السلطان مجاهبه جي محمد بن تافراكين بتونس وجاؤوا على أثره فنزلوا تونس أياماً وطالت عليها الحرب. ثم امتنعت عليهم وارتحلوا إلى القيروان، ثم إلى قفصة، وبلغهم أن ملك المغرب الأقصى السلطان أبا عنان بعد استيلائه على المغرب الأوسط زحف إلى التخوم الشرقية وانتهى إلى المرية. وكان صاحب بجاية أبو عبد الله قد خالفهم إلى قسطنطينية بمدخله أبي محمد بن تافراكين واستجاشته. ونازل جهات قسطنطينية وانتسف زروعها وشن الغارات في بساطها فبلغهم أنه رجع إلى بجاية منكشاً من زحف بني مرين، واعتزم الأمير أبو زيد على مبادرة ثغره ودار إمارته قسطنطينية. ورغب إليه أبو العباس بن مكي من أولاد مهلهل أن يخلف بينهم من إخوانه من يجتمعون إليه ويزاحفون به، فولى عليهم أخاه أبا العباس فبايعوه، وأقام فيهم هو وشقيقه أبو يحيى زكريا إلى أن كان من شأنه ما نذكر، وانصرف الأمير أبو زيد عند ذلك من قفصة يغذ السير إلى قسطنطينية واحتل بها في جمادى من سنة والله تعالى أعلم.

الخبر عن وفادة صاحب بجاية على ابني عنان واستيلاؤه عليه وعلى بلده ومطالبتة قسطنطينية

كان بين الأمير أبي عبد الله صاحب بجاية وبين الأمير أبي عنان أيام إمارته بتلمسان، ونزول الأعياص الحفصيين بندرومة ووجدة أيام أبيه كما ذكرناه اتصال ومخالصة، أحكمها بينهما نسب الشباب والملك وسابقة الصهر: فكان الأمير أبي عبد الله من أجل ذلك صاغية إلى بني مرين أوجد بها السيل على ملكه. ولما مر به السلطان أبو الحسن في أسطوله عند ارتحاله من تونس كما قدمناه أمر أهل سواحله بمنعه الماء والأقوات من سائر جهاتها رعيًا للذمة التي اعتقدها مع الأمير أبي عنان في شأنه وجنوحاً إلى تشييد سلطانه. ولما أوقع السلطان أبو عنان ببني عبد الواد سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة واستولى على المغرب الأوسط ونجا فلهم إلى بجاية أوعز إلى الأمير أبي عبد الله باعتراضهم في جهاته والتقبض عليهم فأجابهم إلى ذلك، وبعث العيون بالمراسد فعثروا في ضواحي بجاية على محمد ابن سلطانهم أبي سعيد عثمان بن عبد الرحمن، وعلى أخيه أبي ثابت الزعيم بن عبد الرحمن وعلى وزيرهم يحيى بن داود بن مكن فاوثقوهم اعتقالاً، وبعث بهم إلى السلطان أبي عنان.

العام المقبل سنة سبع وخمسين وسبعماية كذلك ونصب عليها الجانيق فامتعت عليه وأرجف في عسكره بموت السلطان فانفضوا وأحرق مجانيقه.

ورجع إلى بجاية وجرر الكتائب ببني ياوارر لنظر موسى بن إبراهيم الزينباني عامل سدويكش إلى أن كان من الإيقاع به وبعسكره ما تذكره إن شاء الله تعالى، والله أعلم

الخبر عن حادثة طرابلس واستيلاء

النصارى عليها ثم رجوعها إلى ابن مكى

كانت طرابلس هذه ثغراً منذ الدول القديمة وكانت لهم عناية بحمايتها لما كان وضعها في البسيط، وكانت ضواحيها قفراً من القبائل فكان النصارى أهل صقلية كثيراً ما يمدثون أنفسهم بملكها. وكان ميخائيل الأنطاكي صاحب أسطول رجار قد تملكها من أيدي بني حيزرون من مغراوة آخر دولتهم ودولة صنهاجة كما ذكرنا. ثم رجعها ابن مطروح ودخلت في دعوة الموحدين ومرت عليها الأيام إلى أن استبد بها ابن ثابت ووليها من بعده ابنه في أعوام خمسين وسبعماية منقطعاً عن الحضرة مقيماً رسم الدعوة. وكان تجار الجنوبيين يترددون إليها فاطلعوا على عورتها واتمروا في غزوها واتعدوا لمرساها فوافوه سنة خمس وخمسين وانتشروا بالبلد في حاجاتهم ثم بيتوها ذات ليلة فضعفوا أسوارها وملكوها عليهم. وهتف هاتفهم بالحرب وقد لبسوا السلاح فارتاعوا وهبوا من مضاجعهم، فلما رأوهم بالأسوار لم يكن همهم إلا النجاة بأنفسهم. ونجا ثابت بن عمر مقدمهم إلى حلة الجوارى في أعراب وطنها من دباب إحدى بطون بني سليم، فقتل لدم كان أصابه منهم. ولحق إخوته بالإسكندرية، واستباحها النصارى، واحتملوا في سفنهم ما وجدوا بها من الخرشي والمتاع والعقائل والأسرى وأقاموا بها. وداخلهم أبو العباس بن مكى صاحب قابس في فدائنها فاشترطوا عليه خمسين ألفاً من الذهب العين، فبعث فيها لملك المغرب السلطان أبي عنان بطرفه بمثنويتها. ثم تعجلوا عليه فجمع ما عنده واستوهب ما بقي من أهل قابس والحامة وبلاد الجريد فجمعوها له حسبة ورغبة في الخير. وأمكنه النصارى من طرابلس فملكها واستولى عليها وأزال ما دنسها من وضر الكفر. وبعث السلطان أبو عنان بالمال إليه وأن يرد على الناس ما أعطوه وينفرد بمثنويتها وذكرها فامتنعوا إلا قليلاً منهم، ووضع المال عند ابن مكى لذلك، ولم يزل ابن مكى أميراً عليها إلى أن هلك كما تذكره في أخباره إن شاء الله تعالى.

الدواودة فاسترهن أبناءهم على الطاعة، وقفل بهم إلى المغرب. واستعمل أبو عنان على بجاية موسى بن إبراهيم الزينباني من طبقة الوزراء وبعثه إليها. ولما وفدوا على السلطان جلس لهم جلوساً فخماً، ووصلوا إليه ولقاهم تكرمة ومبرة، وأوسعهم حياءً وإقطاعاً وأنفذ لهم الصكوك والسجلات وأخذ على طاعتهم العهد والموائيق والرهن وانقلبوا إلى أهلهم وعقد لحاجبه أبي عمرو على بجاية وأعمالها وعلى حرب قسطنطينية من ورائها، ورجعه إليها فدخلها في رجب من سته.

وأوعز السلطان إلى موسى بن إبراهيم بالولاية على سدويكش والنزول ببني ياوارر في كتيبة جهزها هنالك لمضايقة قسطنطينية وجاية وطنها، وكل ذلك لنظر الحاجب ببجاية، وكان بقسطنطينية أبو عمر تاشفين ابن السلطان أبي الحسن معتقلاً من لدن واقعة بني مرين بها. وكان موسوساً في عقله معروفاً بالجنون عند قومه. وكان الأمراء بقسطنطينية قد أسنوا جريته في اعتقاله وأوله من المبرة والخفاوة كفاء نفسه. فلما زحفت كتائب بني مرين إلى بني ياوارر آخر عمر بجاية وأذنوا قسطنطينية ومن بها بالحروب والحصار، نصب المولى أبو زيد هذا الموسوس أبا عمر ليجأى به رجالات بني مرين أهل العسكر ببجاية وبني ياوارر، وجهاز له الآلة، وتسامعوا بذلك فنزع إليهم الكثير منهم. وخرج نبيل حاجب الأمير أبي زيد إلى أهل الضاحية من بونة ومن كان على دعوته من سدويكش والدواودة فجمعهم وزحفوا جميعاً إلى وطن بجاية، واتصل الخبر بالحاجب ببجاية فبعث في الدواودة من مشائهم بالصحرَاء فاقبلوا إليه حتى نزلوا التلول. وودد عليه أبو دينار بن علي بن أحمد واستحثه للحركة على قسطنطينية فاعترض عساكره وأزاح عللهم، وخرج من بجاية في ربيع من سنة خمسين وسبعماية فكر أبو عمر ومن معه راجعين إلى قسطنطينية. وزحف الحاجب فيمن معه من بني مرين والدواودة وسدويكش، ولقيهم نبيل الحاجب بمن معه فكانت عليه الدبرة. واكتسحت أموال بونة، ورجع ابن أبي عمر بعساكره إلى قسطنطينية فأناخ عليها سبعاً. ثم ارتحل عنها إلى ميلة، وعقد يعقوب بن علي بين الفريقين صلحاً على أن يمتكنه من أبي عمر الموسوس، فبعثوا به إلى أخيه السلطان أبي عنان فأنزله ببعض الحجر، ورتب عليه الحرس. وسار الحاجب في نواحي أعماله وانتهى إلى المسيلة واقتضى مغارمها، ثم انكفأ راجعاً إلى بجاية وهلك فاتح سنة ست وخمسين وسبعماية وعقد السلطان على بجاية وأعمالها بعده لوزيره عبد الله بن علي بن سعيد من بني بابان وسرحه إليها فدخلها، وزحف إلى قسطنطينية فحاصرها وامتنت عليه فرجع إلى بجاية. ثم زحف من

الخبر عن بيعة السلطان أبي العباس أمير المؤمنين ومفتتح أمره السعيد بقسطنطينية

واستقدمه أخوه أبو زيد إثر ذلك لينصره من عساكر بني مرين عند ما تكاثفوا عليه، وضاق به الحصار فأجابه وقدم عليه بخالد وقومه وخرج الأمير أبو زيد مع زيد إلى منازل تونس.

واستخلف على قسطنطينية أخاه أبا العباس فدخلها ونزل بقصور الملك منها، وأقام بها مدة وعساكر بني مرين قد ملأت عليه الضاحية فدعا الأولياء إلى الاستبداد وأنه أبلغ في المدافعة والحماية لما كانوا يتوقعون من زحف العساكر إليهم من بجاية، فأجاب ويومع سنة خمس وخمسين، وانعقد أمره. وزحف عبد الله بن علي صاحب بجاية إلى قسطنطينية من سسته، وفي سنة سبع بعدها فحاصرها ونصب الجنائيق. ثم أجفل آخرًا للإرجاف كما ذكرناه. وتنفس مخنق الحصار عن قسطنطينية، وكان الأمير أبو زيد أخوه لما ذهب مع خالد إلى تونس ونازلها امتنعت عليه، ورجع وقد استبد أخوه بأمر قسطنطينية فعدل إلى بونة وراسل أبا محمد بن تافراكين في سكنى الحضرة والتزول لهم عن بونة فأجابه ونزل عنها الأمير أبو زيد لعمه السلطان أبي إسحاق. وتحول إلى تونس فأوسعوا له المنازل وأسنو الجرايات والجواز، وأقام في كفالة عمه إلى أن كان من أمره ما نذكره.

الخبر عن واقعة موسى بن إبراهيم واستيلاء أبي عنان بعدها على قسطنطينية وما تخلل ذلك من الأحداث

لما استبد السلطان أبو العباس بالأمر وزحفت إليه عساكر بجاية وبني مرين، فأحسن دفاعها عن بلده. وتبين لأهل الضاحية تخاليل الظهور فيه فدخله رجالات من سدويكش من أولاد المهدي بن يوسف في غزو موسى بن إبراهيم وكتائبه المجرمة ببني ياورار، ودعوا إلى ذلك ميمون بن علي بن أحمد وكان منحرفاً عن أخيه يعقوب ظهر بني مرين ومناصحهم فأجاب. وسرح السلطان أخاه أبا يحيى زكريا معهم بمن في جلته من العساكر وصبحوهم في غارة شعواء، فلما شارفهم ركبوهم إلىهم فتقدموا قليلاً ثم أحجموا واختل مصافهم وأحيط بهم وأنخن قائد العسكر موسى بن إبراهيم بالجراحة واستلحم بنوه زيان وأبو القاسم ومن إليهم وكانوا أسود هياج وفرسان ملحمة في آخرين من أمثالهم، وتبعوا بالقتل والنهب إلى أن استبيحوا ونجا فلهم إلى بجاية ولحقوا بالسلطان أبي عنان. ولما بلغه الخبر قام في ركائبه وقعد وفتح ديوان العطاء وبعث وزراءه للحشد في الجهات.

كان الأمير أبو زيد قد ولي الأمر من بعد أبيه الأمير أبي عبد الله بولاية جده الخليفة أبي بكر، وكان إخوته جميعاً في جلته، ومنهم السلطان أبو العباس أمير المؤمنين لهذا العهد، والمنفرد بالدعوة الحفصية وكان الناس من لدن مهلك أبيهم يرون أن الوراثة لهم، وأن الأمر فيهم حتى لقد يحكى عن شيخ وقته الولي أبي هادي المشهور الذكر، وكان من أهل المكاشفة، أنه قال ذات يوم وقد جاؤوا لزيارته بأجمعهم على طريقهم وسنن أسلافهم في التبرك بالأولياء فدعا لهم الشيخ ما شاء ثم قال: البركة إن شاء الله في هذه العشر، وأشار إلى الإخوة مجتمعين، وكان الحزى والمنجمون أيضاً يجربون بمثلها، ويجومون بظنونهم على أبي العباس من بينهم لما يفرسون فيه من الشواهد والمخايل. فلما كان من منازل أخيه أبي زيد بتونس سنة ثلاث وخمسين وسبعمئة ما قدمناه، ثم ارتحل عنها إلى نقطة وأراد الرجوع إلى قسطنطينية للإرجاف بشأن السلطان أبي عنان وأنه زحف إلى آخر عمله من تخوم بجاية، رغب إليه حيثذ أولاد مهلهل أولياؤه من العرب وشيعته وحاجبه أبو العباس بن مكي صاحب عملي قابس وجربة أن يستعمل عليهم من إخوته من يقيم معهم لمعاودة تونس بالحصار، فسرح أخاه مولانا أبا العباس فتخلف معهم في ذلك وفي جلته شقيقه أبو يحيى فأقاما بقابس.

وكان صاحب طرابلس محمد بن ثابت قد بعث أسطوله لحصار جربة فدخل الأمير أبو العباس بمن معه الجزيرة وخاضوا إليها البحر فأجفل عسكر ابن ثابت وأفرجوا عن الحصن. ثم رجع السلطان إلى قابس وزحف العرب أولاد مهلهل معه إلى تونس وحاصروها أياماً فامتنت عليهم. ورجع إلى أعمال الجريد وأوفد أخاه أبا يحيى زكريا على السلطان صريحاً سنة خمس وخمسين وسبعمئة، فلقاء مرة ورحباً، وأسنى جائزته وأحسن وعده وانكفاً راجعاً عنه إلى وطنه، ومر بالخابج ابن أبي عمر عند إفراجه عن قسطنطينية، ولحق بأخيه بمكانه من قاصية إفريقية واتصلت أيديهما على طلب حقهما.

وفي خلال ذلك فسد ما بين أبي محمد بن تافراكين صاحب الأمر بتونس وبين خالد بن حمزة كبير أولاد أبي الليل فعدل عنه إلى أقاتله أولاد مهلهل، واستدعاهم للمظاهرة فأقبلوا عليه. وتحيز خالد إلى السلطان أبي العباس وزحفوا معه إلى تونس فنازلوها سنة ست وخمسين وسبعمئة، وامتنت عليهم وأفرجوا عنها

واتسفها.

ثم رجع إلى قسطنطينة وارتحل منها يريد إفريقية وقد نهض المولى أبو إسحاق بمن معه من العرب للقائه، وانتهوا إلى حصن سبتة. ثم تمشت رجالات بني مرين واتمروا في الرجوع عنه حذراً أن يصيبهم بإفريقية ما أصابهم من قبل، فانقضوا متسللين إلى المغرب. ولما خف المعسكر من أهله أقصر عن القدوم إلى إفريقية فرجع إلى المغرب بمن بقي معه، واتبع العرب آثاره، وبلغ الخبر إلى أبي محمد بن تافراكين بمكان منجاة من المهدية فسار إلى تونس. ولما أطل عليها ثار أهل البلد بمن كان عندهم من عسكر بني مرين وعماهم، فنجوا إلى الأساطيل ودخل أبو محمد بن تافراكين إلى الحضرة وأعاد ما طمس من الدولة. ولحق به السلطان أبو إسحاق بعد أن تقدم الأمير أبو زيد في عسكر الجنود والعرب لاتباع آثار بني مرين ومنازلة قسطنطينة، فأتبعه إلى تخوم عملهم ورجع أبو زيد إلى قسطنطينة وقاتلها أياماً فامتعت عليه فانكفاً راجعاً إلى الحضرة. ولم يزل مقيماً بها إلى أن هلك عفا الله عنه وعنا أمين سنة.

وكان أخوه أبو يحيى زكريا قد لحق بتونس من قبل صريحاً كما قلناه، فلما بلغهم أن قسطنطينة قد أحيط بها تمسكوا به فلحق به القل من مواليتهم وصنائعهم فكانوا معه إلى أن يسر الله أسباب الخير والسعادة للمسلمين، وأعاد السلطان أبو العباس إلى الأمر من بعد مهلك أبي عنان كما يذكر ومد إيالته على الخلق فطلع على الرعايا بالعدل والأمان وشمول العافية والإحسان، وكف أيدي العدوان ورتع الناس من دولته في ظل ظليل ومرعى جميل كما نذكر إن شاء الله.

الخبر عن انتفاض الأمير أبي يحيى زكريا

بالمهدية ودخوله في دعوة أبي عنان ثم

نزوله عنها إلى الطاعة وتصاريه ذلك

كان الحاجب أبو محمد عند رجوعه إلى الحضرة صرف عنايته إلى تحصين المهدية بعدها للدولة وزراً من حادث ما يتوقعه من المغرب وأهله، فشيء من أسوارها وشحن بالأقوات والأسلحة مخازنها ومستودعاتها وعقد عليها للأمير زكريا أخي السلطان أبي إسحاق، وكان في كفاته وأنزله بها. وبعث على حجابته أحمد بن خلف من أوليائه وذويه مستبداً عليه فأقام على ذلك حولاً أو بعضه. ثم ضجر الأمير أبو يحيى زكريا من الاستبداد عليه واستنكف من حجره في سلطانه فبيت أحمد بن خلف فقتله،

واعترض الجنود وأزاح العلل وشكا له موسى بن إبراهيم بعود عبد الله بن علي صاحب بجاية عن نصره فسخطه ونكبه وعقد مكانه ليحيى بن ميمون بن مصمود، وتلوم بعده أشهراً في تجهيز العساكر، وبعث السلطان أبو العباس أخاه أبا يحيى إلى تونس صريحاً لعمه السلطان أبي إسحاق فأعجله الأمر عن الإياب إليه، وارتحل أبو عنان في عساكره. ثم بعث في مقدمته وزيره فارس بن ميمون بن ودرار، وزحف على أثره في ربيع سنة ثمان وخسين وسبعمائة، وأخذ السير إلى قسطنطينة وقد نازها وزيره ابن ودرار قبله. فلما نزل بساحتها وقد طبق الأرض الفضاء بجيوشه وعساكره وجم أهل البلد، وأدركهم الدهش فانقضوا وتسللوا إليه. وتخير السلطان أبو العباس إلى القصبة فامتنع بها حتى توثق لنفسه بالعهد. ثم نزل إليه فكفاه تكرمة ورحباً وبنى له الفساطيط في جواره. ثم بدا له لأيام قلائل فتقض عهده وأركبه السفن إلى المغرب، وأنزله بسبتة وربت عليه الحرس، وبعث خلال ذلك إلى بونة فدخلت في طاعته، وفر عنها عمال الحضرة. ولما استولى عقد على قسطنطينة لمنصور بن خلوف شيخ بني بابان من قبائل بني مرين. ثم بعث رسله إلى أبي محمد بن تافراكين في الأخذ بطاعته والتزول عن تونس فردهم، وأخرج سلطانه المولى أبا إسحاق مع أولاد أبي الليل ومن إليهم من العرب بعد أن جهز له العساكر وما يصلح من الآلة والجند، وأقام هو بتونس واجمع أبو عنان النهوض إليه، ووفد إليه أولاد مهلهل يستحثونه لذلك، فسرح معهم عسكراً في البر لنظر يحيى بن رحو بن تاشفين بن معطي حشود كبير تيريين من قبائل بني مرين وصاحب الشورى في مجلسه. وسرح عسكراً آخر في الأسطول لنظر محمد بن يوسف المعروف بالأبكم من بني الأحمر من الملوك بالأندلس لهذا العهد، فسبق الأسطول وصبحوا تونس وقاتلوا يوماً أو بعض يوم، وأتبع لهم الظهور فخرج عنها أبو محمد بن تافراكين ولحق بالمهدية، واستولت عساكر بن مرين على تونس في رمضان سنة ثمان وخسين وسبعمائة، وحق لهم الظهور فخرج عنها أبو محمد بن تافراكين، ولحق يحيى بن رحو بعسكره فدخل البلد وأمضى فيها أوامر السلطان. ثم دعاه أولاد مهلهل إلى الخروج لمباغثة أولاد أبي الليل وسلطانهم فخرج معهم لذلك، وأقام ابن الأحمر وأهل الأسطول بالبلد، وفي خلال ذلك جاهر يعقوب بن علي بالخلاف لما تبين من نكره السلطان أبي عنان وإرهاب حده للعرب، ومطالبتهم بالرهن، وقبض أيديهم عن الاتاوات ومسح اعطافه بالمادارات فلم يقبلها يعقوب بالرمل، واتبعه السلطان فأعجزه فعدا على قصوره ومنازله بالثل والصحرَاء فخرها

العساكر. وتلقاهم يعقوب بن علي وظاهرهم على أمرهم وسار أخوه أبو دينار في جملتهم. ولما أطلوا على بجاية ثارت الغوغاء يبعثي بن ميمون العامل، كان عليهم منذ عهد السلطان أبي عنان، فألقى بيده وتقيض عليه وعلى من كان من قومه، وأركبوا السفين إلى الحضرة، وأودعهم أبو محمد بن تافراكين مسجونين تحت كرامة وجراية إلى أن من عليهم من بعد ذلك وأطلقهم إلى المغرب.

ودخل السلطان أبو إسحاق إلى بجاية سنة إحدى وستين وسبعمائة واستبد بها بعض الاستبداد وحاجبه وكافله أبو محمد يدير أمره من الحضرة. ثم استقدم ابنه ونصب لوزارة السلطان أبا محمد عبد الواحد بن محمد من أكمازي من مشيخة الموحدين فكان يقيم له رسم الحجابة. وقام بأمر الرجل بالبلد من الغوغاء علي بن صالح من زعانفة بجاية وأوغادها، التفأ عليه الشرار والدعار وأصبحت له بهم شوكة كان له بها تغلب على الدولة إلى أن كان من أمره ما نذكره إن شاء الله تعالى والله أعلم.

الخبر عن فتح جربة ودخولها في دعوة

السلطان أبي إسحاق صاحب الحضرة

هذه الجزيرة جربة من جزر هذا البحر الذي يمر قريباً من قابس وإلى الشرق عنها قليلاً طولها من المغرب إلى المشرق ستون ميلاً، وعرضها من ناحية الغرب عشرون ميلاً. ومن ناحية الشرق خمسة عشر ميلاً، وبينها وبين قرقنة في ناحية الغرب ستون ميلاً. وشجرها التين والنخل والزيتون والعنب، واختصت بالتفاح وعمل الصوف للباسهم فيتخذون منه الأكسية المعلمة للاشتغال وغير المعلمة للباس. ويجلب منها إلى الأقطار فينتقيه الناس للباسهم. وأهلها من البربر من كتامة وفيهم إلى الآن سدويكش وصدغيان من بطونهم، وفيهم أيضاً من نفزة وهوارة وسائر شعوب البربر. وكانوا قديماً على رأي الخوارج، وبقي بها إلى الآن فرقان منهم: الوهبة وهم بالناحية الغربية، ورتاسهم لبني سمومن، والكنارة وهم بالناحية الشرقية، وجربة فاصلة بينهما.

والظهور والرئاسة على الكل لبني سمومن. وكان فتحها أول الإسلام على يد ربيعة بن ثابت بن سكن بن عدي بن حارثة من بني ملك بن النجار من الأنصار من جند مصر، ولاه معاوية على طرابلس سنة ست وأربعين فغزا إفريقية وفتح جربة سنة سبع وأربعين بعدها، وشهد الفتح حنش بن عبد الله الصنعاني ورجع إلى برقة فمات بها. ولم تزل في ملكة المسلمين إلى أن دخل دين الخوارج إلى البربر فأخذوا به. ولما كان شأن أبي زيد

وبعث عن أبي العباس أحمد بن مكّي صاحب جربة وقابس ليقسم له رسم الحجابة بما كان مناوئاً لأبي محمد بن تافراكين كافله فوصل إليه، وطبخوا بالخبر إلى السلطان أبي عنان صاحب المغرب وبعثوا إليه ببيعتهم واستحثوه لصريحهم. واضطراب أمرهم. وسرح أبو محمد بن تافراكين إليها العسكر فأجفلوا أمامه، ولحق المولى أبو يحيى زكريا بقابس، واستولى عليها العسكر واستعمل عليها أبو محمد بن تافراكين محمد بن الجكجك من قرابة ابن ثابت، اصطنعه عندما وقعت الحادثة على طرابلس، ولحق به فاستعمله على المهديّة. ولما وصل الخبر إلى أبي عنان بشأن المهديّة جهز إليها الأسطول وشحنه بالمقاتلة والرجال، وعين الموالي والخاصة فألفوها وقد رجعت إلى إيالة الحضرة، ووصل إليها ابن الجكجك وأقام بها وحسن غناؤه فيها إلى أن كان من أمره ما نذكر.

وأقام الأمير زكريا بقابس، وأجلب به أبو العباس بن مكّي على تونس. ثم بعثوه بالدواودة ونزل على يعقوب بن علي وأصهر إليه في ابنة أخيه سعيد، فعقد له عليها. ولما استولى أخوه أبو إسحاق على بجاية استعمله على سدويكش بعض الأعوام، ولم يزل بين الدواودة إلى أن هلك سنة ست وسبعين وسبعمائة كما نذكره بعد.

الخبر عن استيلاء السلطان أبي إسحاق

على بجاية وإعادة الدعوة الحفصية إليها

لما رجع السلطان أبو عنان من قسطنطينة إلى المغرب أراح بسبته، وسرح عساكره من العام المقبل إلى إفريقية لنظر وزيره سليمان بن داود فسار في نواحي قسطنطينة ومعه ميمون بن علي بن أحمد أدبل به من يعقوب على قومه من الدواودة، وعثمان بن يوسف بن سليمان شيخ أولاد سباع منهم. وحضر معهم يوسف بن مزني عامل الزاب، أوعز إليه السلطان بذلك فدوخ الجهات وانتهى إلى آخر وطن بونة، واقتضى المغارم. ثم انكفأ راجعاً إلى المغرب وهلك السلطان أبو عنان إثر قفوله سنة تسع وخمسين وسبعمائة، واضطرب أمر المغرب ثم استقام على طاعة أخيه السلطان أبي سالم كما نذكره. وكان أهل بجاية قد نعموا على عاملهم يحيى بن ميمون من بطانة السلطان أبي عنان سوء ملكته وشدة سطوته وعسفه فدخلوا أبا محمد بن تافراكين على البعد في التوثب به، فجهز إليهم السلطان أبا إسحاق ما يحتاج إليه من العساكر والآلة، ونهض من تونس ومعه ابنه أبو عبد الله على

سنة إحدى وثلاثين وثلثمائة فأخذوا بدعوته بعد أن دخلوها عنوة، وقتل مقدمها يومئذ ابن كلدين وصلبه.

ثم استردها المنصور لإسماعيل، وقتل أصحاب أبي يزيد. ولما غلبت العرب صنهاجة على الضواحي وصارت لهم أخذ أهل جربة في إنشاء الأساطيل وغزو الساحل. ثم غزاهم علي بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس سنة تسع وخسمائة بأساطيله إلى أن انقادوا وضمنوا قطع الفساد وصلاح الحال. ثم تغلب النصارى عليها سنة تسع وعشرين وخسمائة عند تغلبهم على سواحل إفريقية. ثم ثار أهلها عليهم وأخرجوهم سنة ثمان وأربعين وخسمائة ثم تغلبوا عليها ثانية وسبوا أهلها واستعملوا على الرعية وأهل الفلج. ثم عادت للمسلمين ولم تنزل مترددة بين المسلمين والنصارى إلى أن غلب عليها الموحدون أيام عبد المؤمن. واستقام أمرها إلى أن استبد بنو أبي حفص بإفريقية. ثم افترق أمرهم بعد حين واستبد المولى أبو زكريا ابن السلطان أبي إسحاق بالناحية الغربية، وشغل صاحب الحضرة بشأنه كما قدمناه، فتغلب على هذه الجزيرة أهل صقلية سنة ثمان وثمانين وستمائة وبنوا بها حصن القشتيل مربع الشكل في كل ركن منه برج، وبين كل ركنين برج. ويدور به فخير وسوران. وأهم المسلمين شأنها، ولم تنزل عساكر الحضرة تتردد إليها كما تقدم إلى أن كان فتحها أيام السلطان أبي بكر على يد خولف بن الكدام من بطانته سنة ثمان وثلثين وسبعمئة واستضافها ابن مكي صاحب قابس إلى عمله فأضافها إليه، وعقد له عليها فصارت من عمله سائر أيام السلطان ومن بعده.

واتصلت الفتنة بين أبي محمد بن تافراكين وبين ابن مكي، وبعث الحاجب أبو محمد ابن تافراكين عن ابنه أبي عبد الله، وكان في جملة السلطان ببجاية كما قلناه.

ولما وصل إليه سرحه في العساكر لحصار جربة وكان أهلها قد نقموا على ابن مكي سيرته فيهم ودسوا إلى أبي محمد بن تافراكين بذلك، فرسح إليه ابنه في العساكر سنة ثلاث وستين وسبعمئة وكان أحمد بن مكي غائباً بطرابلس قد نزلها منذ ملكها من أيدي النصارى، وجعلها داراً لإمارته فنهض العسكر من الحضرة لنظر أبي عبد الله ابن الحاجب أبي محمد، ونهض الأسطول في البحر فزلوا بالجزيرة وضايقوا القشتيل بالحصار إلى أن غلبوا عليه وملكوه. وأقاموا به دعوة صاحب الحضرة. واستعمل أبو عبد الله بن تافراكين كاتبه محمد بن أبي القاسم بن أبي العيون، كان من صنائع الدولة منذ العهد، وكانت لأبيه قرابة من ابن عبد العزيز الحاجب ترقى بها إلى ولاية الأشغال بتونس

مناهضاً لأبي القاسم بن طاهر الذي كان تولاهما يومئذ، فكان رديفه عليها إلى أن هلك ابن طاهر فاستبد هو بها منذ أيام الحاجب أبي محمد واتصل ابنه محمد هذا بخدمة ابن الحاجب واختص بكتابته إلى أن استعمله على جربة عند استيلائه عليها هذه السنة، وانكفاً راجعاً إلى الحضرة فلم يزل محمد بن أبي العيون والياً عليها. ثم استبد بها على السلطان بعد مهلك الحاجب وفرار ابنه من السلطان إلى أن غلبه عليها السلطان أبو العباس سنة أربع وسبعين وسبعمئة كما نذكره.

الخبر عن عودة الأمراء من المغرب واستيلاء السلطان أبي العباس على قسنطينة

لما هلك السلطان أبو عنان قام بأمره من بعده وزيره الحسن بن عمر، ونصب ابنه محمد السعيد للأمر كما نذكره في أخباره. وكان يضطغن للأمير أبي عبد الله صاحب بجاية فقبض عليه لأول أمره واعتقله حذراً من وثوبه على عمله فيما زعموا. وكان السلطان أبو العباس بسبته منذ أنزله السلطان أبو عنان بها، ورتب عليه الحرس كما ذكرنا، فلما انتزى على الملك المنصور بن سليمان من أعياص ملكهم، ونازل البلد الجديد دار الملك ودخل في طاعته سائر الممالك والأعمال بعث في السلطان أبي العباس واستدعاه من سبته فنهض إليه. وانتهى في طريقه إلى طنجة ووافق في ذلك إجازة السلطان أبي سالم من الأندلس لطلب ملكه. وكان أول ما استولى عليه من أعمال المغرب طنجة وسبته فاتصل به السلطان أبو العباس وظهره على أمره إلى أن نزح إليه قبيلة بنو مريس عن منصور بن سليمان المتزني على ملكهم فاستوسق أمره واستتب سلطانه به ودخل فاس وسرح الأمير أبا عبد الله من اعتقال الحسن بن عمر كما قدمناه. ورعى للسلطان أبي العباس ذمة سوابقه القديمة والحادثة فرفع مجلسه وأسنى جريته، ووعدته بالمظاهرة على أمره، واستقروا جميعاً في إيالته إلى أن كان من تغلب السلطان أبي سالم على تلمسان والمغرب الأوسط ما نذكره في أخبارهم.

واتصل به ثورة أهل بجاية بعاملهم يحيى بن ميمون ورجالات قبيلهم، فامتعض لذلك وحين قفل إلى المغرب نفذ يده من الأعمال الشرقية ونزل للسلطان أبي العباس عن قسنطينة دار إمارته ومثوى عزه ومنبت ملكه، فأوعز إلى عاملها منصور بن خولف بالنزول له عنها وسرحه إليها وسرح معه

فامتنت عليه خرج إلى أحياء العرب كما قدمناه ولزم صحابته أولاد يحيى بن علي بن سبيح فغربوا في الوفاء بها. وأقام بين ظهرانيهم وفي حللهم متقبلاً في طلب بجاية برحلة الشتاء والصيف وتكفلوا نفقة عياله ومؤنة حشمه وأنزلوه ببلد المسيلة من أوطانهم، وتحافوا له عن جبايتهم وأقام على ذلك سنين خمساً ينازل بجاية في كل سنة منها مراراً، وتحول في السنة الخامسة عنهم إلى أولاد علي بن أحمد، ونزل على يعقوب بن علي فأسكنه بمقرة من بلاده إلى أن بدا لعمه المولى أبي إسحاق رايه في اللحاق بتونس لما توقع من مهلك حاجبه وكافله أبي محمد بن تافراكين، أسره إليه بعض الحزى فحذره مغبته ووقع من ذلك في نفوس أهل بجاية انحراف عنه ومرج أمرهم وراسلوا أميرهم الأقدم أبا عبد الله من مكانه بمقرة وظاهره على ذلك يعقوب بن علي وأخذ له العهد على رجالات سدويكش أهل الضاحية، وارتحلوا معه إلى بجاية ونازلها أياماً. ثم استيقن الغوغاء اعترزم سلطانهم على التقيض عنهم، وسثموا ملكة علي بن صالح الذي كان عريضاً عليهم فثاروا به ونبدوا عهده وانفضوا من حوله إلى الأمير أبي عبد الله بالرسة من ساحة البلد. ثم قادوا إليه عمه أبا إسحاق فمن عليه وخلي سبيله إلى حضرته فلحق بها واستولى أبو عبد الله على بجاية محل إمارته في رمضان سنة خمس وستين وسبعماية على علي بن صالح ومن معه من عرفاء الغوغاء أهل الفتنه فاستصفي أمواهم، ثم أمضى حكم الله في قتلهم. ثم نهض إلى تدلس لشهرين من مملكة بجاية فغلب عليها عمر بن موسى عامل بني عبد الواد، ومن أعياص قبيلهم، وتملكها في آخر سنة خمس وستين وسبعماية. وبعث عني من الأندلس كنت مقيماً بها نزيلاً عند السلطان أبي عبد الله بن أبي الحجاج بن الأحمر في سبيل اغتراب ومطوعة تقلب منذ مهلك السلطان أبي سالم المجاذب بضيعي إلى تنوييه، والراقي بي في خطط كتابته من ترسيل وتوقيع ونظر في المظالم وغيرها. فلما استدعاني هذا الأمير أبو عبد الله بادرته إلى امتثاله ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ ﴿وَلَوْ كُنْتَ أَعْلَمَ الْغَيْبِ لَاسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ فاجزت البحر شهر جمادى من سنة ست وخمسين وسبعماية وقلدني حجابته، ودفع إلي أمور مملكته. وقمت في ذلك المقام المحمود إلى أن أذن الله بانقراض أمره، وانقطاع دولته، ولله الخلق والأمر، ويده تصاريق الأمور.

الأمير أبا عبد الله ابن عمه لطلب حقه في بجاية، والأجلاب على عمه السلطان أبي إسحاق جزاء بما نال من بني مرين عند افتتاحها من المعرة. وارتحلوا إلى تلمسان في جمادى من سنة إحدى وستين وسبعماية وأغذوا السير إلى موطنهم. فاما السلطان أبو العباس فوقف منصور بن خلوف عامل البلد على خطاب سلطانه بالنزول عن قسطنطينية فنزل وأسلمها إليه، وأمكنه منها فدخلها شهر رمضان سنة إحدى وستين وسبعماية واقتعد سرير ملكه منها وتباشرت بعودته مقاصر قصورها فكانت مبدءاً لسلطانه ومظهراً لسعادته ومطلعاً لدولته على ما نذكر بعد.

وأما الأمير أبو عبد الله صاحب بجاية فلحق بأول وطنها، واجتمع إليه أولاد سبيح أهل ضاحيتها وقفروها من الدواودة. ثم زحف إليها فنازلها أياماً وامتنت عليه فرحل عنها إلى بني ياورار، واستخدم أولاد محمد بن يوسف والعزيزيين أهل ضاحيتها من سدويكش. ثم نزعوا عنه إلى خدمة عمه ببجاية فخرج إلى القصر مع الدواودة إلى أن كان من أمره ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن وصول الأخ الأمير أبي يحيى بن زكريا من تونس وافتتاحه بونة واستيلائه عليها

كان الأمير أبو يحيى زكريا منذ بعثه أخوه العباس إلى عمهما السلطان أبي إسحاق صريحاً لم يزل مقيماً بتونس، وبلغه استيلاء السلطان أبي عنان على قسطنطينية فخشي الحاجب أبو محمد بن تافراكين بادرته، وتوقع زحفه إليها وغلبيه إياه على الأمر. ورأى أن يخفض جناحه في أخيه، ويتوثق به فاعتقله بالقصبة تحت كرامة ورعي، وبعث فيه السلطان أبو الحسن بعد مراوضة في السلم فأطلقه وانعقد بينهما السلم. ولما وصل الأمير أبو يحيى إلى أخيه بقسطنطينية عقد له على العساكر وزحف إلى بونة فملكها سنة اثنتين وستين وعقد له عليها وأنزله بها مع العساكر وأصارها تخملاً لعمله واستمرت حالها على ذلك إلى أن كان من أمرها ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن استيلاء الأمير أبي عبد الله على بجاية ثم على تدلس بعدها

لما قدم السلطان أبو عبد الله من المغرب ونازل بجاية

الخبر عن مهلك الحاجب أبي محمد بن

تافراكين واستبداد سلطانه من بعده

كان السلطان أبو إسحاق آخر دولته بجاية قد تحين مهلك حاجبه المستبد عليه أبي محمد بن تافراكين لما كان أهل صناعة التنجيم يحدثونه بذلك، فأجمع الرحلة إليها، وانفض عنه أهل بجاية إلى ابن أخيه كما قدمناه. واستولى عليه ثم أطلقه إلى حضرته فلاحق بها في رمضان سنة خمس وستين وسبعماية وتلقاه أبو محمد بن تافراكين ورآه مرهف الحد للاستبداد الذي لفه ببجاية فكابله بصاع الوفاق، وصارفه نقد المصانعة، وازدلف بأنواع القربات. وقاد إليه التجائب ومنحه من الذخائر والأموال وتجاوى له عن النظر في الجبابة. ثم أصهر إليه السلطان في كريمته ففقد له عليها وأعرس السلطان بها. ثم كان مهلكه عقب ذلك سنة ست وستين وسبعماية فوجم السلطان لنعيه وشهد جنازته حتى وضع يملحده من المدرسة التي اختطها لقراءة العلم إزاء داره جوفي المدينة. وقام على قبره باكياً وحاشيته يتناولون التراب حثياً على جدته فغرب في الوفاء معه بما تحدث به الناس واستبد من بعده بأمره وأقام سلطانه لنفسه.

وكان أبو عبد الله الحاجب ابن أبي محمد غائباً عن الحضرة. خرج منها بالعسكر للجبابة والتمهيد فلما بلغه خبر مهلك أبيه داخلته الظنة وأوجس الخيفة فصرف العسكر إلى الحضرة، وارتحل مع حكيم من بني سليم، وعرض نفسه على معاقل إفريقية التي كان يظن أنها خالصة لهم. فصدّه محمد بن أبي العيون كاتبه عن جربة، ومحمد بن الجكجك الحكيم صنيعهم وبطانتهم عن المهديّة. وبعث إليه السلطان بما رضىه من الأمان فاستصحب بعد التفور وبادر إلى الحضرة فتلّقه السلطان بالبر والترحيب، وقلده حجابته وأنزله على مراتب العز والتنويه. ونكر هو مباشرة السلطان للناس من رفعه للحجاب، ولم يزل يريضة لما ألف من الاستبداد منذ عهد أبيه فأظلم الجو بينه وبين السلطان ودبت عقارب السعاية لمهاده الوثر، فتكر وخرج من تونس ولحق بقسطنطينية، ونزل بها على السلطان أبي العباس مرغباً له في ملك تونس ومستحثاً فأنزله خير نزل، ووعدّه بالنهوض معه إلى إفريقية بعد الفراغ من أمر بجاية لما كان بينه وبين ابن عمه صاحبها من الفتنة كما نذكرها بعد. واستبد السلطان أبو إسحاق بعد مفر ابن تافراكين عنه، ونظر في أعطاف ملكه، وعقد على حجابته لأحمد بن إبراهيم اليافعي مصطنع الحاجب أبي محمد من طبقة العمال، وعلى العساكر والحرب لمولاه منصور سريجه من العلوجي،

ورفع الحجاب بينه وبين رجال دولته وصنائع ملكه حتى باشر جبايات الخراج وعرفاء الخشم، وأوصلهم إلى نفسه والغنى الوسائط بينهم وبينه إلى حين مهلكه كما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى، والله تعالى أعلم.

الخبر عن استيلاء السلطان أبي العباس على

بجاية وملك صاحبها ابن عمه

لما ملك الأمير أبو عبد الله بجاية واستقل بإمارتها تنكر للرعية وساءت سيرته فيهم بإرهاق الحد للكافة وإسقاط الخاصة، فغلّت الصدور ومرضت القلوب واستحكمت النفرة، وتوجهت الصاغية إلى ابن عمه السلطان أبي العباس بقسطنطينية لما كان أسوس منه وأغلب للذاته وأقوم على سلطانه. وكانت بينهما فتنة وحروب جرتها المنافسة في تحوم العماليتين منذ عهد الآباء. وكان السلطان أبو العباس أيام نزوله على السلطان أبي سالم محمود السيرة والخلال عنده مستقيم الطريقة في مثنى اغترابه. وربما كان ينقم على ابن عمه هذا بعض النزعات المعرصة لصاحبها للامامة فيستقل نصيحته. ونغل بذلك ضميره، فلما استولى على بجاية عاد إلى الفتنة فشبها، وشمر عزائمها لما فكان مغلياً فيها. واعتلق منه يعقوب بن علي بذمة في المظاهرة على السلطان أبي العباس فلم يغن عنه وراجع يعقوب سلطانه. ثم جهز هو العساكر من بجاية لمزامحة تخوم قسطنطينية ففضها أبو العباس فنهض إليه ثانية بنفسه في العساكر، وتراجع العرب من أولاد سباع بن يحيى وجمع هو أولاد محمد وزحف فيهم وفي عسكر من زناتة، والتقى الفريقان بناحية سطيف فاحتل مصاف أهل بجاية وانهزموا، واتبعهم السلطان أبو العباس إلى تكررارات وجال في عمله ووطىء نواحي وطنه، وقفل إلى بلده.

ودخل الأمير أبو عبد الله إلى بجاية وقد استحكمت النفرة بينه وبين أهل بلده فدمسوا إلى السلطان أبي العباس بقسطنطينية بالقدوم عليهم، فوعدهم من العام القابل وزحف سنة سبع وستين وسبعماية في عساكره وشيعته من الدواودة أولاد محمد، وانضوى إليه أولاد سباع شيعه بجاية بالجوار والسابقة القديمة لما نكروا من أحوال سلطانهم. وعسكر الأمير أبو عبد الله بلبرو في جمع قليل من الأولياء وأقام بها يرجو مدافعة ابن عمه بالصلح، فبيته السلطان بمعسكره من لبرو، وصحبه في غارة شعواء فانفض جمعه، وأحيط به، وانهب المعسكر، ومروا إلى بجاية، فأدرك في بعض الطريق وتقبض عليه، وقتل قعصاً بالرماح. وأغذ السلطان أبو

عم أبي هو من أعياص بيتهم، وكان من خبره أنه كان خرج من المغرب كما تذكره في أخباره. ونزل على السلطان أبي إسحاق بالحضرة ورعى له أبو محمد الحاجب حق بيته فأوسع في كرامته. ولما غلب الأمير أبو عبد الله على تدلس بعث إليه من تونس ليوليه عليها، وتكون رداء بينه وبين حمو، ويتفرغ هو للأجلاّب على وطن قسطنطينية، فبادر إلى الإجابة وخرج من تونس. وممر السلطان أبو العباس بمكانه من قسطنطينية فصدّه عن سبيله واعتقله عنده مكرماً، فلما غلب على بجاية وبلغه الخبر بزحف أبي هو أطلقه من اعتقاله ذلك واستبغ في تكريمته وحجابه، ونصبه للملك وجهز له بعض الآلة. وخرج في معسكره مولاة بشير ليجاجيء به بني عبد الواد عن ابن عمه أبي هو لما سثموا من ملكه وعنفه.

وكان زغبة عرب المغرب الأوسط في معسكر أبي هو، وكانوا حذرين من مقبة أمره معهم فراسلوا أبا زيان واتمروا بينهم في الأرجاف بالمعسكر. ثم تخبوا لذلك أن يشب الحرب بين أهل البلد وأهل المعسكر فأجفلوا خامس ذي الحجة، وانفض بالمعسكر وانتهاوا إلى مضائق الطرقات بساح البلد فكظت بزحامهم وتركوا عليها فهلك الكثير منهم، وخلفوا من الأثقال والعيال والسلاح والكراع ما لا يحيط به الوصف. وأسلم أبو هو عياله وأمواله فصارَتْ نهياً واحتلبت حظاياه إلى السلطان فوهبها لابن عمه ونجا أبو هو بنفسه بعد أن طاح في كظيظ الزحام عن جواده فنزل له وزيره عمران بن موسى عن مركوبه فكان نجاةً عليه، ولحق بالجزائر في الفل، ولحق منها بتلمسان وتابع أبو زيان أثره، واضطرب المغرب الأوسط كما تذكره في أخباره. وخرج السلطان أبو العباس من بجاية على إثر هذه الواقعة فنازل تدلس وافتتحها وغلب عليها من كان بها من عمال بني عبد الواد وانتظمت الثغور الغربية كلها في ملكه كما كانت في ملك جده الأمير أبي زكريا الأوسط حين قسم الدعوة الحفصية بها إلى أن كان ما تذكره بعده إن شاء الله تعالى.

الخبر عن زحف العساكر إلى تونس

كان أبو عبد الله ابن الحاجب أبي محمد بن تافراكين لما نزع عن السلطان أبي إسحاق صاحب الحضرة لحق بمجلل أولاد مهلهل من العرب، ووفدوا جميعاً على السلطان أبي العباس فاتح سنة سبع وستين وسبع مائة يستحثونه إلى الحضرة ويرغبونه في ملكها فاعتذر لهم بما كان عليه من الفتنة مع ابن عمه صاحب بجاية. وزحف إليها في حركة الفتح وصاروا في جملة، فلما استكمل فتح

العباس السير إلى بجاية فأدرك بها صلاة الجمعة تاسع عشر شعبان من سنة سبع وستين وسبع مائة، وكنت بالبلد مقيماً فخرجت إليه في الملاء وتلقاني بالمرة والتنويه. وأشار إلي بالاصطناع واستوسق له ملك جده الأمير أبي زكريا الأوسط في الثغور العربية وأقمت في خدمته بعض شهر. ثم توجست الخيفة في نفسي وأذنته في الانطلاق فأذن لي تكراً وفضلاً وسعة صدر ورحمة، ونزلت على يعقوب بن علي، ثم تحولت عنه إلى بسكرة ونزلت على ابن مزني إلى أن صفا الجو، واستقبلت من أمري ما استدبرت واستأذنته ثلاث عشرة سنة من انطلاقي عنه في خبر طويل نقصه من شأني فأذن لي، وقدمت عليه فقابلتني وجوه عنايته، وأشرقت علي أشعة بحته كما تذكر ذلك من بعد إن شاء الله تعالى.

الخبر عن زحف أبي هو وبني عبد الواد إلى بجاية ونكبتهم عليها وفتح تدلس من أيديهم بعدها

كان الأمير أبو عبد صاحب بجاية لما اشتدت الفتنة بينه وبين ابن عمه السلطان أبي العباس مع ما كان بينه وبين بني عبد الواد من الفتنة عند غلبه إياهم على تدلس تكاند عن حمل العداوة من الجانبين، وصفا إلى مهادنة بني عبد الواد فنزل لهم عن تدلس، وأمكن منها قائد العسكر المحاصر لها. وأوفد رسله على سلطانهم أبي هو بتلمسان، وأصهر إليه أبو هو في ابنته فعقد له عليها وزفها إليه بجهاز أمثالها. فلما غلبه السلطان أبو العباس على بجاية وهلك في مجال حربه، أشاع أبو هو الامتناع له لمكان الصهر، وجعلها ذريعة إلى الحركة على بجاية. وزحف من تلمسان يمر الشوك والمدد في آلاف من قومه وطبقات العساكر والجند. وتراجع العرب حتى انتهى إلى وطن حمزة فأجفل أمامه أبو الليل موسى بن زغلي في قومه بني يزيد، وتحصنوا في جبال زواوة المطلّة على وطن حمزة. وبعث إليه رسله لاقتضاء طاعته فأوثقهم كثافاً، وكان فيهم يحيى حافد أبي محمد صالح نزع من السلطان أبي العباس إلى أبي هو وكان عيناً على غزاة أبي الليل هذا لما بينهما من المربى والجوار في الوطن، وجاء في وفد الرسالة عن أبي هو فتقبض عليهم وعليه قتلته وبعث برأسه إلى بجاية.

وامتنع على أبي هو وعساكره فأجازوا على بجاية، ونزل معسكره بساحتها وقاتلها أياماً، وجمع الفعلة على الآلات في الحصار. وكان السلطان أبو العباس بالبلد وعسكره مع مولاة بشير بتكرارت، ومعهم أبو زيان بن عثمان بن عبد الرحمن، وهو ابن

وحربهم فكان فيه غناء واستدفعوه مرات ببجائيتهم يعيشون بها إلى السلطان، ومرات بمصانعة العرب على الإرجاف بمعسكره. وكان ابن الباقي يغص بمكانه عند السلطان، فلما استبد على ابنه أعظم فيه السعاية وتقبض عليه، وأودعه السجن مع محمد بن علي بن رافع. ثم بعث عليهما من داخلهما في الفرار من الاعتقال حتى دبروه معه، وظهر على أمرهما فقتلتهما في محبسهما خنقاً والله متولي الجزاء منه. ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾.

ثم أظهر ابن الباقي من سوء سيرته في الناس وجوره عليهم وعسفه بهم وانتزاع أموالهم، وإهانة سبيل الأشراف ببابه منهم ما تقموه، وضرعوا إلى الله في إنقاذهم من ملكته، فكان ذلك على يد مولانا السلطان أبي العباس كما نذكر إن شاء الله تعالى.

الخبر عن فتح تونس واستيلاء السلطان عليها واستبداده بالدعوة الحفصية في سائر عمالات إفريقية وممالكها

لما هلك السلطان أبو إسحاق صاحب الحضرة سنة سبعين وسبعمائة كما قدما وقام بالأمر مولاه منصور سريجه وحاجبه الباقي ونصبوا ابنه الأمير خالداً للأمر صبيّاً لم ينأزر الحلم غرا فلم يحسنوا تدبير أمره ولا سياسة سلطانه، وأسخطوا لوقتهم منصور بن حمزة أمير بني كعب المتغلين على الضاحية بما أطمعوه بسوء تدبيرهم في شركته لهم في الأمر. ثم قلبوا له ظهر الجن فسخطهم ولحق بالسلطان أبي العباس وهو مظل عليهم بمركبة من الثغور الغربية مستجمع للتوثب بهم، فاستحثه لملكهم وحرصه على تلافي أمرهم ورم ما تتلم من سياج دولتهم. وكان الأحق بالأمر لشرف نفسه وجلاله واستفحال ملكه وسلطانه، وشياع الحديث عن عدله ورفقه وحيد سيرته وأمان أهل مملكته من نظر يعقب نظره فيهم واستبداد سواه عليهم، فأجاب صريحه وشحذ للنهوض عزمه. وكان أهل قسطنطينة قد بعثوا بمثل ذلك، فسرّح إليهم أبا عبد الله بن الحاجب أبي محمد بن تافراكين لاستخيار طاعتهم وإبتلاء دخلتهم، فسار إليهم واقتضى بيعاتهم وطاعتهم، وسارع إليها يحيى بن يملول مقدم توزر والخلف بن الخلف مقدم نقطة فاتوها طواعية. وانقلب عنهم وقد أخذوا بدعوة السلطان وأقاموها.

ثم خرج السلطان من بجاية في العسكر وأغذ السير إلى

بجاية سرح معهم أخاه المولى أبا يحيى زكريا في العساكر فساروا معه إلى الحضرة، وابن تافراكين في جملته، فنزلوها أياماً وامتنعت عليهم وأقلعوا على سلم ومهادنة انعقدت بين صاحب الحضرة وبينهم، وقتل المولى أبو يحيى بعسكره إلى مكان عمله. ولحق ابن تافراكين بالسلطان، فلم يزل في جملته إلى أن كان من فتح تونس ما نذكر.

الخبر عن مهلك السلطان أبي إسحاق صاحب الحضرة وولاية ابنه خالد من بعده

لما تزل حال السلطان أبو إسحاق بالحضرة على ما ذكرناه، ويختلف في الفتنة والمهادنة مع السلطان أبي العباس طوراً بطور، واستخلص لدولتهم منصور بن حمزة أمير بني كعب يستظهر به على أمره، ويستدفع برأيه وشوكته فخلص له سائر أيامه. وعقد سنة تسع وستين وسبعمائة لابنه خالد على عسكر لنظر محمد بن رافع من طبقات الجنود من مغراوة مستبداً على ابنه. وسرحه مع منصور بن حمزة وقومه وأوعز إليهم بتدوين ضواحي بونة واكتساح نعمها وجباية ضواحيها فساروا إليها. وسرح الأمير أبو يحيى زكريا صاحب بونة عسكره مع أهل الضاحية فأغنوا في مدافعهم وانقلبوا على أعقابهم فكان آخر العهد بظهورهم. ولما رجعوا إلى الحضرة تنكر السلطان لمحمد بن رافع قائد العسكر فخرج من الحضرة ولحق بقومه بمكانهم من خلفه من أعمال تونس. واستقدمه السلطان بعد أن استعجب له فلما قدم تقبض عليه وأودعه السجن. وعلى إثر ذلك كان مهلك السلطان فجأة ليلة من سنة سبعين وسبعمائة بعد أن قضى وطراً من محادثة السمر وغلبه النوم آخر ليلة فنام، ولما أيقظه الخادم وجده ميتاً، فاستحال السرور، وعظم الأسف وغلب على البطانة الدهش.

ثم راجعوا بصائرهم ودفعوا الدهش عن أنفسهم وتلافوا أمرهم بالبيعة لابنه الأمير أبي البقاء خالد فأخذها له على الناس مولاه منصور سريجة من الملوحي وحاجبه أحمد بن إبراهيم الباقي، وحضر لها الموحدون والفقهاء والكافة. وانفض المجلس وقد انعقد أمره إلى جنازة أبيه حتى واروه التراب. واستبد منصور وابن الباقي على هذا الأمير المنصوب للأمر فلم يكن له تحكم عليهما، وكان أول ما افتحا به أمرهما أن تقبضا على القاضي محمد بن خلف الله من طبقة الفقهاء، كان نزع إلى السلطان من بلده نقطة مغاضباً لمقدمها عبد الله بن علي بن خلف فرعى له نزوعه إليه واستعمله بمخطة القضاء بتونس عند مهلك أبي علي عمر بن عبد الرافع. ثم ولاه قيادة العساكر إلى بلاد الجريد

الخبر عن انتفاض منصور بن حمزة وأجلابه بالعم أبي يحيى زكريا على الحضرة وما كان عقب ذلك من نكبة ابن تافراكين

كان منصور بن حمزة هذا أمير البدو من بني سليم بما كان سيد بني كعب. وكان السلطان أبو إسحاق يؤثره بمزيد العناية، وجعل له على قومه المزية. وكان بنو حمزة هؤلاء منذ غلبوا على السلطان أبي الحسن على إفريقية وأزعجوه منها قد استطلت أيديهم عليها وتقاسموها أوزاعاً، وأقطعهم أمراء الحضرة السهمان في جبايتها زيادة لما غلبوا عليه من ضواحيها وأمصالها، استتلاًفاً لهم على المظاهرة وإقامة الدعوة والحماية من أهل الثغور الغربية، فملكوا الأكثر منها، وضعف سهمان السلطان بينهم فيها، فلما استولى هذا السلطان أبو العباس على الحضرة واستبد بالدعوة الحفصية كبح أعتهم عن التغلب والاستبداد وانتزع ما بأيديهم من الأمصار والعمالات التي كانت من قبل خالصة للسلطان وبدا لهم ما لم يكونوا يحسبون، فأحفظهم ذلك وأهمهم شأنه وتكر منصور بن حمزة وقلب ظهر الجن ونزع يده من الطاعة وغمسها في الخلاف، وتابعه على خروجه على السلطان أبو صعونة أحمد بن محمد بن عبد الله بن مسكين شيخ حكيم. وارتحل بأحيائه إلى الدواودة صريحاً مستحيشاً بالأمير أبي يحيى بن السلطان أبي بكر القيم بين ظهرانيهم من لدن فعلته بالمهدية وانتزاعه بها على أخيه المولى أبي إسحاق كما ذكرناه، فنصبوه للأمر وباعوه. وارتحل معهم وأغذوا السير إلى تونس، ولقيه منصور بن حمزة في أحيائه بنواحي تبسة فبايعوا له وأوفدوا مشيختهم على يحيى بن يملول شيطان الغواية المارد على الخلاف يستحثونه للطاعة والمدد بمدخله كانت بينهم في ذلك سول لهم فيها بالمواعيد، وأملى لهم حتى إذا غمسوا أيديهم في النفاق والأجلا ب سوفهم عن مواعيده ضنانه بماله فأسرهما منصور في نفسه، واعتزم من يومئذ على الرجوع إلى الطاعة.

ثم رحلوا للأجلا ب على الحضرة، وسرح السلطان أبو العباس أخاه الأمير أبا يحيى زكريا للقيهم في العساكر، وتزاحفوا فأتى منصور وقومه ظهورهم على عساكر السلطان وأوليائه لم يستكملهم، وأجلبوا على البلاد أياماً. ونمي إلى السلطان أن حاجبه أبا عبد الله بن تافراكين داخلهم في تبين البلد فتقبض عليه وأشخصه في البحر إلى قسطنطينة فلم يزل بها معتقلاً إلى أن هلك سنة ثمان وثمانين وسبعماية. ثم سرب السلطان أمواله في العرب

المسيلة، وكان بها إبراهيم ابن عمه الأمير أبي زكريا الأخير جاجاً به أولاد سليمان بن على من الدواودة من مثنى اغترابه بتلمسان، ونصبوه لطلب حقه في بجاية من بعد أخيه الأمير أبي عبد الله، وكان ذلك بمدخله أبي حمو صاحب تلمسان ومواعيد بالمظاهرة مخلقة. فلما انتهت السلطان إلى المسيلة نبذوا إلى إبراهيم عهده وتبرأوا منه. ورجعوه من حيث جاء، وانكفأ راجعاً إلى بجاية. ثم نهض منها إلى الحضرة وتلقته وفود إفريقية جميعاً بالطاعة وانتهى إلى البلد فخيم بساحتها أياماً يغادها القتال ويرأوها: ثم كشف عن مصدوقته وزحف إلى أسوارها وقد ترجل أخوه والكثير من بطانته وأوليائه فلم يبق لهم شيء حتى تسنموا الأسوار برياض رأس الطابية، فنزل عنها المقاتلة وفروا إلى داخل البلد. وخامر الناس الدهش وتبرأ بعضهم من بعض، وأهل الدولة في موكبهم وقوف بباب الغدر من أبواب القصبية. فلما رأوا أنهم أحيط بهم ولوا الأعقاب وقصدوا باب الجزيرة فكسروا أقفاله. وثار أهل البلد جميعاً بهم فخلصوا سلطانهم من البلد بعد عصب الريق، ومضى الجند في اتباعهم فادرك أحد بن الباقي فقتل وسبق رأسه إلى السلطان. وتقبض على الأمير خالد واعتقل، ونجا العليج منصور سريعه برأس طمرة ولجام وذهل عن القتال دون الأحبة.

ودخل السلطان القصر واقعد أريكته، وانطلقت أيدي العيث في ديار أهل الدولة فاكسحت ما كان الناس يضطغنون عليهم تخاملهم على الرعية واغتصاب أموالهم، فاضطربت نار العيث في دورهم وخلفهم فلم تكد أن تنطفئ ولحق بعض أهل العافية معرات من ذلك لعموم النهب وشموله حتى أطفأه الله ببركات السلطان وجعل نيته وسعادة أمره. ولاد الناس منه بالملك الرحيم والسلطان العادل، وتهافتوا عليه تهافت الفراش على الذبال يلثمون أطرافه، ويجارون بالدعاء له ويتنافسون في التماس حياه إلى أن غشيهم الليل ودخل السلطان قصره وخلا بما ظفر من ملك آبائه، وبعث بالأمير خالد وأخيه في الأسطول إلى قسطنطينة، فعصفت به الريح وانحرفت السفينة وترادفت الأمواج إلى أن هلكا. واستبد السلطان بأمره وعقد لأخيه الأمير أبي يحيى زكريا على حجابته. ورعى لابن تافراكين حق انخياشه إليه وتزوجه فجعله رديفاً لأخيه، واستمر الأمر على ذلك إلى أن كان من أمره ما نذكر إن شاء الله تعالى.

الجبكجك أميراً عليها واستبد بها بعد موت الحاجب. فلما وخزته شوكة الاستطالة من الدولة، وطلع نحوه قسام العساكر فرق من الاستيلاء عليه، وركب أسطوله إلى طرابلس ونزل على صاحبها أبي بكر بن ثابت لذمة صهر قديم كان بينهما وبادر مولانا السلطان إلى تسليم المهدية، وبعث عليها عماله وانتظمت في ملكه واطردت أحوال الظهور والنجاح، وكان بعد ذلك ما نذكر إن شاء الله تعالى.

الخبر عن فتح جربة وانتظامها في ملك

السلطان

كان محمد بن أبي القاسم بن أبي العيون منذ ولاء أبو عبد الله محمد بن تافراكين على هذه الجزيرة، قد تقبل مذاهب جيرانها من أهل قابس وطرابلس وسائر الجريد في الامتناع على السلطان ومصارفة الاستبداد وانتحال مذاهب الإمارة وطرقها ولبوس شارتها. وقد ذكرنا سلفه من قبل، وأن والده كان صاحب الأشغال بالحضرة أيام الحاجب أبي محمد بن تافراكين وأنه اعتلى بمكانية ابنه أبي عبد الله فولاه على جربة عند افتتاحه إيها وأنه قصده عند مفرو عن المولى أبي إسحاق لينزل جربة معولاً على قديم اصطناعه إيها فمنعه. ثم داخل شيوخ الجزيرة من بني سموم في الامتناع على السلطان والاستبداد بأمرهم فأجابوه، وأقام ممتعاً سائر دولة المولى أبي إسحاق وابنه من بعده.

ولما استولى مولانا السلطان أبو العباس على تونس داخله الروح والدش وصار إلى مكائر رؤساء الجريد في التظافر على المدافعة بزعمهم، فأجرى في ذلك شأواً بعيداً مع تخلفه في مضمار بقديمه وحديثه. وصادق السلطان سوء الامتثال وإتيان الطاعة ومنع الحباية فأحفظ ذلك، ولما افتتح أمصار الساحل وثغوره سرح ابنه الأمير أبا بكر في العساكر إلى جربة ومعه خالصة الدولة محمد بن علي بن إبراهيم من ولد أبي هلال شيخ الموحدين، وصاحب مجاية لعهد المستنصر، وقد تقدم ذكره. وأمه في الأسطول في البحر لحصارها، ونزل الأمير بعسكره على مجازها ووصل الأسطول إلى مرساها فأطاف بمحسب القشتيل، وقد لاذ ابن أبي العيون بمجدرانه وافترق عنه شيوخ الجزائر من البربر وانحاش بطانته من الجند المستخدمين معه بها. ولما رأوا ما لا طاقة لهم به وأن عساكر السلطان قد أحاطت بهم برأ وبجرأ نزلوا إلى قائد الأسطول وأمكنوه من الحصن، وبادروا إلى معسكر الأمير فأقبل معهم الخاصة أبو عبد الله بن أبي هلال فيمن معه من بطانة الأمير

فانتقض على المنصور قومه وخشي مغبة حاله، وسوغه السلطان جائزته فعادوا الطاعة، ورهن ابنه ونبذ إلى السلطان زكريا العم عقده ورجعه على عقبه إلى الدواودة، والتزم طاعة السلطان والاستقامة على المظاهرة إلى أن هلك سنة ست وتسعين وسبعمائة فقتله محمد ابن أخيه قتيبة في مشاجرة كانت بينهما، طعنه بها فاشواه ورجع جريحاً إلى بيته، وهلك دونها آخر يومه. وقام بأمر بني كعب بعده صولة ابن أخيه خالد وعقد له مولانا السلطان على أمرهم واستمرت الحال إلى أن كان من أمره ما نذكره.

الخبر عن فتح سوسة والمهدية

كانت سوسة منذ واقعة بني مرين بالقيروان وتغلب العرب على العمالات التي أقطعها السلطان أبو الحسن لخليفة بن عبد الله بن مسكين فيما سوغ للعرب من الأمصار والإقطاعات مما لم يكن لهم فاستولى عليها خليفة هذا ونزلها واستقل بجبايتها وأحكامها. واستبد بها على السلطان ولم يزل كذلك إلى أن هلك وقام بأمره في قومه عامر بن عمه مسكين أيام استبداد أبي محمد بن تافراكين فسوغها له كذلك متقبلاً مذهب من قبله ثم قتله بنو كعب، وأقام بأمر حكيم من بعده أحمد الملقب أبو صنعونة بن محمد أخيه خليفة بن عبد الله بن مسكين فاستبد بسوسة على السلطان واقتعدا دار إمارته، وربما كان يتنقض على صاحب الحضرة فيجلب عليها من سوسة، ويشن الغارات في نواحيها، حتى لقد أوقع في بعض أيامه بمنصور سريحه مولى السلطان أبي إسحاق وقائد عسكره، فتقبض عليه واعتقله بسوسة أياماً. ثم من عليه وأطلقه وعادوا الطاعة معه، ولم يزل هذا دأبهم. وكانت لهم في الرعايا آثار قبيحة وملكات سيئة، ولم يزالوا يضرعون إلى الله في إنقاذهم من أيدي جورهم وعسفهم إلى أن تأذن الله لأهل إفريقية باقتبال الخير وفي ظلال الأمر. واستبد مولانا السلطان أبو العباس بالحضرة وسائر عمالات إفريقية وهبت ريح العز على العرب في جميع النواحي، فتنكر أهل سوسة لعاملهم أبي صنعونة هذا، وأحس بنكرانهم فخرج عنهم وتحافى للسلطان عن البلد. وثارت عامتها بعماله وأجهضوهم، ونزل عمال السلطان.

ثم كانت من بعد ذلك حركة المولى أبي يحيى إلى نواحي طرابلس ودوخ جهاتها واستوفى جباية عمالها. وكان بالمهدية محمد بن الجبكجك استعمله عليها الحاجب أبو محمد بن تافراكين أيام ارتجاعه إيها من يد أبي العباس بن مكى، والأمير أبي يحيى زكريا المتري بها ابن مولانا السلطان أبي بكر كما مر. وأقام ابن

وحاشيته فاتحموا الحصن، وتقبضوا على محمد بن أبي العيون ونقلوه من حينه إلى الأسطول، واستولوا على داره وولوا على الجزيرة وارغملوا قافلين إلى السلطان. ووصل محمد بن أبي العيون إلى الحضرة ونزل بالديوان فأركب إلى القصبة على جمل وطيف به على أسواق البلد إظهاراً لعقوبة الله النازلة به، وأحضره السلطان فوجّه على مرتكبه في العناد ومداخلته أهل الغواية من أمراء الجريد في الانحراف عنه. ثم تحافى عن دمه وأودعه السجن إلى أن هلك سنة تسع وسبعين.

كان السلطان عندما استجمع الرحلة إلى إفريقية باستحثاث أهلها لذلك، ووفادة منصور بن حمزة شيخ الكموب مرغباً فأهمه لذلك شأن الثغور الغربية، وأجال اختياره في بنيه يسبر أحوالهم ويفتش عن الأكفاء لهذه الثغور منهم فوق نظره أولاً على كبير ولده المخصوص بعناية الله في إلقاء محبته عليه الأمير أبي عبد الله فعقد له على بجاية وأعمالها، وأنزله بقصور الملك منها، وأطلق يده في مال الجباية وديوان الجند. واستعمل على قسطنطينية وضواحيها لمولاه القائد بشير سيف دولته وعنان حربه، ناشىء قصره وتلاد مرماه. وكانت لهذا الرجل نخوة من الصرامة والبأس، ودالة بالقديم والحادث. وخلال لقيها أيام الثقلب في أوامير الملك. وكان ملازماً ركاب مولاه في مطارح اغترابه وأيام تحصنه، وربما لقي عند إخاله على قسطنطينية من الحنة والاعتقال الطويل ما أعاذه الله عنه بجميل التنويه، وعود العز والملك إلى مولاه على أحسن الأحوال. فظفر من ذلك بالبغية وحصل من الرتبة على الأمانة. وكان السلطان يثق بنظره في العسكر ويبعشه في مقدمة الحروب، وكان عند استيلائه على بجاية وصرف العناية إليها ولاه أمر قسطنطينية وأنزله بها، وأنزل معه ابنه الأمير أبا إسحاق وجعل إليه كفالته لصغره ثم استغفره بالعساكر عند النهوض إلى إفريقية فنهض في جملة وشهد معه الفتح. ثم رجع إلى عمله بقسطنطينية بمزيد التفويض والاستقلال، فلم يزل بما دفع إليه من ذلك إلى أن هلك.

وكان السلطان قد أوفد ابنه أبا إسحاق على ملك المغرب السلطان عبد العزيز عندما استولى على تلمسان مهنيّاً بالظفر ملفحاً غراس الرد وأوفد معه شيخ الموحدين ببابه أبا إسحاق بن أبي هلال، وقد مر من قبل ذكره وذكر أخيه تفلحهما ملك المغرب بوجوه المبرة والاحتفاء، ورجعهما بالحديث الجميل عنه سنة ثلاث

الخبر عن استقلال الأمراء من الأبناء بولاية

الثغور الغربية

كان السلطان عندما استجمع الرحلة إلى إفريقية باستحثاث أهلها لذلك، ووفادة منصور بن حمزة شيخ الكموب مرغباً فأهمه لذلك شأن الثغور الغربية، وأجال اختياره في بنيه يسبر أحوالهم ويفتش عن الأكفاء لهذه الثغور منهم فوق نظره أولاً على كبير ولده المخصوص بعناية الله في إلقاء محبته عليه الأمير أبي عبد الله فعقد له على بجاية وأعمالها، وأنزله بقصور الملك منها، وأطلق يده في مال الجباية وديوان الجند. واستعمل على قسطنطينية وضواحيها لمولاه القائد بشير سيف دولته وعنان حربه، ناشىء قصره وتلاد مرماه. وكانت لهذا الرجل نخوة من الصرامة والبأس، ودالة بالقديم والحادث. وخلال لقيها أيام الثقلب في أوامير الملك. وكان ملازماً ركاب مولاه في مطارح اغترابه وأيام تحصنه، وربما لقي عند إخاله على قسطنطينية من الحنة والاعتقال الطويل ما أعاذه الله عنه بجميل التنويه، وعود العز والملك إلى مولاه على أحسن الأحوال. فظفر من ذلك بالبغية وحصل من الرتبة على الأمانة. وكان السلطان يثق بنظره في العسكر ويبعشه في مقدمة الحروب، وكان عند استيلائه على بجاية وصرف العناية إليها ولاه أمر قسطنطينية وأنزله بها، وأنزل معه ابنه الأمير أبا إسحاق وجعل إليه كفالته لصغره ثم استغفره بالعساكر عند النهوض إلى إفريقية فنهض في جملة وشهد معه الفتح. ثم رجع إلى عمله بقسطنطينية بمزيد التفويض والاستقلال، فلم يزل بما دفع إليه من ذلك إلى أن هلك.

الخبر عن فتح قصبة وتوزر وانتظام أعمال

قسطنطينية في طاعة السلطان

كان أمر هذا الجريد قد صار شورى بين رؤساء أمصاره فيما قبل دولة السلطان أبي بكر لاعتلال الدولة حينئذ بانقسامها كما مر، فلما استبد السلطان أبو بكر بالدعوة الخفصية وفرغ من الشواغل صرف إليهم نظره وأوطأهم عساكره. ثم نهض بنفسه فمضى أثر الشورى منها، وعقد لابنه أبي العباس عليها كما قلناه. فلما كان بعد مهلكه من اضطراب إفريقية وتغلب الأعراب على نواحيها ما كان منذ هزيمة السلطان أبي الحسن وبني مريـن بالقيروان عاد أهل الشورى في الجريد إلى ديدنهم من التوثب على الأمر والاستبداد على السلطان، وتناغى رؤسائهم بعد أن كانوا سوقة في انتحال مذاهب الملك ومساربه، يقتعدون الأرائك ويعقدون في المشي بين السكك المراكب، ويهينون في إيوانهم سبال الأشراف، ويتخذون الآلة أيام المشاهد آية للمعتبرين في ثقلب الأيام، وضحكة لأهل الشمامات، حتى لقد حدثهم أنفسهم بالثقلب الخلافة، وأقاموا على ذلك أحوالاً والدولة في التياها، فلما استبد السلطان أبو العباس بإفريقية وعمالاتها، وأتيح منه بالحضرة البازي المثل من مرقبه والأسد الحادر في عرينه، وأصبحوا فرائس

واجتمع المأ والكافة من أهل البلد عند السلطان، وأتوه بيعتهم عليها لابن أبي بكر، وارحل يذ السير إلى توزر وقد طار الخبر بفتح قفصة إلى ابن يملول فركب لحينه، واحتمل أهله وما خف من ذخائره ولحق بالزباب. وطير أهل توزر بالخبر إلى السلطان فلقية أثناء طريقه، وتقدم إلى البلد فملكها واستولى على ذخيرة ابن يملول ونزل بقصوره فوجد بها من الماعون والمتاع والسلاح وآنية الذهب والفضة ما لا يعد لأعظم ملك من ملوك الأرض، وأحضر بعض الناس ودائع كانت لهم عنده من نفيس الجواهر والحلي والثياب وبرؤوا منها إلى السلطان.

وعقد السلطان على توزر لابنه المنتصر وأنزله قصور ابن يملول، وجعل إليه إمارتها واستقدم السلطان الخلف بن الخلف صاحب نقطة فقدم عليه وأتاه طاعته، وعقد له على بلده وولاية حجابة ابنه بتوزر، وأنزله معه وقتل إلى الحضرة. وقد كان أهل الخلاف من العرب عند تغلبه على أمصار الجريد خالفوه إلى التلول، فلما قصد حضرته اعترضوه دونها فأوقع بهم وفل من غربهم، وأجفلوا إلى الجهات الغربية يؤملون منها كرامة لما كان ابن يملول قد جأجأ بهم إلى خدمة صاحب تلمسان والاستجاشة به، فوفد عليه بتلمسان منصور بن خالد منهم ونصر ابن عمه منصور صريحين به على عادة صريحهم بأبي تاشفين سلفه فدافعهم بالمواعدة، وتبينوا منها عجزه وانكفؤوا راجعين. ووفد صولة على السلطان بعد أن توثق لنفسه فاشتراط له على قومه ما شاء، ورجع إليهم فلم يرضوا بشرطه ونهض السلطان من الحضرة في العساكر الأولياء من العرب، وأجفلوا أمامهم فاتبعهم وأوقع بهم ثلاث مرات واقفوه فيها. ثم أجفلوا ولحقوا بالقيروان وقدم فدفعهم على السلطان والاشتراط له كما يشاء، فتقبل ووسعهم عفوه، وصاروا إلى الانقياد والاعتماد في مذاهب السلطان ومرضاته، وهم على ذلك لهذا العهد.

الخبر عن ثورة أهل قفصة ومهلك ابن

الخلف

لما استقل الخلف بن علي بن الخلف بحجابة المنتصر ابن السلطان. وعقد له مع ذلك على عمله بنقطة فاستخلف عليها عامله، ونزل بتوزر مع المنتصر. ثم سعى به أنه يداخل ابن يملول ويراسله فبث عليه العيون والأرصاد، وعثر على كتابة بخط كاتبه المعروف إلى ابن يملول وإلى يعقوب بن علي أمير الدواودة يعرضهما على الفتنة، فتقبض عليه وأودعه السجن. وبعث عماله

له يتوقعون انصبا به إليهم وتوثبه بهم، داخلوا حيثنذ الأعراب في مدافعتهم عنهم بإضرام نار الفتنة، واقتعاد مطية الخلاف والتفاق يفتون بذلك في عزائمه وأرخی هو لهم طيل الإمهال وفسح لهم مجال الإيناس بالمقاربة والوعد، رجاء الفينة إلى الطاعة المعروفة والاستقامة على الجادة فأصروا وازدادوا عناداً ونفاقاً فشمروا لهم عن عزائمه ونبذ إليهم عهدهم على سواء.

ونهض من الحضرة سنة سبع وسبعين وسبعمئة في عساكره من الموحدین وطبقات الجند والموالي وقبائل زناتة ومن استألف إليه من العرب أولاد مهلهل وحكيم وإظهار أولاد أبي الليل على المدافعة عن أهل الجريد، ووافقوا السلطان أياماً. ثم أجفلوا أمامه وغلبهم السلطان على رعاياهم مرغيزة، وكانوا من بقايا بني يفرن عمروا ضواحي إفريقية مع طواعن هواره ونفوسة ونفزاوة. وكانت للسلطان عليهم مغارم وجبايات وافرة، فلما تغلب المغرب على بساط إفريقية وتنافسوا في الإقطاعات كانت طواعن مرغيزة هؤلاء في إقطاع أولاد حمزة، فكانت جبايتهم موفورة ومالهم دثراً بما صاروا مدداً لهم بالمسال والكرع والدروع والأدم، وبالفرسان منهم يستظهرون بهم في حروبهم مع السلطان ومن قومهم، فاستولى السلطان عليهم في هذه السنة واكتسح أموالهم، وبعث برجالهم أسرى إلى سجون الحضرة وقطع بها عنهم أعظم مادة كانت تمدهم، فحمد ذلك من عتوهم وقص من جناحهم آخر الدهر، وهنوا له. ثم عاد السلطان إلى حضرته وافترق أشياعه، ونزع عنهم أبو صعنونة فتألف على أولاد أبي الليل، ورجعوا إلى الحضرة فأجلبوا بساحلها أياماً وشنوا الغارات عليها. ثم انفضوا عنها وخرج على أثرهم لأول فصل الشتاء، وتساحل إلى سوسة والمهدية فاقتضى مغارم الأوطان التي كانت لأبي صعنونة، ثم رجع إلى القيروان وارحل منها يريد قفصة وجمع أولاد أبي الليل للمدافعة عنها، وسرب فيهم صاحب توزر الأموال فلم تغن عنه وزحف السلطان إلى قفصة فنازلها ثلاثاً ولجوا في عساكرهم وقتلوه فجمع الأيدي على قطع نخيلهم وتسايلت إليه الرعية من أماكنهم، وأسلموا أحمد بن العابد مقدمهم وابنه محمد المستبد عليه لكبره وذهوله، فخرج إلى السلطان واشتراط ما شاء من الطاعة والخراج ورجع إلى البلد وقد ماج أهلها بعضهم في بعض، وهموا بالخروج فسابقهم ابنه أحمد المستبد على أبيه، وكان السلطان سرح أخاه أبا يحيى في الخاصة والأولياء إلى البلد، فلقيه محمد هذا بنواحي ساحتها فبعث به إلى السلطان، ودخل هو إلى القصبه وتملك البلد وتقبض السلطان على محمد بن العابد لورقته، وسبق إليه أبوه من البلد فجعل معه واستولى معه على داره وذخائره.

في بلدهم. ثم سما إلى الاستبداد عندما فشل ربح الدولة عن القاصية بما حدث من فتن وانفراد الثغور الغربية بالملك. ولم يزالوا جاعحين إلى هذا الاستبداد سائحين إليه بثار الفتن والانتفاض على السلطان، ومداخلة الثوار والإجلاب بهم على الحضرة. والدولة أثناء ذلك في شغل عنهم وعن سواهم من أهل الجريد منذ أحقاب متطاولة بما كان من انقسام الدولة وإلحاح صاحب الثغور الغربية على مطالبة الحضرة.

ثم استبد مولانا السلطان بالدعوة الحفصية في سائر عمالات إفريقية وشغله عنهم شاغل الفتنة مع صاحب تلمسان في الأجلاب على الحضرة مع جيوشه ومنازلتهم ثغر بجاية وتسريه جيوش بني عبد الواد مرة بعد أخرى مع الأعياص من بني أبي حفص والعرب إلى إفريقية. وكان المولى لرياسة قابس يومئذ عبد الملك بن مكى بن أحمد بن عبد الملك ورديفه فيها أخوه أحمد، وكانا يداخلان أبا تاشفين صاحب تلمسان في الأجلاب على الحضرة مع جيوشه والثوار القادمين معهم. وربما خالفوا السلطان إلى الحضرة أزمان مغيبه عنها كما وقع له مع عبد الواحد بن اللحياني، وقد مر ذكر ذلك. فلما استولى السلطان أبو الحسن على تلمسان وانحى أثر بني زيان فرغ السلطان أبو بكر لهؤلاء الثوار الرؤساء بالجريد الدائنين بالانتقاض سائر أيامهم. وزحف إلى قفصة فملكها فذعروا ولحق أحمد بن مكى بالسلطان أبي الحسن متدماً بشفاعته، بعد أن كان الركب الحجازي من المغرب مر بقابس وبه بعض كرائم السلطان فأوسعوا جباهها وسائر الركب قرى وجباء. وقدموا ذلك وسيلة بين يدي وفادته فقبل السلطان وسيلتهم وكتب إلى مولانا السلطان أبي بكر شافعاً فيهم لذمة السلطان والصهر فقبل شفاعته وتجاوز عن الانتقام منهم بما اكتسبوا.

ثم هلك مولانا السلطان أبو بكر وهاج بحر الفتنة والخلاف وعادت الدولة إلى حالها من الانقسام، واشتدت على صاحب الحضرة وجه الانتصاف منهم، فعاد بنو مكى وسواهم من رؤساء الجريد إلى حالهم من الاستبداد على الدولة. وقطع أسباب الطاعة ومنع المغارم والجباية ومشايعة صاحب الغربية زبوناً على صاحب الحضرة. فلما استبد مولانا السلطان أبو العباس بالدعوة الحفصية وجمع الكلمة، واستولى على كثير من الثغور المنتقضة ترأسل أهل هذه العصور الجريدية وتحدثوا فيما دهمهم وطلبوا وجه الخلاص منه، والامتناع عليه.

وكان عبد الملك بن مكى أقعدهم بذلك لطول مراسه الفتن وانحياشه إلى الثوار، وكان أحمد أخوه ورديفه قد هلك سنة خمس

إلى نقطة واستولى على أمواله وذخائره، وخاطب أباه في شأنه فأمهله بعد أن تبين نقضه للطاعة وسعيه في الخلاف. وكان السلطان قبل فتح قفصة قد نزع إليه من بيوتاتها أحمد بن أبي يزيد، وسار في ركابه إليها. فلما استولى على البلد رعى له ذمة نزوعه إليه، وأوصى به ابنه أبا بكر فاستولى على مشورته وحله وعقده، وطوى على النكت. ثم حدثه نفسه بالاستبداد وتحين له المواقيت واتفق أن سار الأمير أبو زكريا من قفصة لزيارة أخيه المتصر بتوزر وخلف بالبلد عبد الله التريكي من مواليهم، وكان السلطان أنزله معه وولاه حجابته، فلما توارى الأمير عن البلد داخل ابن أبي زيد زعتفة من الأوغاد وطاف في سكك المدينة والمهاتف معه ينادي بالثورة ونقض الطاعة. وتقدم إلى قفصة فأغلقها القائد عبد الله دونه وحاربها فامتنت عليه. وقرع عبد الله الطبل بالقصبة واجتمع عليه أهل القرى فأدخلهم من باب كان بالقصبة يفضي إلى الغابة فكثروا شيع ابن أبي زيد، وتسلسل عنه الناس فلاذ بالاختفاء. وخرج القائد من القصبة فتقبض على كثير من أهل الثورة وأودعهم السجن واستولى على البلد. وسكن الهيعة وطار الخبر إلى المولى أبي بكر فأغذ السير منقلباً إلى قفصة، ولحين دخوله ضرب أعناق المعتقلين من أهل الثورة وأمر المهاتف فنادى في الناس بالبراءة من ابن أبي زيد وأخيه. ولأيام من دخوله عثر بهما الحرس في مقاعدهم بالباب مستترين بزى النساء فتقبضوا عليهما وتلوهما إلى الأمير ف ضرب أعناقهما وصلبهما في جذوع النخل. وكانا من المترفين فأصبحا مثلاً في الأيام وقد خسرا دينهما وديناهما، وذلك هو الخسران المبين، وارتاب المتصر صاحب توزر حينئذ بآبن الخلف وحذر مغبة حاله فقتله بمجسه وذهب في غير سبيل مريحة وانتظم السلطان أمصار الجريد كلها في طاعته واتصل ظهوره إلى أن كان ما نذكر.

الخبر عن فتح قابس وانتظامها في ملكة

السلطان

هذه البلد لم تنزل في هذه الدولة الحفصية لبني مكى المشهور ذكرهم في هذه العصور وما إليها، وسيأتي ذكر أخبارهم ونسبهم وأوليتهم في فصل نفرده لهم فيما بعد، وكان أصل رئاستهم فيها اتصالهم بخدمة الأمير أبي زكريا الأول أيام ولاية قابس سنة ثلاث وعشرين وستمئة فأختصوا به، وداخلهم في الانتقاض على أخيه أبي محمد عبد الله عندما استجمع لذلك، فأجابوه وبأيامه فرعى لهم هذه الوسائل عندما استبد بإفريقية، وأفردهم برئاسة الشورى

لاقتضاء ذلك فرجعهم بالطاعة، وأقام عبد الملك بن مكي بعد خروجه من قابس بين أحياء العرب ليالي قلائل. ثم بغته الموت فهلك ولحق ابنه وحافده بطرابلس فمئتهم ابن ثابت الدخول إليها فنزلوا بزئور من قراها في كفالة الجوارى من بطون دباب. ولما استكمل السلطان الفتح وشؤونه انكفاً راجعاً إلى الحضرة فدخلها فاتح اثنتين وثمانين وسبعمئة ولحقه رسله من طرابلس بهدية ابن ثابت من الرقيق والمتاع بما فيه الوفاء بمغارمه بزعمه. ووفد عليه بعد استقراره بالحضرة رسل أولاد أبي الليل متطارحين في العفو عنهم والقبول عليهم فأجابهم إلى ذلك. ووفد صولة بن خالد شيخهم وقبلة أبو صعونة شيخ حكيم، ورهنوا أبناءهم على الوفاء واستقاموا على الطاعة. واتصل النجح والظهور والأمر على ذلك لهذا العهد وهو فاتح ثلاث وثمانين وسبعمئة، والله مالک الأمور لا رب غيره.

الخبر عن استقامة ابن مزني وانقياده وما

اكتنف ذلك من الأحوال

كان هؤلاء الرؤساء المستبدون بالجريد والزباب منذ فرغ السلطان لهم من الشواغل، واسترابوا بمغية حالهم معه ومراوغتهم له بالطاعة يرومون استحداث الشواغل ويؤملون لها سلطان تلمسان لعدهم أباً حراً الأخير، وأنه يأخذ بحجرتهم عنهم إن وصلوا به أيديهم واستحقوه لذلك لاتلافهم مثلها من سلف قومه. وأبي حمو وأبي تاشفين من قبله قياساً متروطاً في الغلط بعيداً من الإصابة لما نزل بسلطان بني عبد الواد في هذه العصور من الضعف والزمانة، وما أصاب قومهم من الهلاك والشتات بأيديهم وأيدي عدوهم وتقدمهم في هذا الشأن أحمد بن مزني صاحب بسكرة لقرب جواره واشتهار مثلها من سلفه فاتبعوه وقلدوه وغطى هواهم جميعاً على بصيرتهم. وقارن ذلك نزول الأمير أبي زيان ابن السلطان أبي سعيد عم أبي حمو على ابن يملول بتوزر عند منابذة سالم بن إبراهيم الثعالبي إياه، وكان طارد به أياماً. ثم راجع أبو حمو وصرفه سنة ثمان وسبعين وسبعمئة فخرج من أعمال تلمسان وأبعد المذهب عنهم ونزل على ابن يملول بتوزر.

وطير الخبر إلى إمامه في تلك الفتنة أحمد بن مزني واغبتوا بمكان أبي زيان، وأن تمسكهم به ذريعة إلى اعتمال أبي حمو في مرضاتهم، وإجابته إلى داعيهم، وركض بريدهم إلى تلمسان في ذلك ذاهباً وجائياً حتى أعيت الرسل واشتبهت المذاهب ولم

وستين وسبعمئة، وانفرد هو برئاسة قابس فراسلوه وراسلهم في الشأن، واجمعوا جميعاً على تخييب العرب على السلطان وتسريب الأموال فيهم ومشايعة صاحب تلمسان بالترغيب في ملك إفريقية، فانتدبوا لذلك من كل ناحية، وبعثوا البريد إلى صاحب تلمسان فاطمهم من نفسه، وعللهم بالمواعيد الكاذبة، والسلطان أبو العباس مقبل على شأنه يقتل لهم في الذروة والغارب حتى غلب أولاد أبي الليل الذين كانوا يعدونهم بالدفاع عنهم، وافتتح قصعة وتوزر ونقطة. وتبين لهم عجز صاحب تلمسان عن صريحهم، فحيتذ بادر عبد الملك إلى مراسلة السلطان يعده من نفسه الطاعة والوفاء بالجباية، ويستدعي لاقتضاء ذلك منه بعض حاشيته فأجابه إلى ذلك، وبعث وافده إليه ورجع إلى الحضرة في انتظاره فطاوله ابن مكي في الغرض ورده بالوعد.

ثم اضطرب أمره وانتقض عليه أهل ضاحيته بنو أحمد إحدى بطون دباب، وركبوا إليه فحاصروه وضيقوا عليه، واستدعوا المدد لذلك من الأمير أبي بكر صاحب قصعة وأمدهم بعسكر وقائد فنزلوه واشتد الحصار، واتهم ابن مكي بعض أهل البلد بمدخلتهم فكبسهم في منازلهم وقتلهم، وتكررت له الرعية وساء حاله، ودس إلى بعض المفسدين من العرب من بني علي في تبيت العسكر المحاصرين له، واشترط لهم على ذلك ما رضوه من المال، فجمعوا لهم وبيتهم فانقضوا ونالوا منهم. وبلغ السلطان خبرهم فأحفظه وأجمع الحركة على قابس وعسكر بظاهر الحضرة في رجب سنة إحدى وثمانين وسبعمئة، وتلوم أياماً حتى استوفى العطاء واعترض العساكر، وتوافت أحياء أوليائه من أولاد مهمل وحلفائهم من سائر سليم. ثم ارتحل إلى القيروان، وارتحل منها يريد قابس، وقد استكمل التعية وبادر إلى لقائه الأخذ بطاعته مشيخة دباب أعراب قابس من بني سليم. ووفد منهم خالد بن سباع بن يعقوب شيخ الحمديد وابن عمه علي بن راشد فيمن إليهم يستحثونه إلى منازلة قابس، فأخذ السير إليها وقدم رسله بين يديه بالإنذار لابن مكي. وانتهوا إليه فرجعهم بالإنيابة والانقياد إلى الطاعة. ثم احتمل رواحله وعبي ذخائره وخرج من البلد، ونزل على أحياء دباب هو وابنه يحيى وحافده عبد الوهاب ابن ابنه مكي المالك منذ سنين من قبل.

واتصل الخبر إلى السلطان فبادر إلى البلد ودخلها في ذي القعدة من سته، واستولى على منازل ابن مكي وقصوره. ولأهل البلد بطاعته وولى عليها من حاشيته، وكان أبو بكر بن ثابت صاحب طرابلس قد بعث إلى السلطان بالطاعة والاختياش، ووافته رسله دوين قابس. فلما استكمل فتحها بعث إليه من حاشيته

أمرهم فارتحل عنهم ولحق بقسطنطينة. وحملهم ابن علي على اللياذ بالطاعة، وأوفد ابن عمه متطرحاً وشافعاً فتقبل السلطان فيته ووسيلته وأغضى لابن مزني عن هنائه وأسعفهم بكبير دولته وخالصة سره أبي عبد الله بن أبي هلال ليتناول منه المخالصة. ويمكن له الألفة وتمسح عنه هواجس الارتباب والمخافة.

وكان لقاؤه أشهى إليهم من الحياة ففصل عن الحضرة، وانتهى السلطان في ذي القعدة آخر سنة اثنتين وثمانين وسبعمئة لتفقد أعماله وابتلاء الطاعة من أهل أوطانه. ولما وصل وافد السلطان إلى أبي مزني ألقى زمامه إليه وحكمه في ذات يده وقبله، ومعاثر المراءوغه واستجد لبؤس الانغياش والطاعة، وبادر إلى استجادة المقربات وانتقاء صنوف التحف، وبعث بذلك في ركاب الوافد مع الذي عليه من الضريبة المعروفة عملاً أكثاد ثقاته وظهور مطايها، ووصلوا إلى معسكر السلطان بساح تبسة فاتح سنة ثلاث وثمانين وسبعمئة فجلس لهم السلطان جلوساً فخماً ولقاهم قبولاً وكرامة، فعرضوا الهدية، وأعربوا عن الانغياش والطاعة وحسن موقع ذلك من السلطان وشملهم إحسان السلطان في مقاماتهم وجوائزهم على الطبقات في انصرافهم، وانقلبوا بما ملا صدورهم إحساناً ونعمة وظفروا برضى السلطان وغبطته، وحسبهم بها أمانة ويبد الله تصارف الأمور ومظاهر الغيوب.

الخبر عن انتفاض أولاد أبي الليل ثم مراجعتهم الطاعة

قد ذكرنا ما كان من رجوع أولاد أبي الليل هؤلاء إلى طاعة السلطان إثر منصرفه من فتح قابس، وأنهم وفدوا عليه بالحضرة فتقبلهم وعفا عن كبائرهم واسترهن على الطاعة أبناءهم، واقتضى بالوفاء على ذلك أيمانهم. وخرج الأخ الكريم أبو يحيى زكريا في العساكر لاقضاء المغارم من هواره التي استأثروا بها في مدة هذه الفتن. وارتحل معه أولاد أبي الليل وأحلافهم من حكييم حتى استوفى جبايته وجال في أقطار عمله. ثم انكفأ راجعاً إلى الحضرة، ووفدوا معه على السلطان يتوسلون به في إسعافهم بالعسكر إلى بلاد الجريد لاقضاء مغارمهم على العادة واستيفاء إقطاعاتهم، فسرح السلطان معهم لذلك أبا فارس وارتحلوا معه بأحيانهم، وكان ابن مزني وابن يملول من قبله وابن يعقوب بن علي كثيراً ما يرأسولونهم ويستدعونهم لمثل ما كانوا فيه من الانحراف ومشايعة صاحب تلمسان.

يخلصوا على غير المقاربة والوعد لكن على شريطة التوثق من أبي زيان. وبينما هم في ذلك إذ هجم السلطان على الجريد وشرده عنه أولاد أبي الليل الذين تكفلوا لرؤسائه بالمداغة. وافتتح قصصه وتوزر ونقطة ولحق يحيى بن يملول ببسكرة، واستصحب الأمير أبا زيان فتزل على ابن مزني، وهلك لأيام قلائل كما ذكرنا. واستحكمت عندها استرابة يعقوب بن علي شيخ رباح بأمره مع السلطان لما سلف فيه من مداخلة هؤلاء الرهط وتمسكهم بحقوقه والمبالغة في العذر عنهم. ثم غيرته بأنظاره من مشيخة الدواودة الذين انحاشوا إلى السلطان فأفاض عليهم عطاءه، واختصهم بولايته فحدث لذلك منه نفرة واضطراب، وارتحل إلى السلطان أبي حمو صاحب تلمسان فاتح اثنتين وثمانين وسبعمئة يستجيشه هؤلاء الرهط ويهزه بها إلى البدار بصريحهم.

ونزل على أولاد عريف أولياؤه من سويد، وأوفد عليه ابنه فتعلل لهم بمنافرة حدثت في الوقت بينه وبين صاحب المغرب، وأنه لهم بالمرصاد متى رابهم ريب من نهوض السلطان أبي العباس إليهم ليمسك بذلك طرف التوثق من أبي زيان، وربما دس إليهم بمشارطة اعتقاله وإلقائه في غيابات السجون. وفي مغيب يعقوب هذا طرق السلطان تمحيص من المرض أرجف له المفسدون بالجريد ودس لشيع آل يملول بحجبه إلى صبي من أبناء يحيى مخلف ببسكرة، فذهل ابن مزني عن التثبت لها ذهاباً مع صاغية الولد وأولياؤه، وجهزم لانتهاز الفرصة في توزر مع العرب المشارطين في مثلها بالمال، وأخذ السير إلى توزر على حين غفلتهم من الدهر وخف من الجند فجلى المنتصر وأولياؤه في الامتناع، وصدق الدفاع وتمحصت بهذا الابتلاء طاعة أهل توزر ومخالصتهم وانصرف ابن يملول بإخفاق من السعي واليأس من الندم وتوقع للمكاره. ووافق ببسكرة قدوم يعقوب بن علي مرجعه من الغرب فبالغ في تغييبهم بالملامة على ما أحدثوا بعده من هذا الخرق المتسع المعيب على الراقع.

وكان السلطان لأول بلوغ الخبر بأجلايهم على توزر وعمالة ابن مزني على ابنه وأولياؤه، أجمع النهوض إلى بسكرة وعسكر بظاهر الحضرة، وفتح ديوان العطاء وجهاز آلات الحصار. وسرى الخبر بذلك إليهم فخلصوا نجياً ونقضوا عيبة آرائهم فتمحض لهم اعتقال أبي زيان الكفيل لهم بصريح أبي حمو على زعمه فتعللوا عليه ببعض النزعات، وتورطوا في إخفار ذمته، وطيروا بالصريح إلى أبي حمو، وانتظروا فما راعهم إلا وافده بالعذر عن صريحهم والإعاضة بالمال، فتيبنوا عجزه ونبدوا عهده، وبادروا لتخلية السبيل لأبي زيان والعذر له لما كان السلطان نكر عليهم من

تبسة فأراح بهم أياماً حتى توافت أمداده من كل ناحية ونهض يريد توزر. ولما احتل بقفصة قدم أخاه الأمير أبا يحيى وابنه الأمير المتصر في العساكر ومعهما صولة بن خالد بقومه أولاد أبي الليل، وسار على أثرهم في التعبية. ولما انتهى أخوه وابنه إلى توزر حاصروها وضيقوا عليها أياماً. ثم وصل السلطان فزحف إليها العساكر من جوانبها وقتلوا يوماً إلى المساء، ثم باكروها بالقتال فخذل ابن يملول أصحابه وأفردوه فذهب ناجياً بنفسه إلى حلل العرب، ودخل السلطان البلد واستولى عليه وأعاد ابنه إلى محل إمارته منه، وانكفاً راجعاً إلى قفصة، ثم إلى تونس متصفاً أربع وثمانين وسبعمئة

ولاية الأمير زكريا ابن السلطان على توزر

ثم عاد ابن يملول إلى الأجلاب على توزر من السنة القابلة وخرج السلطان في عساكره فكر راجعاً إلى الزاب ونزل السلطان قفصة ووافاه هنالك ابنه المتصر، وتظلم أهل توزر من أبي القاسم الشهرزوري الذي كان حاجباً للمتصر فسمع شكواهم، وأنهى إليه الخاصة سوء دخلته وقبيح أفعاله فقبض عليه بقفصة واحتمله مقيداً إلى تونس. وغضب لذلك المتصر وأقسم لا يلي على توزر. وسار معه السلطان إلى تونس وولى السلطان على توزر الأمير زكريا من ولده الأصغر لما كان يتوسم فيه من النجابة فصدمت فراسته فيه وقام بأمرها وأحسن المدافعة عنها، وقام باستلاف الشارد من أحياء العرب وأمرانهم حتى تم أمره وحسنت ولايته. والله متولي الأمور بحكمته سبحانه.

وفاة الأمير أبي عبد الله صاحب بجاية

كان السلطان لما سار إلى فتح تونس ولى على بجاية ابنه عمداً كما مر وأقام له حاجباً وأوصاه بالرجوع إلى محمد بن أبي مهدي زعيم البلد وقائد الأسطول المتقدم على أهل الشطارة والرجولة من رجل البلد ورماتهم. فقام هذا الأمير أبو عبد الله في منصب الملك ببجاية أحسن قيام واصطنع ابن أبي مهدي أحسن اصطناع، فكان يجري في قصوره وأغراضه ويكفيه مهمه في سلطانه، ويراقب مرضاة السلطان في أحواله، والأمير يعرف له ذلك ويوفيه حقه إلى أن أدركته المنية أوائل خمس وثمانين وسبعمئة، فتوفي على فراشه، آتس ما كان سرباً وآمن روعاً مشيعاً من رضى أبيه ورعيتة بما يفتح له أبواب الرضى من ربه، وبلغ نعيه إلى أبيه بتونس فبادر بإلنفاذ العهد لابنه أبي العباس أحمد

ولما اعتقلوا أبا زيان ببسكرة كما ذكرناه وثوقاً بصريخ أبي حو ومظاهرتة. نبضت عروق الخلاف في أولاد أبي الليل ونزعوا إلى اللحاق يعقوب بن علي رجاء فيما توهموه من استغلاظ أمرهم بصاحب تلمسان وياساً من معاودة التغلب الذي كان لهم على ضواحي إفريقية، ففارقوا الأمير أبا فارس بعد أن أبلغوه مأمته من قفصة، وساروا بأحيائهم إلى الزاب فلم يقفوا على الغرض ولا ظفروا بالغيبة، ووافوا يعقوب وابن مزني، وقد جاءهم وافتد أبي حو بالعود عن نصرتهم، والأمير أبو زيان قد انطلق لسبيله عنهم، فسقط في أيديهم وعادوهم الندم على ما استدبروا من أمرهم، وحلهم يعقوب على مراجعة السلطان وأوفد ابنه محمداً في ذلك مع وافتد العزيز أبي عبد الله محمد بن أبي هلال فقبلهم وأحسن التجاوز عنهم. وبعث أبا يحيى أخاه لاستقدامهم أماناً لهم وتأنيساً. وبذل لهم فوق ما أملوه من مذهب الرضى والقبول واتصال النجح والظهور، والحمد لله وحده.

تغلب ابن يملول على توزر وارتجاعها منه

قد كان تقدم لنا أن يحيى بن يملول لما هلك ببسكرة تخلف صبياً اسمه أبو يحيى، وذكرنا كيف أجلب على توزر سنة اثنين وثمانين وسبعمئة مع ليفي أعراب رياح ومرادس. فلما كان سنة ثلاث وثمانين وسبعمئة بعدها وقعت مغاضبة بين السلطان وبين أولاد هلال من الكموب، وانحدروا إلى مشاتهم بالصحراء فبعث أميرهم يحيى بن طالب عن هذا الصبي أبي يحيى من بسكرة، فنزل بأحيائه بساح توزر، ودفع الصبي إلى حصارها، واجتمع عليه شيعته من نواحي البلد وأوشاب من أعراب الصحراء، وأجلبوا على البلد وناوشوا أهلها القتال وكان بها المتصر ابن السلطان فقاتلهم أياماً. ثم تداعى شيعهم من جوانب المدينة وغلبوا عساكرهم وأحجروهم بالبلد، ثم دخلوا عليهم، وخرج المتصر ناجياً بنفسه إلى بيت يحيى بن طالب. واستدتم به فأجاره وأبلغه إلى مأمته بقفصة، وبها عاملها عبد الله البريكي.

واستولى ابن يملول على توزر، واستنفذ ما معه وما استخرجه من ذخائرهم بتوزر في أعطيات العرب، وزادهم بجاية السنة من البلد بكماها، ولم يحصل على رضاهم وبلغ الخبر إلى السلطان بتونس، فشمز عزائمهم وعسكر بظاهر البلد، واعترض الجند وأزاح عنهم وتحمل إلى ناحية الأربص وهو يستألف الأعراب ويجمع لقتال أولاد مهلهل أقتالهم وأعداهم أولاد أبي الليل وأولياءهم وأحلافهم ليستكثر بهم، حتى نزل على فحوص

حركة السلطان إلى قابس

كان السلطان قد فتح مدينة قابس سنة إحدى وثمانين وسبعمائة وانتظما في أعماله، وشرذ عنها بني مكى فذهبوا إلى نواحي طرابلس وهلك كبيرهم عبد الملك وعبد الرحمن ابن أخيه أحمد، وذهب ابنه يحيى إلى الحج، وأقام عبد الوهاب بزوزور ثم رجع إلى جبال قابس يحاول على ملكها. واستتب له ذلك بوثوب جماعة من أهل البلد بعاملها يوسف الأتبار من صنائع السلطان لقيح إيالته وسوء سيرته، فدخلوا جماعة من شيعة بين مكى في ضواحي قابس وقرأها وواعدوهم فجاؤوا لميعادهم وعبد الوهاب معهم، واقتحموا باب البلد وقتلوا البواب. وقصدوا ابن الأتبار فقتلوه في مسكنه سنة اثنتين وثمانين وسبعمائة وملك عبد الوهاب البلد واستقل بها كما كان سلفه. وجاء أخوه يحيى من المشرق فأجلب عليه مراراً يروم ملك البلد منه فلم يتهياً له ذلك ونزل على صاحب الحامة وأقام عنده يحاول أمر البلد منها، فبعث عبد الوهاب إلى صاحب الحامة وبذل له المال على أن يمكنه منه فبعث به إليه فاعتقله بقصر العروسيين، وأقام يراوغ السلطان على الطاعة ويبذل ماله في أعراب الضاحية من ذباب وغيرهم للمدافعة عنه، ومنع الضريبة التي كانوا يؤدونها للسلطان أيام طاعتهم، والسلطان مشغول عنهم بمهمه، فلما فرغ من شواغله بإفريقية والزاب نهض إليه سنة تسع وثمانين وسبعمائة بعد أن اعترض عساكره واستألف من العرب أوليائه وسرب فيهم عطاء.

ونزل على قابس وقد استعد لها وجمع الآلات لحصارها فأكسح نواحيها، وجثم عليها بعساكره يقاتلها ويقطع نخيلها حتى أعاد الكثير من الفرفة... براحاً وموج الهواء في ساحتها، فصح بعد أن كانوا يستوخونه لاختفائه بين الشجر، وفي متكائف الظلال وما يلحقه في ذلك من التعفن، فذهب عنها ما كان يعهد فيها من ذلك الوخم رحمة من الله أصابتهم من عذاب هذا السلطان، وربما صحت الأجسام بالعلل.

ولما اشتد بهم الحصار وضاق المختق، وظن ابن مكى أنه قد أحيط به استعقب للسلطان واستأمن فاعتبه وأمنه ورهن ابنه على الطاعة وأداء الضريبة وأفرج عنه السلطان وانكفاً راجعاً إلى تونس، واستقام ابن مكى حتى كان من تغلب عمه يحيى عليه ما ذكره.

بولاية بجاية مكان أبيه وجعل كفالة أمره لابن أبي مهدي مستبداً عليه واستقامت الأمور على ذلك.

حركة السلطان إلى الزاب

كنت أنتهي بتأليف الكتاب إلى ارتجاع توزر من يد ابن يملول وأنا يومئذ مقيم بتونس، ثم ركبنا البحر منتصف أربع وثمانين وسبعمائة إلى بلاد المشرق لقضاء الفرض، ونزلت بالإسكندرية ثم بمصر، وصارت أخبار المغرب تبلغنا على السنة الواردين، فمن أول ما بلغنا وفاة هذا الأمير ابن السلطان ببجاية سنة خمس وثمانين، ثم بلغنا بعدها حركة السلطان إلى الزاب سنة ست وثمانين وسبعمائة، وذلك أن أحمد بن مزني صاحب بسكرة والزاب لعده كان مضطرب الطاعة يجير على السلطان وكان يمنع في أكثر السنين المغارم معولاً على مدافعة العرب الذين ملكوا ضواحي الزاب والتلول دونه، وأكثر وثوقه في ذلك بيعقوب ابن علي وقومه الداودة، وقد مر طرف من أخباره في ذلك مثبتاً في أخبار الدولة. وكان ابن يملول قد أوى إلى بلده واتخذ وكراً في وجوه، وأجلب على توزر مراراً برأيه ومعونته فأحفظ ذلك السلطان ونبه له عزائمه.

ثم نهض سنة ست وثمانين وسبعمائة يريد الزاب بعد أن جمع الجموع واحتشد الجنود واستألف العرب من بني سليم فساروا معه وأوعبوا، ومر على فحص تبة. ثم خرج من طرف جبل أوراس إلى بلد تهودا من أعمال الزاب، واعصوصب الداودة ومن تبعهم من قبائل رياح على المدافعة دون بسكرة والزاب غيرة من بني سليم أن يتركوا أوطانهم أو يردوا مراعيهم إلا بني سباع بن شبل من الداودة، فإنهم تحيزوا إلى السلطان.

واستنفر ابن مزني حماة وطنه ورجالة قومه من الأثبيح فغصت بسكرة بجمعهم وتوافست الفريقان، وناوشهم السلطان القتال أياماً وهو يرأس يعقوب بن علي ويستحثه لما كان يطعمه به من المظاهرة على ابن مزني، ويعقوب يخادعه بانحراف قومه عنه واتلافهم على ابن مزني ويرغبه في قبول طاعته ووضع أوزار الحرب مع رياح حتى تمكن له فرصة أخرى، فتقبل السلطان نصيحته في ذلك وأغضى لابن مزني ولرياح عنها، وقبل طاعته وضربيته المعلومة، وانكفاً راجعاً، ومر بجبل أوراس ثم إلى قسطنطينة فأراح بها، ثم ارتحل إلى تونس فوصل إليها منتصف سنة ثمانين وسبعمائة.

رجوع المنتصر إلى ولايته توزر وولاية أخيه زكريا على نفطة ونفزاوة

كان العرب أيام ولاية المنتصر بتوزر قد حمدوا سيرته وأصفقوا على محبته والتشيع له، فلما رجع السلطان عن قابس رغبوا إليه في طريقه إلى أن تولى المنتصر على بلاد الجريد كما كان ويردد على عمله بتوزر. وتولى ذلك بنو مهلهل وأركبوا نساءهم الظعن في الهودج واعترضوا بهن السلطان سافرات مولولات دخلاء عليه في إعادة المنتصر إلى توزر لما لهم فيه من المصالح فقبل السلطان وسيلتهن وأعاده إلى توزر، ونقل ابنه زكريا إلى نفطة وأضاف إليها عمل نفزاوة فسار إليها واستعمله وأظهر من الكفاية والاضطلاع ما تحدث به الناس عنه، وكانت ولايته أول سنة تسعين وسبعمئة.

فتنة الأمير إبراهيم صاحب قسطنطينية مع الدواودة ووفاة يعقوب بن علي ثم وفاة الأمير إبراهيم إثرها

كان للدواودة بـقسطنطينية عطاء معلوم مرتب على مراتبهم زيادة لما بأيديهم من البلاد في التلؤلؤ والزباب باقسطاع السلطان وضاق نطاق الدولة لهذه العصور فضاحت الجباية وصار العرب يزرعون الأراضي في بلادهم بالتلؤلؤ ولا يحسبون بمغارمها فيضيق الدخل ويمنعهم العطاء من أجل ذلك، فنفسد طاعتهم وتنطلق بالغيث والنهب أيديهم.

ولما رجع الأمير إبراهيم من حركته في ركاب أبيه إلى قابس، وكان منذ أعوام ينقص من عطائهم لذلك، ويعلمهم بالمواعيد، فلما قفل من قابس اجتمعوا إليه وطلبوا منه عطاءهم فتعلل عليهم، وجاءه يعقوب بن علي مرجعه من الحج وأشار عليه بإنصاف العرب من مطالبهم فأعرض عنه وارتحل لبعض مذهبهم، وتركه ونادى في العرب بالفتنة معه يروم استتلاف أعدائه فأجابه الكثير من أولاد سباع بن شبل وأولاد سباع بن يحيى وبأيديهم من ذؤبان رياح، وخرج يعقوب من التلؤلؤ في نقاوس فاقام بها، وانطلقت أيدي قومه على تلؤلؤ قسطنطينية بالنهب وانتساف الزروع حتى اكتسحوا عاصمتها ولحقوا به مالتى اليد مثقلي الظهر.

ثم طرقه المرض فهلك سنة تسعين وسبعمئة ونقلوا شلوه إلى بسكرة فدفنوه بها وقام مكانه في قومه ابنه محمد. واستمر على

العصيان وصعد إلى التل في منتصف إحدى وتسعين وسبعمئة واستألف الأمير إبراهيم أعداءه من الدواودة وأحلافهم من البادية وجنح إليه أبو ستة بن عمر أخو يعقوب بن علي بما معه من أولاد عائشة أم عمر، وخالفه أخوه صميت إلى محمد بن يعقوب، ثم تحاربوا مع الأمير إبراهيم فهزموه وقتل أبو ستة ثم جمع السلطان لحربهم ودفعهم عن التلؤلؤ ومنعهم من المصيف عامهم ذلك. وانحدروا إلى مشاتهم وعجزوا بعدها عن الصعود إلى التلؤلؤ وقضوا مصيفهم عامهم ذلك بالزباب، وانحدروا منه إلى المشاتي فلما رجعوا من مشاتهم وقد فقدوا الميرة انطلقت أيديهم على نواحي الزباب فانتسفوا زروعهم، وكاد أن يفسد ما بينهم وبين ابن مزني مظاهرهم على تلك الفتنة. ثم ارتحلوا صاعدين إلى التلؤلؤ وقد جمع الأمير إبراهيم لدفاعهم عنه. وبينما هو في ذلك ألم به طائف من المرض فتوفي سنة اثنتين وتسعين وسبعمئة وافتقرت جموعه وأخذ محمد بن يوسف السير إلى نواحي قسطنطينية فاحتل بها مظاهراً للطاعة متبرئاً من الخلاف، ونادى في أهل البلاد بالآمان والعمارة فصلحت أحوال الرعايا والسابلة. وبعثوا إلى السلطان بتونس مستأمنين مستعئين فأمهم وأعابهم وأقام بـقسطنطينية مكان ابنه إبراهيم ابنه، وبعث من حضرته محمد بن مولاه بشير لكفائته والقيام بدولته فقام بأمرها، وصلحت الأحوال.

منازلة نصارى الفرنج للمهدية

كانت أمة الفرنج وراء البحر الرومي في الشمال قد صار لهم التغلب ودولة بعد انقراض دولة الروم فملكوا جزائره مثل: دانية وسردانية وميورقة وصقلية، وملأت أساطيلهم فضاءه وتخطوا إلى سواحل الشام وبيت المقدس فملكوها، وعادت لهم سورة التغلب في هذا البحر بعد أن كانت سورة المسلمين فيه لا تقاوم إلى آخر دولة الموحدين بكثرة أساطيلهم ومران راكميهم فغللبهم الفرنج وعادت السورة لهم، وزاحمتهم أساطيل المغرب لعهد بني مريم أياماً. ثم فشل ربح الفرنجة واختل مركز دولتهم بإفرنسة، وافتقرت طوائف في أهل برشلونة وجنوة والبنادقة وغيرهم من أمم الفرنجة النصرانية، وأصبحوا دولاً متعددة فتنهت عزائم كثيرة من المسلمين بسواحل إفريقية لغزو بلادهم، وشرع في ذلك أهل بجاية منذ ثلاثين سنة فيجتمع النفراء والطائفة من غزاة البحر، ويصنعون الأسطول ويختارون له أبطال الرجال، ثم يركبونه إلى سواحل الفرنجة وجزائره على حين غفلة فيتخطفون منها ما قدروا عليه، ويصادمون ما يلقون من أساطيل الكفرة فيظفرون بها غالباً

انتفاض قفصة وحصارها

كان السلطان أبو العباس قد ولى على قفصة عندما ملكها ابنه الأمير أبا بكر وأقام في خدمته من رجال دولتهم عبد الله التركي من موالي جدهم السلطان أبي يحيى فانتظم به أمره وأقام بها حولاً، ثم تجافى عن إمارتها ولحق بابيه بتونس سنة اثنتين وثمانين وسبعمائة فجعل السلطان أمر قفصة لعبد الله التركي وولاه عليها ثقة بغنائه واضطلاعه. ولم يزل بها والياً إلى أن هلك سنة أربع وتسعين وسبعمائة وولى السلطان مكانه ابنه محمد، وكان له إخوة أصاغر أبناء علات فنافسوه في تلك الرتبة وحسدوه عليها، وأغراهم به محمد الدينون من قرابة أحمد بن العابد كان ينظر في قسمة الماء بالبلد، وكان فيها عدلاً معقلاً، فلم تطرقه النكبة كما طرقت قومه، وأبقاه السلطان بالبلد فأغرى هؤلاء الإخوة بأخيهم ووثبوا به فاعتقلوه وأظهروا العصيان. ثم حمله أعيان البلد على البراءة من بني عبد الله التركي استرابة بهم أن يراجعوا طاعة السلطان فتوثب بهم وأخرجهم واستصفاهم واستقل برئاسة البلد كما كان قومه، والسلطان في خلال ذلك يرعد ويرق ويواصل الأعذار والإنذار، وهم قد لجوا في طغيانهم. ثم جمع جنوده واحتشد واستألف الأعراب ووفر لهم الأعطيات. ونهض إليها حتى نزل بساحتها منتصف خمس وتسعين وسبعمائة وقد استعدوا وتحصنوا فالح عليهم القتال وأذاقهم النكال، وقطع الميرة فضيق مخفقهم. ثم عدا على نخلهم فقطعها حتى صرع جذوعها وفسح المجال بين لفافها.

ولما اشتد بهم الحصار وضاق عليهم المخرج، خرج شيخهم الدينون إلى السلطان يعقد معه صلحاً على بلده وقومه فغدر به، وحسبه رجاء أن يملك بذلك البلد. وكان بعض بني العابد اسمه عمرو بن الحسن قد انتبذ عن قفصة أيام نكبتهم وأبعد في المغرب، ثم رجع ونزل بأطراف الزاب. ولما استقل الدينون بقفصة قدم عليه فأقام معه أياماً ثم استراب به وتقبض عليه وحسبه. فلما غدر به السلطان اجتمعت عليه المشيخة وعقدوا له الإمرة، وبعثوا إلى العرب يسترحمونهم ويعطفونهم على ذخيرتهم فيهم. وسربوا إليهم الأموال فتصدى إلى الدفاع عنهم صولة بن خالد بن حمزة أمير أولاد أبي الليل، وزحف إلى السلطان بمعسكره من ظاهر البلد، وكان أولياؤه من العرب قد أبعدوا عنه في الجهات لانتجاع إيلهم فما راعه إلا إطلاق صولة براياته في قومه فأجفل وأتبعوه. وما زال بكر عليهم في بنيه وخواصه حتى ردهم على أعقابهم. وأغذ السير إلى تونس وهو في اتباعه، ولم يظفروا منه

ويعودون بالغنائم والسبي والأسرى، حتى امتلأت سواحل الثغور الغربية من مجاية بأسراهم تضج طرق البلاد بضجة السلاسل والأغلال عندما ينتشرون في حاجاتهم ويغالون في فدايتهم بما يتعذر معه أو يكاد، فشق ذلك على أمم الفرغية وملا قلوبهم ذلاً وحسرةً وعجزوا عن الثأر به، وصرخوا على البعد بالشكوى إلى السلطان بإفريقية فصم عن سماعها وتطارحوا بثمهم وتكلمهم فيما بينهم وتداعوا لنزال المسلمين والأخذ بالثأر منهم.

وبلغ خبر استعدادهم إلى السلطان فسرح ابنه أبا فارس يستفر أهل النواحي ويكون رصداً للأسطول هنالك، واجتمعت أساطيل جنوة وبرشلونة ومن وراءهم أو مجاورهم من أمم النصرانية، وأقلعوا من جنوة فحطوا بمرسى المهديّة منتصف اثنتين وتسعين وسبعمائة وطرقوها على حين غفلة، وهي على طرف البر داخل في البحر كأنه لسان دالغ فأرسوا عندها، وضربوا عند أول الطرف سوراً من الخشب بينه وبين البر حتى أصاروا المعقل في حكمهم، وعالوا عليه بالأبراج وشحنوها بالمقاتلة ليتمكنوا من قتال البلد ومن يأتيهم من مدد المسلمين، وصنعوا برجاً من الخشب من جهة البحر يشرف على أسوار المعقل لتعظم نكابتهم، وتحصن أهل البلد وقاتلوهم صابرين محتسبين. وتوافت إليهم الأمداد من نواحي البلد فحال دونهم الفرغية.

وبلغ الخبر إلى السلطان فأهله أمرها وسرح العساكر تشرى إلى مظاهرتهم. ثم خرج أخوه الأمير أبو يحيى زكريا وسائر بنيه فيمن حضره من العساكر فانطلقوا لجهاد هذا العدو، واستتفر المقاتلة من الأعراب وغيرهم فاجتمعت بساحتها أمم، وألحوا على الفرغية بالقتال ونضح السهام حتى أحجروهم في سورهم. وبرز الفرغية للقتال فكان بينهم وبين المسلمين جولة جلى فيها أبناء السلطان، وكاد الأمير أبو فارس منهم أن يتورى لسولا حماية الله التي وقته. ثم تداركت عليهم الحجارة والسهام والنفط من أسوار البلد فاحترق البرج المظل عليها من جهة البحر فوجوا لحريقه. ثم ركبوا من الغد أسطولهم وأقلعوا إلى بلادهم، وخرج أهل المهديّة يتباشرون بالنجاة ويتنادون بشكر الأمراء على ما اعتمدوه في نصرهم، ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾. وأمر الأمير أبو يحيى برم ما تلم من أسوارها، ولم ما تشعب منها، وقفل إلى تونس وقد أنجح الله قصدهم وأظهرهم على عدوهم.

فأجابوه وساروا معه بجمعهم سنة ست وتسعين وسبعمائة فبيتها وملكها، وقبض على رئيسها يحيى بن عبد الملك بن مكى فضرب عنقه، وانقرض أمر بني مكى من قايس واستقل بها الأمير عمر مضافة إلى ما كان بيده، والله وارث الأمور.

وفاة السلطان أبي العباس وولاية ابنه أبي فارس عزوز

كان السلطان أبو العباس قد أزمّن به وجع النقرس حتى كان في غالب أسفاره يحمل على البغال في الحفة. ثم اشتد به آخر عمره وأشرف في سنة ست وتسعين وسبعمائة على الهلكة. وكان أخوه زكريا رديفه في الملك والمرشح بعده للأمر، وابنه أحمد والياً في بونة موضع إمارته من قبل. وكان للسلطان أولاد كثيرون يتناولون إلى مكان أبيهم وينصون بعمهم زكريا، ويخشون غائلته بعد أبيهم، فلما قارب السلطان منيته اشتد جزعهم وإشفاقهم من عمهم. وبعث السلطان كبيرهم أبا بكر بعهده على قسطنطينية فسار إليها بين أيدي موته، وأعصروصب الباقون على كبيرهم بعده أبي فارس عزوز فقبضوا على عمهم زكريا وقد دخل يعود أخاه، وأودعوه في بعض الحجر واكلوا به، وهلك السلطان لثلاث بعدها فباعوا أخاهم أبا فارس رابع شعبان سنة ست وتسعين وجاء أهل البلد إلى بيعته أفواجاً من الأعيان والكافة فتمت بيعته، وأمر بنقل ما في بيوت عمه من الأموال والذخيرة إلى قصره حتى استوعبها، وضيق عليه في محبسه، وقام بتدبير ملكه وسياسة سلطانه. وولى بعض إخوانه على منابر عمله بإفريقية فبعث أحدهم على سوسة والثاني على المهديّة، وردف أخاه إسماعيل في ملكه بتونس، وأحل الباقيّن محل الشورى والمفاوضة.

وبلغ الخبر إلى أخيه المنتصر بتوزر فاضطرب أمره ولحق بالحامة فأقام بها. وكذلك أخوه زكريا بنقطة فلحق بمجبال فنزّاه. وكان أخوه أبو بكر لما سار إلى قسطنطينية لولاية أبيه قبيل وفاته مر ببونة فلقية صاحبها الأمير محمد ابن عمه زكريا بما شاء من أنواع الكرامة والمبرة ووافى قسطنطينية فطلب منه القاتمون بها كتاب السلطان بعهده عليها فأقرأهم إياه، وفتحوا له الأبواب فدخل واستولى على أمرها. وكان خالصة السلطان محمد بن أبي هلال قد بعثه السلطان قبيل موته إلى السلطان أبي فارس عبد العزيز المتولي بالمغرب بعد وفاة أبيه السلطان أبي العباس بن أبي سالم في صفر من شهور السنة، وحمله من الهدايا والتحف ما يليق بأمره فأسار. فلما انتهى إلى ميله بلغه الخبر بوفاة السلطان مرسله وأوعز

بعقال إلا ما كان من طعن القنا ووقع السيوف حتى وصل إلى حضرته. ثم ندم صولة على ما كان منه وأرسل السلطان بطاعته فلم يقبله، واتخذ إلى مشايته سنة ست وتسعين وسبعمائة.

واستدعى ابن يملول من عشن نفاقه بسكرة فخف إليه ودفعه إليها تربيّه في الغي أحمد بن مزني صاحب الزاب. ووصل ابن يملول إلى صوله فأغراه بمحصار توزر، ونزل معه عليها بقومه فجلى الأمير المنتصر في دفاعهم والامتناع عليهم حتى يشواء واضطربت آراؤهم وأفرجوا عنها مفترقين. وصعد صولة إلى التل للمصيف به، وعاد الرغبة من السلطان في قبول طاعته. وكان محمد الدينيدن لما أجفل السلطان عن قصصه تركه بتلك الناحية، فلما وصل إلى تونس أرسل أهل قصصه في الرجوع إليهم فأجاب به بعض أشياخه، ودخل البلد فنذر به عمر بن العابد وكبسه مكانه الذي نزل به وقتله، واستبد بمشيخة قصصه وخشي أهل قصصه من غائلة السلطان وسوء مغبة العصيان فبعثوا إلى السلطان بطاعتهم، وشرط عليهم نزول عامله عندهم، وهذا آخر ما بلغنا عنهم ولم يبلغنا أنه عقد لهم ولا لصولة أمراً والله يصرف الأمور بحكمته.

ولاية عمر ابن السلطان على صفاقس واستيلائه منها على قايس وجزيرة جربة

هذا الأمير عمر ابن السلطان هو شقيق إبراهيم الذي كان أميراً بقسطنطينية، وكان في كفالة أخيه إبراهيم. فلما توفي كما مر لحق بالسلطان أبيه وأقام عنده. ولما كان من وفاة أبي بكر بن ثابت شيخ طرابلس ما قدمناه واضطرب قومه من بعده، ونزع قائدهم قاسم بن خلف إلى السلطان فبعث معه ابنه عمر هذا سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة لحصار طرابلس، وأقام عليها حولاً كريئاً يحاصرها ويمنع الأقوات عنها، حتى ضجروا وضجر من طول المقامة فدافعوه بالضريبة وانكفأ راجعاً إلى أبيه سنة خمس وتسعين وسبعمائة ووافاه جائئاً على قصصه عندما انتفضوا عليه، وقد كان مر في طريقه على جربة وأراد الدخول إليها فممنعه عامل أبيه بها من الموالي العلوجي فأنف من ذلك، وشكاه إلى أبيه فولاه على صفاقس، ووعد بولاية جربة فسار هو إلى صفاقس وأجاز البحر إلى جزيرة جربة، وانضم إليه جميع من بها من القبائل. وامتنع العليج منصور العامل بمحصنها المسمى بالقشتيل بلسان الفرنج، حتى كاتب السلطان فأمره بتمكين ابنه من الحصن والإفراج له عن الجزيرة أجمع، فاستبد بها. ثم إن الأمير عمر سما إلى ملك قايس، فدخل أهل الحامة جارتها المجلبة عليها على الأيام في ذلك

مزني لفقاً من لفائق الأعراب، وصلوا إلى إفريقية أحلافاً لطوالع بني هلال بن عامر في المائة الخامسة كما قدمناه.

ونسبهم بزعهم في مازن من فزارة والصحيح أنهم في لطيف من الأثيج. ثم من بني جرى بن علوان بن محمد بن لقمان بن خليفة بن لطيف، واسم أبيهم مزنة بن ديفل بن عيا بن جرى، هكذا تلقبته من بعض نسبة الهلالين، وشهد لذلك الوطن، فإن أهل الزاب كلهم من أفريق الأثيج عجزوا عن الظعن ونزلوا قراه على من كان بها قبلهم من زناتة وطوالع الفتح، وإنما يرغبون عن هذا النسب فزارة لما صار إليه أهل الأثيج بالزاب من المغرب والوضائع، فيستكفون لذلك ويتسبون إلى غرائب الأنساب. وكان أول نزولهم بقرية من قرى بسكرة وكانت تعرف بقرية حياس. ثم عفوا وتأنلوا وأخذوا مع أهل بسكرة يحظ وافر من تلك العقار والمياه. ثم انتقلوا إلى البلد واستمتعوا منها بالمنزل والظلال، وقاسموا أهلها في الخلو والمر، وانتظم كبارهم في أرباب الشورى من المشيخة. ثم استنكف بنو رمان من انتظامهم معهم وحسدوهم على ما آتاهم الله من فضله، وحذروهم على أنفسهم فاضطربت بينهم نار العداوة والإحن، وكان أولها الكلام والترافع إلى سدة السلطان بتونس على حين استقلال أبي حفص بإفريقية، ولعهد الأمير أبي زكريا وابنه السلطان المستنصر. ثم تناجزوا الحرب وتواقعوا سكك المدينة وكانت صاغية الدولة مع بني رمان لتقديم في البلد.

ولما خرج الأمير أبو إسحاق على أخيه محمد المستنصر لأول بيعته، ولحق بالدواودة من العرب ويابح له موسى بن محمد بن مسعود البلط أمير البدو يومئذ، واعتمر به بسكرة وبلاد الزاب، وأناخ عليها بكلكله كما قدمناه. قام يومئذ فضل بن علي بن أحمد بن الحسن بن علي بن مزني بدعوته، وأعلن بين أهل البلد بطاعته واتباعه على كره. ثم عاجلته عساكر السلطان وأجهضتهم عن الزاب، فاعتلق فضل بن علي به، واستمسك بذيله وصحبه في طريقه إلى الأندلس، ودار غربته منها إلى أن هلك المستنصر أخوه، وهيا لله له من أمر الخلافة ما هيا حسبما ذكرناه. ولما تم أمره واقعد بتونس كرسي خلافته عقد لفضل بن علي على الزاب ولأخيه عبد الواحد على بلاد الجريد رعيًا لذمة خدمتهما، وذكرًا لاتلافهما في المنزل الحشن وصحبتهما، فقدم والياً على الزاب ودخل بسكرة واستكان بنو رمان لصولته وانقادوا في مرضاة الدولة إلى أمره فلم ينسوا بكلمة في شأنه، واضطلع بتلك الولاية ما شاء الله.

ثم كان شأن الداعي بن أبي عمارة وتليسه، ومهلك

إليه الأمير أبو بكر من قسطنطينة بالرجوع إليه فرجع بهديته، واستقر عنده هنالك. هذا آخر ما بلغنا من الأخبار الصحيحة عنهم لهذه السنين وحالهم على ذلك لهذا العهد، والملك بيد الله يؤتية من يشاء.

الخبر عن بني مزني أمراء بسكرة وما إليها من الزاب

هذا البلد بسكرة هو قاعدة وطن الزاب لهذا العهد، وحده من لدن قصر الدوسن بالمغرب إلى قصور تنومة وبادس في الشرق، يفصل بينه وبين البسيط الذي يسمونه الحضنة جبل جاتم من المغرب إلى المشرق، ذو ثنايا تقضي إليه من تلك الحضنة، وهو أبل درن المتصل من أقصى المغرب إلى قبلة برقة. ويعمر ذلك الجبل في حمادة الزاب من غريبه بقايا عمرت من زناتة، ويتصل من شرقيه بجبل أوراس المطل على بسكرة المعترض في ذلك البسيط من القبلة إلى الشمال. وهو جبل مشهور الذكر يأتي الخبر عن بعض ساكنيه. وهذا الزاب وطن كبير يشتمل على قرى متعددة متجاورة جمعاً جمعاً، يعرف كل واحد منها بالزاب. وأولها زاب الدوسن، ثم زاب طولقة ثم زاب مليلة وزاب بسكرة وزاب تهودا وزاب بادس. وبسكرة أم هذه القرى كلها، وكانت مشيختها في القديم بعد الأغالبة والشيعا لعهد صنهاجة ملوك القلعة في بني رمان من أهلها بما كثروا ساكنها. وملكوا عامة ضياعها. كان لجعفر بن أبي رمان منهم صيت وشهرة.

وربما نقضوا الطاعة لعهد بلكين بن محمد بن حماد صاحب القلعة في سني حسين وأربعمائة، وضبطوا البلد وامتنعوا. وتولى كبر ذلك جعفر بن أبي رمانة، ونازلتهم جيوش صنهاجة إلى نظر الوزير خلف بن أبي حيدة من صنائع الدولة فاقطمها عليهم، واحتملهم إلى القلعة فقتلهم بلكين جميعاً، وجعلهم عظة لمن بعدهم. وأصار أمر الشورى لبني سندي من أهلها. وكان لعروس منهم بعد ذلك خلوص في الطاعة وانحياش إلى الدولة على حين تقلص ظلها وفشل ريجها، والورى الهرم بشبايها. وهو الذي فلك بالمتنصر بن خزون الزناتي عند وصوله من المشرق واجتلابه على السلطان بقومه من مغراوة وأعراب الأثيج وبني عدي وبني هلال، فمكر به السلطان وأقطعه ضواحي الزاب وريغة طعمة. ودس إلى عروس في الفلك به ففعل كما قدمنا ذكره في أخبار آل حماد. وانقرضت رئاسة بني سندي بانقراض أمراء صنهاجة من إفريقية. وجاءت دولة الموحدين، والكثرة والبيست لبني زمان. وكان بنو

كانوا قد غلبوا على سائر الضواحي فساهمهم في جبايتها حتى كاد يغلبهم عليها. ووفر أموال الدولة وأمنى الخراج وصانع رجال السلطان فآلقوا عليه بالحبية، وجذبوا بضيعه إلى أقصى مراتب الاصطناع، فأثرى واحتجزت الأموال ورسخت عروق رئاسته ببسكرة، ورسخت منابت عزه وهلك المولى أبو زكريا الأوسط على رأس المائة السابعة، وولوا مكانه ابنه الأمير أبا البقاء خالداً كما قدمناه، وقام بأمره حاجبه أبو عبد الرحمن بن غمر.

وكان منصور بن فضل هذا اختصاص به واعتلاق بيد جاهه فاستنام إليه وعول في سائر الضواحي من ممالك السلطان على نظره، وعقد له على بلاد التل من أرض سدويكش وعياض فاستضافها إلى عمله، وجرد عن ساعد كفايته في جبايتها فلحق عقيمها وتفجرت بتأنيبها. ثم حدثت بينه وبين الدولة منافرة وأجلب على قسطنطينية يحيى بن خالد ابن السلطان أبي إسحاق جأجا به من تلمسان، وبائع له واستألف الدواودة لمشايته، ونازل به قسطنطينية ثم أطلع على مكان من صدره فيه وما طوى عليه من التريص به فحل عقدته، ولحق ببسكرة ببسكرة، وراجع الطاعة. ولحق به يحيى بن خالد واعتقله إلى أن هلك سنة عشرين وسبعمئة وكانت بينه وبين المرابطين أهل السنة من العرب أتباع سعادة المشهور الذكر فتن وحروب، وطالبوه بترك المغارم والمكوس تخفيفاً عن الرعية وعملاً بالسنة التي كانوا ملتزمين لطريقها، ونازلوه من أجل ذلك ببسكرة مراراً. ثم هلك سعادة في بعض حروبه على مليلي كما مر في ذكره سنة خمس وسبعمئة. وجمع منصور بن مزني للمرابطين، وبعث عسكره يقوده ابنه علي بن منصور مع علي بن أحمد شيخ الدواودة، وعلى المرابطين أبو يحيى بن أحمد أخوه ومعه رجالات المرابطين مثل: عيسى بن يحيى بن إدريس شيخ أولاد عساكر، وعطية بن سليمان بن سباع وحسن بن سلامة شيخ أولاد طلحة فهزموا عسكر ابن مزني وقتلوا ابنه علياً وتقبضوا على علي بن أحمد، ثم منوا عليه وأطلقوه. ورجعوا إلى بسكرة فنازلوها وقطعوا نخيلها. ثم عاودوه ثانية وثالثة. ولم يزل الحرب بينه وبين هؤلاء المرابطين فتن سائر أيامه. وكان الحاجب ابن غمر قد استخلصه لنفسه وأحله محل الثقة بخلته واستقامه إلى صفاته.

ولما نهض السلطان أبو البقاء إلى تونس صحبه الحاجب في جملته حتى إذا عمل المكيدة في الانصراف عن السلطان شاركه في تدبيرها إلى أن تمت كما قدمناه. ورجع الحاجب إلى قسطنطينية ورده إلى مكان عمله من الزاب. وكان يتردد إليه ببجاية للزيارة والمطالعة في أعماله إلى أن غدر به العرب في بعض طرقه إليها.

السلطان أبي إسحاق على يده. ثم ثار منه السلطان أبو حفص بأخيه واسترجع ما ضاع من ملكهم، وكل منهم يشق بغناؤه، ويعول في أمر الزاب على كفايته. وسيم أعداؤه بنو رمان أيام ولايته فداخلوا أولاد حريز من لطيف إحدى بطون الأناجيج، كانوا نزلوا بقربة ماشاش لضيق المدينة حين عجزوا عن الظعن، وخالطوا أهل البلد في أحوالهم وامتزجوا معهم بالنسب والصهر فأغروهم بفضل بن علي أن يكون التقدم لهم في الفتك به، وتناول الأمر من يده، وأن يخربوا بيوتهم من قرية ماشاش بأيديهم ليسكنوا إليهم ويطمئنا إلى ولايتهم حلفاً عقدوه على المكر بهم. ولما أوقفوا به بظاهر البلد في بعض أيام ركوبه سنة ثلاث وثمانين وستمئة ونزلوا من أمر الزاب ما كان يتولاه، تنكر لهم بنو رمان لحولين من ذلك الحلف، وناذبوهم العهد فخرجوا عن البلد وفقدوا المأوى للتمرس بها من قريب، وتفرقوا في بلاد ريغة، واستبد بنو رمان بشورى بسكرة والزاب منتفضين عليهم وعلى السلطان، والدواودة قد تغلبوا عليه وعلى بلاد الحصنة من ورائه نقاوس ومقرة والمسيلة. وكان منصور بن فضل بن علي عند مهلك أبيه بالحضرة في بعض شؤونه. فلما هلك أبوه واستبد بنو رمان بعده، بثوا السعايات فيه إلى السلطان بالحضرة فأنجحت، وتقبض عليه واعتقل أيام السلطان أبي حفص.

ولما تغلب المولى أبو زكريا يحيى ابن الأمير أبي إسحاق على بجاية وقسطنطينية وبونة، واستقل بأمرها وانقسمت دولة آل أبي حفص بملكه ذلك منها، تمسك أهل الزاب بدعوة صاحب الحضرة المولى أبي حفص وفر منصور بن فضل بن علي من محبسه بتونس ولحق ببجاية بعد مهلك الحاجب القائم بالأمر أبي الحسين بن سيد الناس وتولية السلطان أبي زكريا مكانه كاتبه أبو القاسم بن أبي يحيى سنة إحدى وتسعين وستمئة، فلأزم خدمته وخف عليه وصنائه بوجوه التحف وتضمن له تحويل الدعوة بالزاب لسلطانه وتسريب أمواله وجبايته إليه واستماله بذلك، فعقد له على الزاب وأمد به بالعسكر فنازل بسكرة وفد أهلها بنو رمان على السلطان ببجاية يبيعهم فرجعهم على الأعقاب إلى عاملهم منصور، وكتب إليه يقول فينتهم، ودخل البلد سنة ثلاث وتسعين وستمئة، وكادهم في بناء القصر لشيئته، وتحصن العسكر بسوره. ثم نابذهم العهد، وثار بهم فأجلاهم عن البلد، واستمكن فيه ورسخت قدم إمارته فيها، واستند جباية السلطان، واتسع له نطاق العمالة، فاستضاف إلى عمل الزاب جبل أوراس وقرى ريغة وبلاد واركلي وقرى الحصنة: مقرة ونقاوس والمسيلة. فعقد له السلطان على جميعها، ودفعه إلى مزاحمة العرب في جبايتها وانتهاش لحومها إذ

وتقبض عليه من أمراء الدواودة علي بن أحمد بن عمر بن محمد بن مسعود، وسليمان بن علي بن سباع بن يحيى بن مسعود على حين اجتذبا جبل الإمارة من يد عثمان بن سباع بن شبل بن موسى بن محمد، واقتسما رئاسة الدواودة قومهما فاستمكنا من هذا العامل منصور بن فضل في مرجعه من عمله ببلاد سدويكش، وأوثقوه اعتقلاً، وهموا بقتله فافتدى منهم بخمسة قناطير من الذهب وارتاشوا بمكسوبيهم، وصرفوا في وجوه رئاستهم ألفاً منها، وقبض منصور بن فضل عنائه عن السفر بعدها إلا في الأحيان. وبعد أخذ الرهن من العرب إلى أن كانت حركة مولانا السلطان أبي يحيى إلى تونس سنة سبع عشرة وسبعماية أول حركاته إليها، وطالب حاجبه يعقوب بن غمر وهو بغير مجاية بالأموال للنفقات والأعطيات، فبعث إليه منصور بن فضل وأشار بعقده له على حجابته ليقوم بأمره، ويكفيه مهمات شؤونه واعتدها منصور على ابن غمر فساء ظنه، وتكر له ابن غمر، وحالت صبغة وده وانكفا السلطان من حركته تلك مخفق السعي بعد أن نزل ظاهر تونس بعساكره كما قدمناه. ولما احتل بقسطنطينية بدت له من يعقوب بن غمر صاحب الثغر مخايل الامتناع فأقصر عن اللحاق به، وترددت بينهما الرسل وبعث له ابن غمر في منصور بن فضل. ونذر منه بالشر فأجاب داعيه، وصحب قائد السلطان يومئذ محمد بن أبي الحسين بن سيد الناس إليه، حتى إذا كان ببعض الطريق عدل إلى بلدته، وهم به القائد فأجاره أولياؤه من العرب: عثمان بن الناصر شيخ أولاد حربي ويعقوب بن إدريس شيخ أولاد خنصر ومن معهم من ذويهم. ولحق ببسكرة وبلغ الخبر إلى ابن غمر ففرغ سن الندم عليه، وشايع منصور بن مزني عدوهم صاحب تلمسان أباً تاشفين ودخل في دعوته وأوفد ابنه يوسف عليه بالطاعة والهدية.

وكان السلطان قد استدعى محمد بن سيد الناس من الثغر لحجابه، وفوض له أمور مهلكه، فلهجت نار العداوة والإحـن القديمة بما بينه وبين يوسف بن منصور عامل الزاب، وهم به لولا ما أخذ بمجزته من الشغل الشاغل للدولة بتحيف آل زيان وهلك الحاجب سنة الثنتين وثلاثين وسبعماية في نكبة السلطان إياه كما ذكرناه، وعقد لمحمد بن الحكيم على القيادة وجعل بيده زمام العساكر، وفوض له سائر القرى والضواحي، فأجرى رئاسته وحكمه في دولته وتقلب على أمره حين فرغ السلطان من الشغل بمدافعة عدوه، وحط ما كان من إصرهم على كاهل دولته. ونهض السلطان أبو الحسن إلى يغمراسن فقلع أظفار أعدائهم وقل شبا عزائمهم كما شرحناه قبل، فأذكي القائد محمد بن الحكيم مع يوسف بن منصور نار العداوة، وأثار له من السلطان كامن الحفيظة وصرف وجوه العزائم إلى حمله على الجادة وتقويعه عن المراوغة في الطاعة، وناهضه بالعساكر مرات ثلاثاً يدافعه في كلها بتسليم الجباية إليه. ثم كانت بينه وبين علي بن أحمد كبير الدواودة فتن وحروب دعا إليها منافسة علي في استثاره بمال الجباية دونه فواضع الحرب، ودعا العرب إلى منازلته بموها بالدعاء إلى السنة، وحشد أهل ريفعة لذلك ونازله، وانحرف عنه ابنه يعقوب ودخل إلى بسكرة فاصهر له ابن مزني في أخته بنت منصور بن فضل، وعقد له عليها، فحسن دفاعه عنه، وبعث ابن مزني عن سليمان بن علي كبير أولاد سباع، وقريع علي بن أحمد في شؤونه، فكان عنده ببسكرة يغاديه القتال ويرواحه إلى أن امتنع ابن مزني.

ورحل علي بن أحمد عن بسكرة وصار مع ابن مزني إلى الاتفاق والمهادنة أعوام الأربعين من المائة الثامنة. ثم كانت غزاة القائد بن الحكيم إليه نهض من إفريقية بعد أن نازل ببلاد الجريد، واقتضى طاعتهم ومغارهم، واسترهن ولد ابن يملول. ثم ارتحل إلى الزاب في جنوده ومعه العرب من سليم فأجفل بالزاب ونزل بلد أوماش من قراه، وفرت العرب من الدواودة وسائر رباح

وتقبض عليه من أمراء الدواودة علي بن أحمد بن عمر بن محمد بن مسعود، وسليمان بن علي بن سباع بن يحيى بن مسعود على حين اجتذبا جبل الإمارة من يد عثمان بن سباع بن شبل بن موسى بن محمد، واقتسما رئاسة الدواودة قومهما فاستمكنا من هذا العامل منصور بن فضل في مرجعه من عمله ببلاد سدويكش، وأوثقوه اعتقلاً، وهموا بقتله فافتدى منهم بخمسة قناطير من الذهب وارتاشوا بمكسوبيهم، وصرفوا في وجوه رئاستهم ألفاً منها، وقبض منصور بن فضل عنائه عن السفر بعدها إلا في الأحيان. وبعد أخذ الرهن من العرب إلى أن كانت حركة مولانا السلطان أبي يحيى إلى تونس سنة سبع عشرة وسبعماية أول حركاته إليها، وطالب حاجبه يعقوب بن غمر وهو بغير مجاية بالأموال للنفقات والأعطيات، فبعث إليه منصور بن فضل وأشار بعقده له على حجابته ليقوم بأمره، ويكفيه مهمات شؤونه واعتدها منصور على ابن غمر فساء ظنه، وتكر له ابن غمر، وحالت صبغة وده وانكفا السلطان من حركته تلك مخفق السعي بعد أن نزل ظاهر تونس بعساكره كما قدمناه. ولما احتل بقسطنطينية بدت له من يعقوب بن غمر صاحب الثغر مخايل الامتناع فأقصر عن اللحاق به، وترددت بينهما الرسل وبعث له ابن غمر في منصور بن فضل. ونذر منه بالشر فأجاب داعيه، وصحب قائد السلطان يومئذ محمد بن أبي الحسين بن سيد الناس إليه، حتى إذا كان ببعض الطريق عدل إلى بلدته، وهم به القائد فأجاره أولياؤه من العرب: عثمان بن الناصر شيخ أولاد حربي ويعقوب بن إدريس شيخ أولاد خنصر ومن معهم من ذويهم. ولحق ببسكرة وبلغ الخبر إلى ابن غمر ففرغ سن الندم عليه، وشايع منصور بن مزني عدوهم صاحب تلمسان أباً تاشفين ودخل في دعوته وأوفد ابنه يوسف عليه بالطاعة والهدية.

وملك السلطان خلال ذلك تونس وسائر بلاد إفريقية وهلك ابن غمر سنة سبع عشرة وسبعماية ولم يزل منصور بن مزني ممتنعاً سائر أيامه على الدولة، والعساكر من مجاية تتردد لمنازلته إلى أن هلك سنة خمس وعشرين وسبعماية، وقام بأمره من بعده ابنه عبد الواحد فعقد له السلطان على عمل أبيه بالزاب، واستضاف إليه ما وراءه من البلاد الصحراوية: قرى ريفعة وواركلي. وكان السلطان قد عقد على الثغر بعد مهلك ابن غمر لمحمد بن أبي الحسين بن سيد الناس، وجعل له كفالة ابنه يحيى ودفعه إليه فتجددت الوحشة بين عبد الواحد هذا وبين صاحب الثغر في سبيل المنافسة في المرتبة عند السلطان لما كانوا جميعاً صنائع وبطانة للحاجب ابن غمر. وبعث العساكر لحربه ومنازلة حصنه.

والبدو ورؤساء النواحي سنة أربع وخمسين وسبعمائة ووفد في جلتهم يوسف بن منصور أمير الزاب ويعقوب بن علي أمير البدو وسائر الدواوة فللقاهم السلطان تكرمة ورعيأ لأزمة خلوصهم لأبييه وقومه من بين أهل إفريقية، وأسنى جوائزهم. وعقد ليوسف بن مزني على الزاب وما وراءه من بلاد ريغة وواركلي على عادته وانقلب محبواً محبوراً.

وقد ثبت له من ولاية السلطان ومخالطته حظ، ورفع له ببساطه مجلس، ولما نهض السلطان إلى إفريقية لافتتاح قسطنطينية سنة ثمان وخمسين وسبعمائة كما سنذكره تلقاه يوسف بن منصور على قسطنطينية فخلطه بأوليائه، ونظمه في طبقات وزرائه. واستوحش يعقوب بن علي يومئذ من مطالبته بالرهن له ولقومه وانتفض، فأجفلت أحياءه إلى بلاد الزاب وخرب بلاد يعقوب بن علي بالزاب والتل بقطع أشجارها وتغيير مياهها وهدم بنايتها ونسف آثارها، ودخل يعقوب بأحيائه الرمل وأعجزوا السلطان فأنكفأ راجعاً، واحتل بظاهر بسكرة فتلوم بها ثلاثاً لإراحة العساكر وإزاحة غللمهم من وعناء السفر وشعث الصحراء، فغرب يوسف بن منصور في قرى عساكره أيام مقامه يشملهم فيها من العلوفة والخطوة واللحمان والأدم بما أرغد عيشهم وكفاهم مهمهم. وتحدثت بها الناس دهراً، ورفع إليه جباية الزاب لعامه قناطير من الذهب دفعه ببيت المال فقبضه القهارة من ثقاته، وأجزل السلطان مئوبته وأسنى عطيته، واختصه بكسوة ثيابه وعياله من كسى حرمه وثياب قصره. وانكفأ راجعاً إلى حضرته. ثم أوفد يوسف بن منصور ابنه أحمد على السلطان بسدته من فاس عند منصرف وزيره سليمان بن داود من حركة إفريقية سنة تسع وخمسين وسبعمائة وأصبحه هدية من عتاق الخيل وفاره الرقيق. وأقام أياماً في نزل كريم ومحل من المجلس رفيع إلى أن هلك السلطان خاتمة تسع وخمسين وسبعمائة فأرغد القائم بالدولة من بعده جازته وأسنى صلته وصرفه إلى عمله، واستوصى به أمراء النواحي والثغور في طريقه. ولم ينشب أن شبت نار الفتنة وانتزى الخوارج بالجهاث بعد مهلك السلطان فخلص إلى أبيه بعد عناية وعلى يأس من النجاة بعد أن حصل في قبضة أبي حمو سلطان بني عبد الواد عند استيلائه على تلمسان، وهو بها مع بني مرين، وقد مر بهم مجتازاً إلى وطنه فأجاره عليه صغير بن عامر شيخ بني عامر من زغبة رعيأ لأزمة ابنه يوسف صاحب الزاب، وتأميلاً للعرب فيه وفي أعماله. وبعد أن بذل له من ذات يده ومن طرف ما وصله به بنو مرين من ذخائرهم فبعث معه صغير ركباً من قومه أبلغوه، فكانت إحدى الغرائب في نجاته. واسترجع

أمامه، ودافعه يوسف بن مزني بهديته دفعها إليه وهو بمكانه من أوماش، وارتحل عنه إلى بلاد ريغة فافتتح مقررت معقلهم واستباحها ودوخ سائر أعماله. ورجع إلى تونس ونكب السلطان قائده محمد بن الحكيم هذا سنة أربع وأربعين وسبعمائة وولى ابنه أبا حفص عمر. وخشي الحاجب أبو محمد بن تافراكين بادرة بطانته فلحق بملك المغرب المهروب الشبا المطل على الممالك، يعسوب القبائل والعشائر أبي الحسن، وأغراه بملك إفريقية واستجره إليها، فنهض في الأسم العريضة سنة ثمان وأربعين وسبعمائة كما ذكرنا ذلك كله من قبل. ووفد عليه يوسف بن منصور أمير الزاب بمعسكره من بني حسن فلقاه برأ وترحيباً واستبته في حملته إلى قسطنطينية. ثم عقد له على الزاب وما وراءه من قرى ريغة وواركلي، وصرفه إلى عمالته. واستقبل تونس، وأمره برفع الجباية إليه مع العمال القادمين من أقصى المغرب على رأس الحول فاستعد لذلك، حتى إذا سمع بوصولهم من المغرب لحقهم بقسطنطينية وفجأهم هنالك جميعاً الخبر بنكبة السلطان على القيروان كما ذكرناه، فاعتزم على اللحاق ببلده.

واعصوب عليه يعقوب بن علي بن أحمد أمير البدو بالناحية القريبة من إفريقية لأزمة صهر كانت بينهما ومخالصته وتغيز إليهم من كان بقسطنطينية من أولياء السلطان وحاشيته وعماله، ورسل الطاغية والسودان الوافدين مع ابنه عبد الله من أصاغر بني، آواهم يوسف بن منصور جميعاً إليه، وأنزلهم ببلده وكفاهم مهماتهم شهوراً من الدهر حتى خلص السلطان من القيروان إلى تونس، ولحقوا به مع يعقوب بن علي فكانت تلك بدءاً اتخذها يوسف بن يعقوب عند السلطان أبي الحسن وبنيه باقي الأيام. ثم اتبع ذلك بمخالفة رؤساء النواحي من إفريقية جميعاً في الانتقاض عليه، وأقام متمسكاً بطاعته يسرب الأموال إليه بتونس وبالجناز عند خلوصه إليها من النكبة البحرية كما سنذكره، ويدعو له على منابره بعد تفويضه عن الجزائر إلى المغرب الأقصى لاسترجاع ملكه، إلى أن هلك السلطان أبو الحسن بجبل هتاتة من أقصى المغرب سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة واستقام أمر الدولة الحية الذكر المرينية لابنه السلطان أبي عنان، ولما استضاف إلى ملكه ملك تلمسان، ومحا ما جدهه بنو عبد الواد من رسوم ملكهم وجمع كلمة زناتة، وأطل على البلاد الشرقية سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة بادر يوسف بن منصور بطاعته فاتأها طواعية، وأوفد على السلطان رسله بكتاب بيعته. ثم أوفد عليه ثانياً مع حاجبه الكاتب أبي عبد الله محمد بن أبي عمر، وبعثه بالعساكر لتدوين إفريقية وتهديد ملكه ببجاية كما سنذكره. وأوفد عليه أمراء القبائل

ووصله.

وصار الأمر للموحدين فمحووا منها آثار المشيخة والاستبداد. ونشأ أحمد هذا الجد مترامياً إلى الرئاسة بهذا القطر يدافع عنه بالراح، ويزاحم بالناكب من وجوه البلد وأشرف الوطن. وسعى به إلى شيخ الموحدين وقائد العسكر أيام السلطان أبي حفص محمد الفازاري فنكبه وصادره على مال امتحنه عليه. كانت أول نكباته التي أورت من زناه وأوقدت من جره، فخلص إلى الحضرة يؤمل انتعاده مطيته وثبوت مركزه من دار الخلافة فأولئها أياماً يباكر أبواب الوزراء والخاصة، ويلثم أطراف الأولياء والحاشية وبذل كرائم ماله فيما يزلفه لديهم، ويؤثره بعنايتهم حتى استعمل بديوان البحر مقعد العمال بحرماً السفن لجباية الأعشار من تجار دار الحرب. ثم استضاف بما كان من غنايه فيها واضطلاعه سائر أعمال الحضرة فتلقدها زعيماً بإمضاء الجرايات وأدار الجباية. واستمرت على ذلك حاله وتضاعفت فائدته فأنشأ واحتجج المال، واستخرج الذخيرة قاطعاً لألسنة السعاية المصانعة والإحتاف بطرف ما يجلبه الروم من بضائعهم حتى أبطره الغنى، ودلت على مكانته الثروة، ورفع أمره إلى الحاجب فخرج التوقيع بالقبض عليه واستصفاء ماله لعهد السلطان أبي يحيى الليثاني فنكب الثانية وصودر على مئين من آلاف الدنانير وامتحن لها، وباع فيها مكسوبة حتى من الكتب وخلص من النكبة مثلوب الأمانة ممزق الأديم فقيد الرياش، أحوج ما كان إلى ما يعوز من الكن والدفع وبلاة العيش. ولحق ببلده ناجياً بالرمق ضارعاً للدهر.

ودفعه المأل إلى ما يستكفون عنه من خدمة العمال ومباكرة أبوابهم والامتهان في ضروراتهم، وأنجده في ذلك بخت جذب بضعبه. وكان في خلال ذلك شغل الحضرة شأن الثغور الغربية وأمرائها فتقلص ظل الدولة عن هؤلاء بعض الشيء وهملت الرعايا بالبلاد الجريدية، وصار أمرها إلى الشورى التي كانت عليها قبل. فلما أدرك أحمد هذه الشورى التي كان يسمو لها سمو حجاب الماء تلج صدره، وأنجح سعيه، واستبد بمشيخة توزر. وهلك في أعوام ثمان عشرة فخلفه من بعده في سبيله تلك ولده يحيى طموحاً إلى الرتبة منافساً في الاستقلال، ومزاحماً بيوتات المصير بمنابك استوصلها سائر عمره من الدعار والأوغاد بمعاقرة الخمر والمجاعة في فنون الشباب ليستبد أمره، والاستيلاء على نظرائه حتى تطارحوا في هوة الهلاك بين قتل ومغرب غيف العمران، لم تعطفه عليهم عواطف الرحم ولا زجره وازع التقوى والسلطان، حتى خلا له الجو واستوسق الأمر واستقر من أمر البلد والحل

الموحدون ثغورهم: بجاية وقسطنطينة من يد بني مرين وأزعجوا عنها العساكر الجمعة بها من قبائلهم كما قدمناه، فراجع يوسف بن منصور طاعته المعروفة لهم إلى أن هلك سنة سبع وستين وسبعمئة ليوم عاشوراء، وقام بأمره ابنه أحمد، وجرى على سنته وهو لهذا العهد أمير على الزاب بمحل أبيه من إمارته متقبلاً في مذهبه وطريقه إلا أن خلق أبيه كان سخية وخلق هذا تلهوقاً لما فيه من التحذلق، وربك يخلق ما يشاء ويختار. وله أولاد كبيرهم أبو يحيى من بنت محمد بن يملول أخت يحيى، وهو لهذا العهد مرشح لمكانه. ولما حلت بأهل الجريد الفارقة ونزل به يحيى بن يملول المشؤوم على وطنه توجس الخيفة من السلطان وتوقع المطالبة بطاعة غير طاعته المعروفة، فسرب الأموال في العرب ومد يده إلى جبل صاحب تلمسان لئتمسك به فوجده قاصراً عنه، وأقام يقدم في أمره رجلاً ويؤخر أخرى. ثم كذب الله نور الهداية في قلبه، وأراه سنن رشدته. ويادر إلى الاستقامة في الطاعة والعدول عن المراءغة، ووصله وافد السلطان أبي العباس شيخ الموحدين أبو عبد الله بن أبي هلال، وكشف له قناع المخالصة والانحياش، وبعث معه وفده بهديته واستقامته وتقبله السلطان أعاده إلى أحسن الأحوال من الرضى عنه والله متولي الأمور سبحانه.

الخبر عن رئاسة بني يملول بتوزر وبني

الخلف بنفطة وبني أبي المنيع بالحامة

زعيم هؤلاء الرؤساء ابن يملول صاحب توزر لاتساع بلده وتمدد مصره واحتلاله منها بأمر القرى من قطره، وهو يحيى بن محمد بن يملول. ونسبهم بزعمهم في طوالع العرب من تنوخ، استقر أولوه بهذا الصقع كان منذ أول الفتح فعفوا وتائلوا ووشجت به عروقهم نسباً وصهرأ حتى انتظموا في بيوت الشورى المتقدمين للوفادة على الملوك وتلقي العمال القادمين من دار الخلافة والنظر في مصالح الكافة أيام آل حماد بالقلة، وآل عبد المؤمن بمراكش وآل أبي حفص بتونس: مثل بني واطاس وبني فرقان وبني ماردة وبني عوض. وكان التقدم فيهم أيام عبد الله الشيعي لابن فرقان، وهو الذي أخرج أبا يزيد حين شعر أنه يريد القيام على أبي القاسم القائم، وأيام آل حماد ليحيى بن واطاس، وهو النازع بطاعة أهل قسطنطينة إليهم عن آل بلكين ملوك القيروان حين انقسمت دولة آل زيري، وافترق أمرهم. ثم عادت الرئاسة لبني فرقان لأول دولة الموحدين، ومنهم كان الذي لقي عبد المؤمن وآتاه الطاعة عن نفسه وعن أهل بلده توزر، فتقبله

كبرهم يحيى بن علي. فلما فرغ السلطان من شغله بزنانة وجشم السلطان أبو الحسن على تلمسان يحاصرها. وأقبل السلطان على النظر في تمهيد ملكه وإصلاح ثغوره، وافتتح أمره بغزو قفصة ونهض إليها سنة خمس وثلاثين وسبعمئة في عساكره من الموحدین وطبقات الجند والأولياء من العرب، فحاصرها شهراً أو نحو وقطع نخيلها وضاق عنقهم بالحصار وتلاوموا في الطاعة. واستبقوا بها إلى السلطان وفر الكثير من بني العابد فلحقوا بقابس في جوار ابن مكى ونزل أهل البلد على حكم السلطان فتقبل طاعتهم وأحسن التجاوز عنهم، وبسط المعدلة فيهم وأحسن أمل ذوي الحاجات منهم، وانكفأ راجعاً إلى حضرته بعد أن أثرهم بسكنى ولده المخصوص بعدئذ بعهد الأمير أبي العباس وأنزله بين ظهرانيهم وعقد له على بلاد الجريد، واحتمل مقدم روضة يحيى بن علي إلى الحضرة فلم يزل بها إلى أن هلك سنة أربع وأربعين وسبعمئة، واستبد الأمير أبو العباس بأمر الجريد واستولى على نفطة كما قدمناه. وقتل بني خلف وهم: مدافع وأبو بكر وعبد الله ومحمد وابنه أحمد بن محمد إخوة أربعة، وابن أخيه الخلف بن علي بن الخلف بن مدافع، ونسبهم في غسان في طوابع العرب.

وانتقل جدهم من بعض قرى نفاوة إلى نفطة وتائل بها، وكان لبنيه بها بيت. واستبد هؤلاء الإخوة الأربعة أزمان الشورى كما قدمناه. ولما استولى السلطان أبو بكر على الجريد وأنزل ابنه أبا العباس بقفصة، وعقد له على سائر أمصارها واقتضى طاعتهم وامتنعوا فسرح إليهم وزيره أبا القاسم بن عتو من مشيخة الموحدین. وجهزت له العساكر من الحضرة ونازلها وقطع نخيلها فلاذ أهلها بالطاعة، وأسلموا بني مدافع المتغلبين فضرب أعناقهم وصلبهم في جذوع النخل آية للمعتبرين. وأفلت السيف منهم علماً صغيرهم لذة اعتدله له أبو القاسم بن عتو لتزوجه قبل الحادثة فكانت واقيته من الهلكة.

واستولى الأمير أبو العباس على نفطة واستضافها إلى عمله. ثم مرض أبو بكر بن يملول في طاعته فنهض إليه السلطان أبو بكر من تونس سنة خمس وأربعين وسبعمئة، وكان الفتح كما قدمناه. ولحق أبو بكر بن يملول بيسكرة فلم يزل بها إلى أن أجلب على توزر فنبذ إليه يوسف بن مزني عهده، وانتقل إلى حصون وادي ابن يملول المجاورة لتوزر، وهلك سنة ست وأربعين. ثم كان مهلك السلطان وابنه الأمير أبي العباس صاحب الأعمال الجريدية إثر ذلك سنة سبع وأربعين وسبعمئة، ورجع إلى كل مصر من الجريد مقدموه فرجع أحمد بن العابد إلى قفصة من مكانه في جوار ابن

والعقد بأوفى من استبداد أبيه. وكان مهلكه قريباً من استبداده لخمس سنين فتلقف الكرة من يده أخوه محمد تربه في الرئاسة ومجاريه في مضمارها، فأجرى إلى الغاية واقتعد كرسي الرئاسة وعفى على آثار المشيخة. واستظهر على أمره بمصانعة أمراء البدو وأولاد أبي الليل، والمئات إليهم بصهر كان عقده أبوه أحمد لأبي الليل جدهم على اخته أو عمته فكانوا رداً له من الدولة فبعد صيته وعظم استيلائه وامتدت أيامه وعني الملوك بخطابه وإسناد الأمور في تلك البلاد إليه خلال ما تعود الكرة وتهب ريح الدولة وزحف إليه القائد محمد بن الحكيم سني أربعين فلاذ منه بالطاعة والمصانعة بالمال، ورهنه ولده يحيى فرجعه إليه ابن الحكيم وتقبل طاعته من غير رهن استقامه لما ابتلاه من خلوصه. وأقام على ذلك إلى أن هلك أعوام أربع وأربعين من المائة الثامنة.

وتصدى ولده عبد الله للقيام بالأمر فوثب عليه عمه أبو زيد بن أحمد فقتله على جدث أبيه صبح مواراته بعد أن كان أظهر الرضا به والتسليم له فشارت به العامة لحينه، وكان مصرعهما واحداً. وقام بالأمر أخوه يملول بن أحمد أربعة أشهر كانت شر مدة وأسوأ ولاية، لما أصاب الناس بسوء ملكته من سفك الدماء واستباحة الحرم واغصاب الأموال، حتى كان ينسب إلى الجنون مرة وإلى الكفر مرة أخرى فمرج أمرهم واستولى الضحجر على نفوسهم، وكان أخوه أبو بكر معتقلاً بالحضرة فراسله أهل توزر سراً وأطلقه السلطان من محبسه بعد أن أخذت عليه المواثيق بالطاعة والوفاء بالجباية قصص إليها بمن في لفه من الأعراب، وحشد نفزاوة المجاورين لها في القرى الظاهرة المقدره السير، وأجلب عليهم ثم بيثها فاعتقها وبادر الناس إلى القبض على يملول أخيه وأمكنه منه فاعتقله بداره وتبرأ من دمه، وأصبح لثلاثة اعتقله ميتاً بمحبسه.

وكانت قفصة من قبل ذلك لما صار أمر الجريد إلى الشورى قد استبد بها يحيى بن محمد بن علي بن عبد الجليل بن العابد من بيوتها، ونسبهم في زعمهم في بلى ولهم خلف بزعمهم في الشريد من بطون سليم. والله أعلم بأولية نزولهم بقفصة حتى التحموا بأهلها وانتظموا أمر بيوتاتها. وكانت البيوت بها بيت بني عبد الصمد وبيت بني أبي زيد، وكانت رئاسته لبعض بني أبي زيد لعهد الأمير أبي زكريا الأعلى، كان يستعمله على جباية أموال الجريد، ثم سعى به أنه أصاب منها فنبكه وصودر على آلاف من المال فأعطاها، وأقامت رئاستهم متفرقة في هذه البيوتات.

ولما حدثت العصية بالبد أيام صار أمر الجريد إلى الشورى كان بنو العابد هؤلاء أقوى عصية من سائرهم، واستبد بها

وقام بأمره أخوه عبد الله بن علي فأذكى سياسته، وأيقظ حزمه وأرهدف للناس حده فقموا عليه سيرته، وسيموا عسفه واستمكن مناهضهم في الشرف ومحاذيهم في رئاسة البلد القاضي محمد بن خلف الله من صاحب الحضرة بزمة كانت له في خدمته قديمة استعمله لرعيها في خطة القضاء بحضرته، وآثره بالمكان منه والصحة فسعى بعبد الله هذا عند الخليفة ودله على مكانم هلكته، وبصره بعورات بلده. واقتاد عساكر السلطان إليه في زمامه.

ولما احتل بظاهر البلد وعبد الله رئيسها أشد ما كان قوة وأكثر جمعاً وأمضى عزمًا استألف أخوه الخلف بن علي بن الخلف جماعة المشيخة دونه، وحرصهم عليه ودخل القاضي في تبيت البلد وأنه بالمرصاد في اقتحامها، حتى إذا كانت الهبة دس إلى بعض الأوغاد في قتل أخيه عبد الله، ومكر بالقاضي والعسكر وامتنع عليهم واعتصم دونهم. واستقل برئاسة بلده وأقام على ذلك يناغي ابن يملول في سيره ويطارحه الكثير من مذهب، ويجري في الشاؤ الذي بلغ إلى غايته وأوفى على نتيته.

وأما أحمد بن عمر بن العابد فلم يزل من لدن استبداده في قصة سالكاً مسالك الخمول منحطاً عن رتبة التكبر منتحلاً مذاهب أهل الخير والعدالة في شارته وزيه ومركبه، جانحاً إلى التقليل. فلما أوفى على شرف من العمر استبد عليه ابنه محمد وترفع عن حال أبيه بعض الشيء إلى مناغة هؤلاء الرؤساء المترفين، فبينما هؤلاء المتقدمون في هذه الحال من الاستبداد على السلطان والتخلق بأخلاق الملوك، والتأقل عن الرعايا بالتعسف والجور، واستحداث المكوس والضرائب إذا أطل على مفاحصهم السلطان أبو العباس بالحضرة مستبداً بدعوته، صارفاً إلى فتحها عزائمه فوجوا وتوجسوا الخيفة منه. واتمروا في المظاهرة واتصال اليد بعد أن كانوا يستحثونه إلى الحضرة، ويبعثون إليه بالانغياش على البعد زبوناً على صاحب الحضرة وتراوغاً عن مصدوقية الطاعة.

فلما استبد السلطان أبو العباس بالدعوة استرأوا في أمرهم وسربوا أموالهم في الأعراب المخالفين على السلطان من الكموب، يؤملون مدافعهم عنهم فشمروا لها أولاد أبي الليل بما كان وقع بينهم وبين السلطان من التفرقة. ونهض إليهم السلطان فغلبهم على ضواحي إفريقية على الظواعن التي كانت جبايتها لهم من مرغيزة كما قلناه، واكتسحهم فأوهن بذلك من قوتهم.

ثم زحف الثانية إلى أمصار الجريد فلاذوا بالامتناع، فأنشأ السلطان بعساكره وأوليائه من العرب أولاد مهلهل على قصصة

مكي واستولى على بلده في مكان ابن عمه يحيى بن علي، ورجع علي بن الخلف إلى نفطة واستبد بها. ورجع يحيى بن محمد بن أحمد بن يملول إلى توزر من مثنى اغترابه ببسكرة، وارتحل إليها مع عمه أبي بكر طفالاً، فلما خلا الجريد من الإمارة درج يحيى هذا من عشه في جوار يوسف بن منصور بن مزني وأطلقه مع أولاد مهلهل من الكموب بعد أن وصلهم وشارطهم، واسترهن فيه أبناءهم فأوصلوه إلى محل رئاسته بتوزر، ونصبه شيعته وأولياء أبيه، وقاموا بأمره. ورجع أمر الجريد كله إلى رئاسة مقدمه كما كان.

ثم وفدوا على السلطان أبي الحسن عند رجعته إلى إفريقية ولقوه بوهرا فلقاهم مبرة وتكرمة ورجع كلاً إلى بلده ومحل رئاسته بعد أن أسنى الجائزة، ووفر الإسهام والأقطاع، وأنفذ الصكوك والكتب: فرجع إلى توزر يحيى بن محمد بن أحمد بن يملول صبيّاً متعلماً، وإلى نفطة علي بن الخلف بن مدافع. وإلى قفصة أحمد بن عمر بن العابد وأنزل بكل واحد من هذه الأمصار عاملاً وحامية. وعقد على الجريد كله لمسعود بن إبراهيم بن عيسى البريناني من طبقة وزرائه، واستوصى بهؤلاء الرؤساء خيراً في جواره حتى إذا كانت نكبة السلطان بالقيروان سنة تسع وأربعين وسبعائة وارتحل عامل الجريد مسعود بن إبراهيم يريد المغرب بمن معه من العمال والحامية، ونمي خبره إلى الأعراب من كرفة فصبحوه في بعض مراحل سفره دون أرض السزاب فاستلحموه ومن كان معه من الحامية، واستولوا على أبنيتهم وذخيرتهم وكراعهم، واستبد رؤساء تلك البلاد بأمصارهم وعادوا إلى ديدنهم من التمريض، وأذانبوا بالدعاء لصاحب الحضرة منابهم، واستمروا على ذلك.

فأما يحيى بن محمد بن يملول فنزع إلى مناغة الملوك في الشارة والحجاب واتخاذ الآلة والبيت المقصور للصلاة، واقتعاد الأريكة وخطاب التمويل وفسح للمجون العكوف على اللذات مجالاً يرى أن جماع السياسة والملوك في إدارة الكأس وافتراش الأس والحجة عن الناس والتأله على الندمان والجلالاس. وفتح مع ذلك على رعيته وأهل إيالته باب العسف والجور. وربما يبت المشاهير منهم غيلة فائتلف نفوسهم، وامتد أمره في ذلك إلى أن استولى السلطان أبو العباس على إفريقية، وكان من أمره ما نذكره.

وأما جاره الجنب على بن الخلف فلم يلبث لما استبد برئاسته أن حج سنة أربع وستين وسبعائة والتمزم مذاهب الخير وطرق الرضى والعدالة، وهلك سنة خمس وستين وسبعائة بعدها وولي مكانه ابنه محمد جارباً على سننه. ثم هلك لسنة من ولايته،

وحدثته نفسه بالاستبداد، وأقام يتحين له الفرصة وذهب الأمير أبو بكر إلى زيارة أخيه بتوزر فكاده بالتخلف عنه، وجمع أواباشاً من الغوغاء والزعانف وتقدم بهم إلى القسبة وبعث بالصريح للفك بعد الله التريكي ونذر بذلك فأغلق أبواب القسبة وبعث الصريح في أهل القرى، وقتلهم ساعة من نهار حتى وافى إليه المدد. فلما استغلظ بمدده أدركهم الدهش وانقض الأشرار من حوله ولجأوا إلى الاختفاء في بيوت البلد، وتقبضوا على الكثير من داخلهم في الثورة، ووصل الخبر إلى الأمير أبي بكر بتوزر فبادر إلى مكانه، وقد سكنت الهبة واستلحم جميع من تقبض عليه حاجبه ونادى في الناس بالبراءة من ابن أبي زيد فتبرؤوا منه. وعثر الحرس عليه وعلى أخيه خارجين من أبواب البلد في زي النساء فقادهما إليه فقتلها بعد أن مثل بهما.

وبادر المولى المنتصر بتوزر لقتل الخلف بن الخلف أن يخوض في مثلها فذهب في غير مرحلة لم يعطف عليه رحم، ولا تكنه سماء ولا أرض. واستبد السلطان بالجريد ومحا منه آثار المشيخة وعفا عليها وانتظمه في عمالات السلطان.

وأما بلد الحامة وهي من عمالة قسطلية وتعرف بحامة قابس وحامة مطماطة نسبة إلى أهلها الموطنين كانوا بها من البربر، وهم فيما يقال الذين اختطوها، وأما الآن ففيها ثلاث قبائل من توجن وبني ورياجن وهم في العصبية فرقتان: أولاد يوسف ورناستهم في أولاد أبي منيع وأولاد جحاف ورناستهم في أولاد وشاح، ولا أدري كيف نسب لفرقتين: فاما بنو أبي منيع فالحديث عن رناستهم في قومهم أن جدهم رجا بن يوسف كان له ثلاثة من الولد وهم بوساك يحمده وملالة وأن رئاسته بعده كانت لابنه بوساك، ثم ابنه أبي منيع من بعده، ثم لابنه حسن بن أبي منيع، ثم لابنه محمد بن حسن، ثم لأخيه موسى بن حسن ثم لأخيها أبي إعلان إلى أن كان ما نذكر.

وأما أولاد جحاف فكانت أول رئاستهم لمحمد بن أحمد بن وشاح، وقبله خاله القاضي عمر بن كلى، وكان العمال من الحضرة يتعاقبون فيهم إلى أن أسقط السلطان عنهم الخراج والمغارم بأمرها. وكان مقدمهم لأول دولة السلطان أبي بكر من أولاد أبي منيع، وهو موسى بن حسن. وكان المديوني قائد السلطان والياً عليهم، وارتاب بهم بعض الأيام وأحبوا الثورة به، ففسد بها إلى السلطان في بعض حركاته، وغزاهم بنفسه ففروا، وأدرك سبعة من أولاد يوسف هؤلاء وتقبض عليهم فقتلوا. ثم رجع الأمير وولى موسى بن حسن. ولما هلك ولي بعده أخوه أبو عنان، وطال أمد ولايته عليهم وكان منسوباً إلى الخير والعفاف.

فقاتلها يوماً أو بعض يوم، وغدا في ثانية على نخلهم يقطعها فكأنما يقطع بذلك أعماهم فتبرأوا من مقدمهم، وشعر بذلك فبادر إلى السلطان ونزل على حكمه فتقبض عليه وعلى ابنه شهر ذي القعدة من سنة ثمانين وسبعماية وتملك البلد، واستولى على ديار ابن العابد بما فيها. وكان شيئاً لا يعبر عنه لطول أيامه في الولاية وكثرة احتجانه للأموال.

وعقد السلطان على قصصة لابنه أبي بكر وارتمل يريد توزر، وطار الخبر لابن يملول في توزر فقوض عنها بأهله، ونزل على أحياء مرداس وسرب فيهم المال فرحلوا معه إلى الزاب، ولحق ببسكرة ماوى نكباته ومنتهى مفرو، فنزل بها على أحمد بن يوسف بن مزني وأقام هنالك على قلعة من توقع مطالبة السلطان له ولجاره ابن مزني وخسارة أموالهم في زبون العرب وسوء المغبة إلى أن هلك لسنة أو نحوها واتمر أهل توزر. بعد تقيضه عنهم، وبعثوا إلى السلطان ببيعتهم فلقية أثناء طريقه، وتقدم إلى البلد فنزل بقصور ابن يملول واستولى على ذخيرته وتبرأ إليه أهل البلد من ودائع كانت له عندهم من خالص الذخيرة فرفعوها إلى السلطان. وعقد لابنه المنتصر على توزر واستقدم الخلف بن الخلف من نفطة، وكان يخالف أصحابه إلى الطاعة حتى نقضوها زبوناً على يملول وسالفة من العداوة كان يتقبلها. فلما أحيط بهم أدركه الدهش بطاعته فأتاها، وقدم عليه فقبل السلطان ظاهره وأغضى له عن غيرها طمعاً في استصلاحه، وعقد له على حجابة ابنه المنتصر وأنزله معه بتوزر وأمره بالاستخلاف على بلده نفطة وعقد على ولايتها وانكفاً راجعاً إلى الحضرة، وقدم ابن خلف على أمره ورأى أنه قد تورط في الهلكة فراسل ابن يملول بمكانه من توزر، وعثر أولياء السلطان على كتابه إلى يعقوب بن علي شيخ رباح ومدرة حروبهم على صريخ ابن يملول ومعونته، فعلموا نكته ومداجاته وبادروا إلى القبض عليه، وولوا على نفطة من قبلهم وخاطبوا السلطان بالشأن وأقام في اعتقاله إلى أن كانت حادثة قفصة، فبادر الأمير المنتصر إلى قتله.

وكان من خبر قصصة أن ابن أبي زيد من مشيختها كان نزح إلى السلطان قبل فتحها هو وأخوه لمنافسة بينهما وبين ابن العابد وهما: محمد وأحمد ابنا عبد العزيز بن عبد الله بن أحمد بن علي بن عمر بن أبي زيد. وقد ذكرنا أوليتهم واستعمال سلفهم أيام الأمير أبي زكريا الأعلى في جباية الجريد. فلما استولى على البلاد رعى لهما تشيعهما وبادرهما إلى طاعته مع قديهما فأنزلهما مع ابنهما بقفصة وكبيرهما رديف لحاجبه عبد الله من الموالي الأتراك ومدير لأموال البلد في طاعة السلطان. ثم نزح الشيطان في صدره

واقتسمت دولة صنهاجة الطوائف، انتزى بقابس وصنهاجة المعز ابن محمد الصنهاجي وأدال منه مونس بن يحيى الصنبري من مرداس رباح بأخيه إبراهيم إلى أن هلك. وولي أخوه قاضي بن إبراهيم، ثم نازله أهل قابس فقتلوه أيام تميم بن المعز بن باديس فبايعوا لعمر بن المعز بن باديس كان مخالفاً على أخيه، وذلك سنة تسع وثمانين وأربعمائة. ثم غلبه عليها أخوه تميم وكان مغلباً للعرب. وكانت قابس وضواحيها في قسم زغبة من عرب هلال.

ثم غلبتهم رباح عليها ونزل مكن بن كامل بن جامع من بني دهمان إخوة فادغ وهما معاً من بني علي إحدى بطون رباح فاستحدث بها مكن ملكاً لقومه بني جامع وأورثه بنيه إلى أن استولى الموحدون على إفريقية وبعث عبد المؤمن عساكره إلى قابس ففر عنها مدافع بن رشيد آخرهم وانتظها كما ذكرناه في أخبارهم وملكها، وانقرض ملك بني جامع وصارت قابس وأعمالها للموحدين، كان ولاية أفريقية من السادة يولون عليها من الموحدن إلى أن تغلب بنو غانية وقراقش على طرابلس وقابس وأعمالها، وكان ما ذكرناه في أخبارهم.

ثم غلب الموحدون يحيى بن غانية عليها وأنزلوا بها عمالهم. ولما عاد بنو أبي حفص إلى إفريقية العودة الثانية بعد مهلك الشيخ أبي محمد عبد الواحد، وعقد العادل على إفريقية لابنه أبي محمد عبد الله معه على قابس للأمير أبي زكريا أخيه فنزلها أميراً. ثم كان من شأن استبداده وخلعه لأخيه ولطاعة بني عبد المؤمن ما ذكرناه. وكان مشيخة قابس لذلك العهد في بيت من بيوتاتها، وهم بنو مسلم ولم يحضرن فيمن هو نسبهم.

وبنو مكي ونسبهم في لوائه وهو مكي بن فراج بن زيادة الله ابن أبي الحسن بن محمد بن زيادة الله بن أبي الحسين اللواتي. وكان بنو مكي هؤلاء خالصة للأمير أبي زكريا. ولما اعتزم على الاستبداد داخل أبو القاسم عثمان بن أبي القاسم بن مكي وتولى له أخذ البيعة على الناس فكان له ولقومه بذلك مكان من المولى أبي زكريا، رعى لهم ذمتها ورفع من شأنهم بسببها، ورموا بني سليم نظراءهم في رئاسة البلد بصاغيتهم إلى ابن غانية فأخذوا ذبا لهم بماله واستقلوا بشورى بلدهم. وأقاموا على ذلك أيام المولى أبي زكريا الأول وابنه المستنصر. ثم كان ما قدمناه من مهلك الائق بن المستنصر وبنيه على يد عمهم السلطان أبي إسحاق. وكان من أمر الدعي بن أبي عمارة، وكيف شبه على الناس بالفضل بن المخلوع بحيلة من مولا نصير. رام أن يشار بها من قاتلهم فتمت مكيدته في ذلك لما أرواه الله.

ولما أظهر نصير أمره وتسايلت العرب إلى بيعته خاطب

وهلك سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة وولي بعده ابن عمر ثم ابنه الآخر أبو زيان. ثم ولي بعدهما ابن عمهما مولاهم ابن محمد. ووفد على السلطان أبي الحسن مع وفد أهل الجريد كما مر. ثم هلك فولى بعده من بني عمهم حسان بن هجرس، وثار به محمد بن أحمد بن وشاح من أولاد جحاف المذكور فعزله، وأقام في ولايته إلى سنة ثمان وسبعين وسبعمائة فثار به أهل الحامة وقتلوا عمر بن كلي القاضي، وولوا عليهم حسان بن هجرس واليهم.

ثم ثار به يوسف واعتقله وهو يوسف بن عبد الملك بن حجاج بن يوسف بن وشاح وهو الآن مقدمها يعطي طاعة معروفة، ويستدعي العامل في الجاية ويرأغ عن المصدوقة والغلب والاستيلاء، وقد أحاط به من كل جهة.

وأملى عليّ بعض نسايتهم أن مشيخة أهل الحامة في بني بوسباك. ثم في بني تامل بن بوساك. وأن تامل رأس عليهم وأن وشاحاً من ولد تامل وأن بني وشاح، على فرقتين: بنو حسن وبنو يوسف، فحسان بن هجرس ومولاهم وعمر وأبو علان كلهم من بني حسن، ومحمد بن أحمد بن وشاح من بني يوسف، وهذا مخالف للأول، والله أعلم بالصحيح في أمرهم.

وأما نفزاوة وأعمال قسطنطينة فتنسب لهذا العهد إلى توزر وهي القرى العديدة المقدرة السير، يعترض بينها وبين توزر إلى القبلية عنها السبخة المشهورة المانعة في الاعتساف، إلا معالم قائمة من الخشب يهتدي بها السالك، وربما يضل خاضعها فتبطلعه. ويسكن هذه القرى قوم من بقايا نفزاوة من البرابرة البتر الذين بقوا هنالك بعد انقراض جمهورهم، وتخيف العرب لسائر بطون البربر، ومعهم معاهدون من الفرنجة ينسبون إلى سردانية نزلوا على الذمة والجزية وبها الآن أعقابهم. ثم نزل عليهم من عرب الشريد وزغب من بني سليم كل من عجز عن الطعن، وملكوا بها العقار والمياه وكثروا نفزاوة، وهم لهذا العهد عامة أهلها وليس في نفزاوة هذه رئاسة لصغرهما ورجوعهما في الغالب إلى أعمال توزر ورتاستها. هذا حال المتقدمين ببلاد الجريد في الدولة الحفصية أوردنا أخبارهم فيها لأنهم من صنائعها، وفي عداد ولايتها ومواليها، والله متولي الأمور.

الخبر عن بني مكي رؤساء قابس وأعمالها

كانت قابس هذه من ثغور إفريقية ومنظمة في عمالاتها، وكان ولايتها من القيروان أيام الأغالة والبيديين وصنهاجة من لدن الفتح، ولما دخل الهلاليون إفريقية واضطربت أمورها

وقفل حمزة بن عمر بشفاعه السلطان أبي الحسن إلى السلطان أبي يحيى في شأنه فتقبل وسيلته واستخلصه لنفسه من بعدها، واستقام هو على الطاعة التي لم تجد وليجة عنها، وسلك سبيله تلك أقتاله من الدولة الطائحين في هرة الشقاق، فأوفد عبد الملك هذا شقيقه أحمد على السلطان أبي الحسن منتصلاً من ذنوبه لانداً بشفاعته متوسلاً بما قدمناه من خدمته حظاياه في طريقهم إلى الحج ذاهباً وجائياً، فخطب السلطان أبا يحيى في شأنه وأعادته إلى مكانه من اصطناع سلفه واستقام على طاعته. ولما انتظم السلطان أبو يحيى سائر البلاد الجريدية في ملكه وعقد عليها لابنه أبي العباس ولي عهده، وأنزله دار إمارتها متردداً ما بين توزر وقفصة إلى أن قفلت عمته من الحج سنة ست وأربعين وسبعمئة، وخرج للقائها تخفياً بين الظلعان فجمعه مجلسها بأحمد بن مكي كان قد اعتمد تلقيها والقيام بصحابتها في مراحل سفرها من بلده إلى آخر عمله، فمسح الأمير أبو العباس الإحن عن صدره وأدال له الأمن والرضى من توحشه، واستخلصه لدولته ونجوى أسرارهِ واصطفاه لنفسه وحمله رديفاً لحاجبه، فحل من دولته بمكان غبطة فيه امتيازهِ من أمراء تلك الطوائف.

وعقد له السلطان أبو يحيى على جزيرة جربة بوسيلة أبي العباس ابنه، وقد كان اقتحها غلوف بن الكماد من صنائعهم من يد العدو أهل صقلية كما ذكرناه، فضمها إليه وصيرها في أعماله. ولم يزل هذا شأنه معه إلى أن هلك أبو العباس ولي العهد بتونس على يد أخيه أبي حفص عمر عندما دخلها بعد مهلك أبيهما كما ذكرناه، ولحق أحمد بن مكي ببلده. ثم سار في وفد رؤساء الجريد إلى تلقي السلطان أبي الحسن عند نهوضه إلى إفريقية سنة ثمان وأربعين وسبعمئة ولقيه معهم بوهران من أعمال تلمسان، وكان قدمه عنده فوق قدمهم. ورجع الوفد على أعقابهم محبورين. وتمسك بأحمد بن مكي في جلته إلى الحضرة، ووفد عليه أخوه عبد الملك مؤدياً طاعة السلطان، فكرم موصله وأحسن متقلبهما جميعاً إلى بلدهما على ما كان بيدهما من عمل قابس وجربة. ثم كانت نكبة السلطان أبي الحسن على القيروان فوفد عليه أحمد بتونس بعد خلوته من القيروان مجدداً لعهد طاعته، فأرادهم السلطان على الامتنان لعبد الواحد اللحياني سلطانهم الأقدم، وعقد له على تلك الثغور الشرقية، وأنزله جربة، وأمرهما بالطاعة له ما دام في طاعته. وعقد لأبي القاسم بن عتو شيخ الموحدين على توزر وقسطنطية بعد أن كان قطعه عندما قبض عليه في واقعة السلطان أبي حفص عمر. ثم استقبل رايه في استخلاصه عندما انتقض عليه أبو محمد بن تافراكين. ولما رجع

لأول أمره رئيس قابس لذلك العهد من بني مكي عبد الملك بن عثمان بن مكي فسارع إلى طاعته وحمل الناس عليها، وكانت له بذلك قدم في الدولة معروف رسوخه.

ولما تلقى الداعي بن أبي عمارة جسداً على كرسي الخلافة سنة إحدى وثمانين وستمئة قلده خطة الجباية بالحضرة مستقلاً فيها بالولاية والعزل والفرض والتقدير والحسبان بعد أن أجزل من بيت المال عطاءه وجرايته وأسنى رزقه وجرايته وأهدى الجوارى من القصر إليه. ولما هلك الداعي واستقلت قدم الخلافة من عثارها كما قدمناه سنة ثلاث وثمانين وستمئة لحق عبد الحق بن مكي ببلده وامتنع بها على حين ركود ربح الدولة وفشلها، ومرض في طاعته ودافع أهل الدولة بالدعاء للخليفة على منابره. ثم جاهر بالخلعان سنة ثلاث وتسعين وستمئة وبعث بطاعته إلى صاحب الثغور المولى أبي زكريا الأوسط. وهلك ابنه أحمد ولي عهده سنة سبع وتسعين وستمئة. ثم هلك هو من بعده على رأس المائة السابعة، وتخلّف حافده مكي فنصبوه بقعة. وكفله ابن عمه يوسف بن حسن وقام بالأمر مستبداً عليه إلى أن هلك، وخلفه في كفالة أحمد بن ليران من بيوت أهل قابس أصحاب بني مكي والثلاث أمهم بمهلك يوسف فنقلهم السلطان ابن اللحياني إلى الحضرة، وأقاموا بها أياماً، ثم ردهم إلى بلدهم أيام تحافيه عن تونس وخروجه إلى ناحية قابس.

ثم هلك خلال ذلك مكي، وتخلّف صبيين يافعين عبد الملك وأحمد فكفلهما أحمد ابن ليران إلى أن شبا واکتھلا، ولهما من الامتناع على الدولة والاستبداد بأمر القطر والاقتصار على الدعاء للخليفة مثل ما كان لأبيهما وأكثر لتقلص ظل الملك عن قطره، وشغل السلطان بمدافعة آل يغمراسن وعساكرهم عن الثغور الغربية، واجلابهم بالأعياص من أهل البيت على الحضرة،

ولما هلك السلطان أبو يحيى اللحياني قفل ابنه عبد الواحد إلى المغرب يحاول أسباب الملك، ونزل بساحتهم على ما كان من صنع أبيه إليهم فذكروا العهد، وأوجبوا الحق وآتوا بيعتهم. وقام كبيرهم عبد الملك بأمره ودعا الناس إلى طاعته، وخالف السلطان أبا يحيى عند نهوضه إلى الثغر بيجاية سنة ثلاث وثلاثين وسبعمئة كما قدمناه، فدخل الحضرة وليث بها أياماً لم تبلغ نصف شهر، وبلغ خبرهم إلى السلطان فانكفاً راجعاً وفروا إلى مكانهم من قابس، والدولة تنظر إليهم الشز وتربص بهم الدوائر إلى أن غلب السلطان أبو الحسن على تلمسان ومحا دولة آل يغمراسن، وفرغت الدولة من شأنهم إلى تمهيد أعمالها وتقويم المنحرفين عن الطاعة من ولائها.

مكي على طرابلس فاستقل بها، وعقد لأخيه عبد الملك على قابس وجربة وأقاموا على دعوته. ومد أحمد يده إلى صفاقس فنازلها وتغلب عليها سنة سبع وخمسين وسبعمئة وهلك السلطان أبو عنان وقد شرق صدر ابن تافراكين الغالب على الحضرة بعداً وتهماً فردد عليهما البعوث براً وبحراً إلى أن استخلص جزيرة جربة من أيديهما أعوام أربعة وستين وسبعمئة وعقد عليها لولده محمد فاستخلف بها كاتبه محمد بن أبي القاسم بن أبي العيون من صنائع الدولة كما ذكرناه.

وهلك أحمد بن مكي سنة ست وستين وسبعمئة على نفية مهلك الحاجب بن تافراكين بالحضرة فكانهما ضربا موعداً للهلكة وتوافيا. وتغلب ابنه عبد الرحمن بطرابلس في كفالة مولاه ظافر العلج، وهلك ظافر إثر مهلكه فاستبد عبد الرحمن بطرابلس وساء سيرته فيها إلى أن نازله أبو بكر بن محمد بن ثابت في أسطوله كما نذكره سنة اثنتين وسبعين وسبعمئة. وأجلب عليه بالبرابرة والعرب من أهل الوطن فانتقض عليه أهل البلد وثاروا به. ويادر أبو بكر بن ثابت لاحتكامها عليه وأسلموه ففرّ إلى بيت أحد أمراء دباب فأجاره إلى أن أبلغه مأمنه من محلة قومه، وإيالة عمه عبد الملك بقابس إلى أن هلك سنة تسع وسبعين وسبعمئة ولم يزل عبد الملك لهذا العهد وهو سنة إحدى وثمانين وسبعمئة والياً على عمله بقابس وابنه يحيى مستبد بوزارته، وحافده عبد الوهاب لابنه مكي رديف له، وقد تراجعت أحوالهم عما كانت وخرجت من أيديهم الأعمال التي كانت في عمالتهم لعهد أخيه أحمد مثل: طرابلس وجزيرة جربة وصفاقس وما إلى ذلك من العملات حتى كان البخت إنما كان لأخيه، واليمن إنما اقترن بحياته وسيرتهما جميعاً من العدالة وتحري مذاهب الخير والسمت، والانسام بسمات أهل الدين وحيلة الفقه معروفة حتى كان كل واحد منهم إنما يدعي بالفقه علماً بين أهل عصره حرصاً على الانتماس في مذاهب الخير وطرقه. وكان لأحمد حظ من الأدب، وكان يقرض الأبيات من الشعر فيجيد عفا الله عنه. وله في الترسل حظ ووساع بلاغة وخط، وينحو في كتابه منحى أهل المشرق في أوضاع حروفهم وأشكال رسومها، ولأخيه عبد الملك حظ من ذلك شارك به جهابذة أهل عصره وأفقه.

ولما انتظم السلطان أبو العباس أمصار إفريقية في ملكه واستبد بالدعوة الحفصية على قومه داخل أهل الجريد منه الروع، وفزعوا إليه للمقاوضة في الامتناع فدخلهم في ذلك وأشاروا إلى صاحب تلمسان بالترغيب في إفريقية فعجز عنهم وألحوا عليه فخام عن العداوة. وزحف مولانا السلطان خلال ذلك إلى الجريد

من القيروان إلى تونس عقد له على توزر كما ذكرناه، ولعبد الواحد بن اللحياني على قابس وجربة فأسف بذلك بني مكي هؤلاء.

وهلك ابن اللحياني حين نزوله بجربة بما أصابه من علة الطاعون الجارف سنة تسع وأربعين وسبعمئة فانتقض بنو مكي على السلطان أبي الحسن ودعوا إلى الخروج عليه وبايعوا الأفضل ابن السلطان أبي يحيى عندما أفرج عن حصار تونس سنة خمسين وسبعمئة، وداخلوا أبا القاسم بن عتو وهو إذ ذاك لم يتوزر، فاجابهم وكانت من دواعي رحلة السلطان أبي الحسن من إفريقية وتقويضه عنها كما قدمناه. ولما رجع الحاجب أبو محمد بن تافراكين من المشرق، واستقل بأمر تونس، ونصب الإمام أبا إسحاق ابن السلطان أبي يحيى للخلافة بها في كفالته غصوا بمكانه من التغلب وأنقوا من استبداده، وانحرفوا إلى دعوة الأمير أبي زيد صاحب ثغر قسطنطينية. ووفد عليه أحمد بن مكي مع محمد بن طالب بن مهلهل كبير البدو بإفريقية فيمن إليه فاستهزوه وقلده الأمير أبو زيد حجابته وجعل أمره إليه. وأبرز الحاجب أبو محمد تافراكين سلطانه أبا إسحاق في عساكره مع خالد بن حمزة وقومه فالتقى الجمعان بمرجنة وكانت الدبرة على السلطان أبي إسحاق سنة ثلاث وخمسين وسبعمئة وجاؤوا على أثرهم فنازلوا تونس أياماً وما أفرجوا عنها إلا للصالح يخبرهم باحتلال عساكر بني مرين بالمرية من آخر أعمال تلمسان، وأن السلطان أبا عنان قد استلحم بني عبد الواد، وجمع كلمة زناتة، واستقام له أمر المغريرين. وأطل على الثغور الشرقية فافترق جمعهم. ولحق الأمير أبو زيد بقسطنطينية، وأحمد بن مكي بقابس وسأل من الأمير أبي زيد أن يقسم رسم الإمارة بينهم في قابس وجربة بأخيه السلطان أبي العباس فأذن له في ذلك، فكانت أول ولايته السعيدة ومضى إلى قابس فترها، ثم أجاز البحر إلى جربة، ودفع عنها العسكر الذي كان محاصراً للقشتيل من قبل ابن ثابت صاحب طرابلس، ورجع إلى قابس حتى كان من أمره ما ذكرناه.

وأوفد السلطان أبو العباس أخاه أبا يحيى زكريا على أبي عنان ملك المغرب صريحاً على شأنه، وأوفد ابن مكي رسلاً متدماً ومذكراً بوسائله فتقبل وأغضى. ثم كانت واقعة العدو دمره الله بطرابلس سنة أربع وخمسين وسبعمئة كما قدمناه فبعث إلى السلطان أبي عنان يسأله فديتها والنظر لها من بين ثغور المسلمين، فحمل إليه خمسة أحمال من الذهب العين من بيت المال، أوفد بها من أعيان مجلسه: الخطيب أبا عبد الله بن مرزوق، وأبا عبد الله محمد حافد المولى أبي علي عمر بن سيد الناس. وعقد لأحمد بن

ملك قابس فأجابوه وساروا معه فينتها ودخلها وقبض على يحيى بن عبد الملك فضرب عنقه، وانقرض أمر بني مكى من قابس، والله الأمر من قبل ومن بعد، وهو خير الوارثين.

الخبر عن بني ثابت رؤساء مدينة طرابلس وأعمالها

قد تقدم لنا شأن هذا البلد لأول الفتح الإسلامي، وأن عمرو بن العاص هو الذي تولى فتحه، وبقي بعد ذلك من جملة أعمال إفريقية، تنسحب عليه ولاية صاحبها، فلم يزل ثغراً لهذه الأعمال من لدن إمارة عقبة ومن بعده وفي دول الأغالبة. وكان المعز لدين الله من خلفاء الشيعة لما ارتحل إلى القاهرة، وعقد على إفريقية لبلكين ابن زيري بن مناد أمير صنهاجة، عقد على طرابلس لعبد الله بن يخلف من رجالات كتامة. ثم لما ولي نزار الخلافة سنة سبع وستين وثلاثمائة طلب منه بلكين أن يضيف عمل طرابلس إلى عمله فأجاب وعهد له بها، وولى عليها بلكين من رجالات صنهاجة. ثم عقد عليها الحاكم بعد مهلك المنصور بن بلكين ليأس الصقلي سنة تسعين وثلاثمائة بمدخله عاملها بمصول من صنهاجة، وأعانه على ذلك برجوان الصقلي المتغلب على الدولة يومئذ لما قسمه ليأس، فوصل إليها في ألف وخمسمائة فارس فملكها، فسرح باديس جعفر بن حبيب لحربه في عسكر من صنهاجة، وتزاحا يومين بساحة زنزور، ثم انقض عسكر يأس في الثالث وقتل، ولحق فله بطرابلس فاعتصموا بها. ونازلهم جعفر بن حبيب القائد، وزحف فلفول بن سعيد بن خززون الشائر على باديس وابنه بإفريقية إلى قابس فحاصرها.

ثم قصد جعفر بن حبيب بمكانه من حصار طرابلس فأفرج عنها جعفر ولحق بنفوسة، وأميرهم يحيى بن محمد فامتنع عليهم، ثم لحق بالقيروان ومضى فلفول بن سعيد إلى طرابلس فخرج إليه فتوح بن علي ومن معه من أصحاب يأس فملكوه، وقام فيها بدعوة الحاكم من خلفاء الشيعة وأوطنها. وعقد الحاكم عليها ليحيى بن علي بن حمدون أخي جعفر صاحب المسيلة النازع إليه من الأندلس فوصل إليها واستظهر بفلفول على مجابية، ونازل قابس فامتنت عليه. ثم عجز عن الولاية ورأى استبداد فلفول عليه بعصبته فرجع إلى مصر، واستبد فلفول بطرابلس وتداولها بنوه مع ملوك صنهاجة إلى أن استبدوا بها آخرأ. ودخل العرب الهلاليون إلى إفريقية فخربوا أوطانها وطمسوا معالمها. ولم تنزل بأيدي بني خززون هؤلاء إلى أن غلبهم عليها جرجي بن ميخائيل

فملك قفصة وتوزر ونقطة فبادر ابن مكى إلى التلبس بالاستقامة وبعث إليه بالطاعة. ثم رجع السلطان إلى الحضرة فرجع هو عن المصدوقة واتهم أهل البلد بالميل إلى السلطان فتقبض على بعضهم وفر آخرون. وانتقض بنو أحمد أهل ضواحيه من دباب فنأزلوه وبعثوا إلى الأمير الأكبر أبي بكر بقفصة في العسكر لمنازلته، فبعثه إليهم وأحاطوا به. ثم انتهز الفرصة وداخل بعض العرب من بني علي في تبيت العسكر، وبذل لهم في ذلك المال فيتوه وانقض وبلغ الخبر إلى السلطان فخرج من حضرته سنة إحدى وثمانين وسبعمائة ونزل القيروان وتوافت إليه أحاديث وبعث رسله للأعذار بين يديه فردهم ابن مكى بالطاعة ثم احتمل رواحله ونزل بأحياء العرب.

وأغذ السلطان السير إلى البلد فدخلها واستولى على قصورها، ولأهل البلد بالبيعة فأثوها واستعمل عليهم من بطانته وانكفأ راجعاً إلى تونس. وهلك عبد الملك لأيام قلائل بين أحياء العرب. وهلك بعده ابنه عبد الرحمن ابن أخيه أحمد الذي كان صاحب طرابلس بعد أبيه، ولحق ابنه يحيى وحافده عبد الوهاب بطرابلس فمنعهم ابن ثابت من النزول ببلده لما كان متمسكاً بطاعة السلطان، فنزلوا بزنزور من بلاد دباب التي بضواحيها وأقاموا هنالك. واستقامت النواحي الشرقية على طاعة السلطان وانتظمت في دعوته والله مالك الملك.

ثم ذهب يحيى بن عبد الملك إلى المشرق لقضاء فرضه، وأقام عبد الوهاب بين أحياء البربر بالجبال هنالك، وكان الوالي الذي تركه السلطان بقابس قد ساء أثره في أهلها، فندس شيعتهم إلى عبد الوهاب بذلك وجاء إلى البلد فينتها، وثاروا بالوالي فقتلوه سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة وملك عبد الوهاب قابس وجاء أخوه يحيى من المشرق بعد قضاء فرضه، فأجلب عليه مراراً يروم ملكها منه، ولم يتهيا له، ونزل على صاحب الحمة فداخله عبد الوهاب في أن يمكنه منه، ويشترط ما شاء. وتم ذلك بينهما وأوثقه كتافاً وبعث به إليه واعتقله بقصر العرومين، فمكث في السجن أعواماً. ثم فر من محبسه ولحق بالحامة على مرحلة من قابس مستجداً بآين وشاح صاحبها، فأنجده. وما زال يجلب على نواحي قابس إلى أن ملكها وتقبض على عبد الوهاب ابن أخيه مكى فقتله أعوام تسعين وسبعمائة. ولم يزل مستبداً ببلده إلى سنة ست وتسعين وسبعمائة وكان الأمير عمر ابن السلطان أبي العباس قد بعث أبوه لحصار طرابلس فحاصرها حولاً كما نذكره، حتى استقام أهلها على الطاعة وأعطوا الضريبة فأفرج عنها. ورجع إلى أبيه فولاه على صفاقس وأعمالها فاستقل بها، ثم داخل أهل الحامة في

سعيد بن طاهر المزوغي وملك أمر البلد، وكان معه أبو البركات بن أبي الدنيا فمات حتف أنفه. واستقل ابن طاهر بأمر طرابلس اثنتي عشرة سنة. ثم هلك وقام بأمرها ثابت بن عمار الزكوجي من قبائل هواره. وثار به لسته أشهر من ولايته أحمد بن سعيد بن طاهر فقتله واستبد به. ثم ثار به جماعة زكوجة وقتلوه في مقتله عند الأذان بالصبح، وولوا محمداً ابن شيخهم ثابت بن عمار أعوام سبعة وعشرين فاستبد بأمر طرابلس نحواً من عشرين سنة وظل الدولة متقلص عنه. وهو يغالط عن الإمارة بالتجارة والاحتراف بها ولبوس شارتها، والسعي راجلاً في سكك المدينة يتناول حاجاته وماعونه بيده ويخالط السوق في معاملاته، يذهب في ذلك مذهب التخلق والتواضع يسر منه حسواً في ارتقاء، ويطلب العامل من تونس، فيبعثه السلطان على طرابلس يقيم عنده معتملاً في تصريفه. وهو يبرأ إليه ظاهراً من الأحكام والنقض والإبرام إلى أن كان تغلب بني مرين على إفريقية. ووصل السلطان أبو الحسن إلى الحضرة على ما ذكره، فداوله طرف الحبل وهو ممسك بطرفه، ونقل إلى الإسكندرية ماله وذخيرته. ثم اغتاله أثناء ذلك جماعة من مجريش عند داره فقتلوه، وثار منهم للحين بطائنه وشيعته. وولي بعده ابنه ثابت، فتزيا بزري الإمارة في اللبوس والركوب بحلية الذهب، واتخاذ الحجاب والبطانة.

وأقام على ذلك إلى أن اجتمع بها أسطول من تجار النصارى أغفلوا أمرهم لكثرة طروقهم وترددهم في سبيل التجارة، وكثرة ما يشهاها من سفنهم، فغدروا بها ليلاً وثاروا فيها وكثروا أهلها فأسلم الحامية إليهم باليد. وفر مقدمهم ثابت إلى حلة أولاد مرغم أمراء الجوارى في أمثانها فقتلوه صبراً لدم كان أصابه منهم في رئاسته، فكانت مدته ست سنين، وقتلوا معه أخاه عمراً.

واكتسح النصارى جميع ما كان بالبلد من الذخيرة والمتاع والخزني والماعون، وشحنوا السفن بها وبالأسرى من العقائل والحامية مصفدين، وأقاموا بالبلد أياماً على قلق ورهب من الكرة لو كان لها رجال. ثم تحدثوا مع من جاورها من المسلمين في فدائهم فصدى لذلك صاحب قابس أبو العباس أحمد بن مكى وبذل لهم فيها خسين ألفاً من الذهب استوهب أكثرها من جماعة المسلمين بالبلاد الجريدية تزلماً إلى الله باستخلاص الثغر من يد الكفر، وذلك سنة... وخسين ولحق ولد ابن ثابت بثغر الإسكندرية فأقاموا به يحترفون بالتجارة إلى أن هلك أحمد بن مكى سنة ست وستين وسبعمئة، وقام بأمره ولده عبد الرحمن. فسمأ أبو بكر بن محمد بن ثابت إلى رئاسة أبيه، وذكر عهود الصبا في معاهد قومه فاكثرى من النصارى سفناً شحنتها بصنائه وموالي أبيه،

صاحب أسطول رجاء ملك صقلية من الإفرنج سنة أربعين وخسمائة، وأبقى المسلمين بها واستعمل عليهم كما فعل في سواحل إفريقية فأقاموا في ملكة النصارى أياماً. ثم ثار بهم المسلمون بمداخلة أبي يحيى بن مطروح من أعيانهم وفتكوا بهم. ولما افتتح عبد المؤمن المهدي سنة خمس وخسين وخسمائة وفد عليه ابن مطروح ووجوه أهل طرابلس فأوسعهم نكرمة ورددهم إلى بلدهم. وولى عليهم ابن مطروح إلى أن كبر سنه وعجز وارتحل إلى المشرق سنة ست وثمانين وخسمائة بإذن السيد زيد بن عمر بن عبد المؤمن عامل إفريقية من قبل عمه يوسف واستقر بالإسكندرية.

وتعاقبت عليها ولاية الموحدين، ثم كان من أمر ابن غانية وقراقش ما قدمناه، وصارت طرابلس لقراقش. ثم استبد بنو أبي حفص بإفريقية على بني عبد المؤمن. وهلك قراقش وابن غانية، وانتظم عمل طرابلس في أعمال الأمير أبي زكريا وبينه إلى أن انقسمت دولتهم، واقتطعت الثغور الغربية عن الحضرة. وفشل ربح الدولة بعض الشيء وتقلص ظلها عن القاصية، فصارت رئاسة طرابلس إلى الشورى ولم يزل العامل من الموحدين يجيء إليها من الحضرة إلا أن رئيسها من أهلها مستبد عليها، وحدثت العصية في البلد لحدوث الشورى والمنافسة فيها. ثم نزلها السلطان أبو يحيى بن اللحياني سنة سبع عشرة وسبعمئة حين تحافى عن ملك الحضرة، وأحسن بزحف السلطان أبي يحيى صاحب بجاية إليها فأبعد عن تونس إلى ثغر طرابلس، وأقام بها وأقام أحمد بن عربي من مشيختها بمخدمته.

ولما فارق ابن اللحياني تونس وثنس الموحدون من عوده أخرجوا ابنه محمد المكنى بأبي ضربة من الاعتقال، وباعوا له. وخرج للقاء السلطان أبي بكر ومدافعتة فهزمه السلطان أبو بكر وحمله الأعراب الذين معه على قصد طرابلس لانتزاع الأموال والذخائر الملوكية من يد أبيه. ولما أحس بذلك أبوه ركب البحر من طرابلس إلى الإسكندرية كما هو مذكور في خبره، واستخلف على طرابلس صهره محمد بن أبي عمر بن إبراهيم بن أبي حفص فقام بأمرها، وولى حجابته رجلاً من أهله يشهر بالبطيسي، فساء أثره في أهل طرابلس، وحجب عنهم وجه الرضى من سلطانه، وحمله على مصادرتهم واستخلاص أموالهم حتى أجمعوا الثورة بالسلطان فركب السفين ناجياً منهم بعد أن تعرض بعضهم لوداعه فاطلعه على سعايات البطيسي بهم فقتلوه لوقت، وقتلوا قاضياً بطرابلس من أهل تونس كان بمال على ذلك. وتولى كبر ذلك أحمد بن عربي. ثم هلك وقام بأمر طرابلس محمد بن كعبور فقتله

الخبر عن زناتة من قبائل البربر وما كان بين أجيالهم من العز والظهور وما تعاقب فيهم من الدول القديمة والحديثة

هذا الجبل في المغرب جبل قديم العهد، معروف العين والأثر؛ وهم لهذا العهد أخذون من شعائر العرب في سكنى الخيام واتخاذ الإبل وركوب الخيل والتغلب في الأرض وإيلاف الرحلتين، وتحطف الناس من العمران، والإبابة عن الانقياد للنصفة.

وشعارهم بين البربر اللغة التي يتراطنون بها، وهي مشتهرة بنوعها عن سائر رطانة البربر. ومواطنهم في سائر مواطن البربر بإفريقية والمغرب.

فمنهم ببلاد النخيل ما بين غدامس والسوس الأقصى، حتى أن عامة تلك القرى الجريدية بالصحراء منهم كما نذكره.

ومنهم قوم بالتلول بجبال طرابلس وضواحي إفريقية، وبجبل أوراس بقايا منهم سكنوا مع العرب الهلاليين لهذا العهد، وأدعوا لحكمهم؛ والأكثر منهم بالمغرب الأوسط حتى أنه ينسب إليهم ويعرف بهم فيقال: وطن زناتة.

ومنهم بالمغرب الأقصى أمم أخرى، وهم لهذا العهد أهل دول وملك بالمغربيين، وكانت لهم فيه دول أخرى في القديم.

ولم يزل الملك يتداول في شعوبهم حسبما نذكره بعد لكل شعب منهم إن شاء الله تعالى.

الخبر عن نسبة زناتة وذكر الخلاف الواقع فيه وتعدد شعوبهم

أما نسبهم بين البربر فلا خلاف بين نسباتهم أنهم من ولد شانا وإليه نسبهم، وأما شانا فقال أبو محمد بن حزم في كتاب «الجمهرة»: قال بعضهم: هو جانا بن يحيى بن صولات بن ورمك بن ضري بن رحيك بن مادغيس بن بربر.

وقال أيضاً في كتاب «الجمهرة»: ذكر لي يوسف الوراق عن أيوب بن أبي يزيد - يعني حين وفد على قرطبة عن أبيه الثائر بإفريقية أيام الناصر - قال: هو جانا بن يحيى بن صولات بن ورساك بن ضري بن مقبوي بن قروال بن يملا بن مادغيس بن رحيك بن همرحق بن كراد بن مازيغ بن هريك بن هرك بن برا بن بربر بن كنعان بن حام هذا ما ذكره ابن حزم.

ونازها سنة إحدى وسبعين وسبعمائة في أسطول من أساطيلهم. واجتمع إليه ذؤبان العرب ففرق فيهم الأموال وأجلب عليها بمن في قراها وأريافها من الرجل، فاقتحمها على عبد الرحمن بن أحمد بن مكى عنوة، وأجاره العرب من أولاد مرغم بن صابر، وتولى ذلك منهم إلى أن أبلغوه مأمنه في إيالة عمه عبد الملك بمكان إمارتهم بقابس.

واستوسق أمر طرابلس لأبي بكر هذا، واستقل بولايتها. ودخل في طاعة السلطان أبي العباس بتونس، وخطب له على منابر، وقام يصانعه بما للسلطان من الضريبة، ويتحفه حيناً بعد حين بالهدايا والطرف إلى أن هلك سنة اثنين وتسعين وسبعمائة، وولي مكانه علي ابن أخيه عمار، وقام بكفالاته عمه. وكان قائده قاسم بن خلف الله متهماً بالتشيع للصبي المخلف عن أبي يحيى، فارتاب ودفعوه لاقضاء المغارم من مسرته، فتوحش الخليفة من علي وانتقض. ثم بعث إليه بأمانه فرجع إلى طرابلس، ثم استوحش وطلب الحرج فخلوا سبيله وركب البحر إلى الإسكندرية. ولقي بها خالصة السلطان محمد بن أبي هلال عام حج فأخذ منه ذمة، وكر راجعاً في السفين إلى تونس يستحث السلطان للملك طرابلس. فلما مر بهم راسلوه ولاطفوه واستعادوه إلى مكانه فعاد إليهم. ثم جاءته النذر بالهلكة فقر، ولحق السلطان بتونس واستحثه للملك طرابلس. وبلغ الخبر إلى السلطان فبعث معه ابنه الأمير أبا حفص عمر لحصار طرابلس فنزل بساحتها، وافترق عرب دباب عليه وعلى ابن ثابت، وقام ابن خلف الله في خدمته المقام المحمود، ووفر له جباية الوطن ومغارمه ونقل العرب إلى طاعته ويستألفهم به، وأقام عليها حولاً كريئاً يمنع عنهم الأقوات ويرزون إليه فيقاتلهم بعض الأحيان. ثم دفعوه بالضريبة التي عليهم لعدة أعوام نائطة وكان قد ضجر من طول المقامة فرضي بطاعتهم وانكفأ راجعاً إلى أبيه سنة خمس وتسعين وسبعمائة فولاه على صفاقس وافتتح منها قابس كما قدمناه. وأقام علي بن عمار على إمارته بطرابلس إلى هذا العهد، والله مدبر الأمور بحكمته.

هذا آخر الكلام في الدولة الحفصية من الموحدين وما تبعها من أخبار المتقدمين المستبدين بأمصاير الجريد والزباب والثغور الشرقية، فلنرجع إلى أخبار زناتة ودولهم، ويكملها يكمل الكتاب إن شاء الله تعالى.